عبد الله حنا

المثقفون

في

السياسة والمجتمع

(الأطباء)

المثقفون في السياسة والمجتمع

* المثقفون في السياسة والمجتمع
* د. عبد الله حنا
* الطبعة الأولى - ٥ / ١٩٩٦
* جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
* التوزيع:
قسم التوزيع - الأهالي للنشر والتوزيع
دمشق - هاتف: ٢٢١٣٩٦٢ - ص.ب: ٩٢٢٣ - تلكس: ٤١٢٤١٦
فاكس: ٣٣٣٥٤٢٧

المثقفون في السياسة والمجتمع

نموذج الأطباء في سورية

من أواخر القرن التاسع عشر إلى أواخر القرن العشرين

عبد الله حنا

المقدمة

المثقفون (Intelligentsia) ، كما هو معروف مصطلح استخدم أول الأمر في روسيا . وكان يطلق على الصفوة المتعلمة ، التي تلقت معارفها في الجامعات الغربية أو الجامعات الروسية الحديثة . انتشر المصطلح من روسيا إلى أوروبا الغربية ومن ثمّ إلى المشرق العربي

قبل الربع الأخير من القرن التاسع عشر لم يكن ثمة في المشرق العربي وجود للمثقفين بالمعنى المتداول حالياً . لقد وجد قبل ذلك التاريخ ماكان يُعرف بـ«أصحاب القلم» . وهم فئة ممن تعلموا القراءة والكتابة مستخدمين إياها في غرضين رئيسين : الأول العمل في الشؤون الحسابية واحتكار الأسرار المالية المتعلقة بجباية الضرائب من الرعية وانفاقها على الحكام ومن في خدمتهم . والثاني الانصراف إلى أمور الدين ومايتصل بها من قضايا شرعية . ولم تكن معارف «أصحاب القلم» هؤلاء تتعدى ، إلا فيما ندر، المعارف السطحية الممزوجة بالأساطير والخرافات . ومثالنا على ذلك ماكتبه الشيخ بهجت البيطار في تقديمه لمخطوط جده «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» . فقد كتب الشيخ بهجت : « . . . كان عصره عصر جمود على القديم وتلقي الأقوال بالتسليم من دون تمحيص للصحيح من السقيم» . ووصف الشيخ بهجت جده الشيخ عبد الرزاق البيطار بأنه « . . . اشتهر بالانكار على أرباب الخرافات ، وكان ممن يقاوم بلسانه وبراهينه تلك الخزعبلات» .

أُطلق على أصحاب القلم من ذوي العلم الديني اسم «الأعيان». فمحمد جميل الشطي اطلق في كتابه «أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر» الأوصاف التالية على الأعيان وهم: «فاضل، طبيب، معتقد، مرشد، فقيه، ولي، وجيه، نقشبندي، شاعر، محدث، مفتي، قاضي، رئيس مؤذنين، خطاط، صوفي، فلكي، محدث أكبر، فرضي (الذي اتقن علم الفرائض وتقسيم المواريث)، عالم محدث، عالم، شيخ قُرّاء، شيخ الشام، إمام، خطيب، مولوي، مجذوب، زاهد، عابد، تاجر، مدرس، رفاعي، شاذلي، قادري، دسوقي، مقرىء، عالم مرشد».

بعد أفول شمس الحضارة العربية الإسلامية المزدهرة، حتى القرن الثاني عشر الميلادي، أخذت المدارس بالاندثار وقامت مكانها الكتاتيب، التي أشرف عليها مشايخ الكُتاب وهم أُناس أقرب إلى الأمية منهم إلى المتعلمين. واستمر الأمر على هذا المنوال من الركود الثقافي قروناً عدة حتى القرن التاسع عشر.

ثمة أسباب عديدة أدت إلى بداية النهوض في القرن التاسع عشر لا يتسع المجال لتعدادها. وعلى أثر حركة الاصلاحات في الدولة العثمانية في منتصف القرن التاسع عشر ظهر نوعان من المدارس.

- المدارس، التي درست العلوم، أو بعضاً منها باللغتين التركية والعربية وهي مدارس تابعة للدولة وغرضها تغطية حاجة الدولة إلى الكوادر العسكرية والمدنية.
- مدارس الإرساليات الأجنبية، التي رمت في معظمها إلى تمهيد الطريق أمام الاستعمار الغازي. ولكنها اسهمت، في الوقت نفسه، في مدر الجسور الثقافية بين المشرق العربي وأوروبا بعلمها وحضارتها. وقد أدت هذه المدارس، بالإضافة إلى الجامعات، إلى تكون فئة من المثقفين يتكلم أفرادها لغة أوروبية أو أكثر وهم على اطلاع، عميق أو سطحي، على التطور العلمي الجاري في أوروبا والعالم.

بعد انهيار الدولة العثمانية عام ١٩١٨ وخضوع بلاد الشام والعراق للاستعمارين الفرنسي والبريطاني انتشرت على نطاق واسع مدارس الإرساليات

بالإضافة إلى المدارس الخاصة. واختفت مدارس الدولة العثملية لتحل محلها مدارس وطنية تأخذ بالمناهج الغربية (البورجوازية) وقد أدت هذه العملية إلى تكوّن المثقفين المطلعين على المعارف العلمية الحديثة، الذين نادى قسم منهم بدفع المجتمعات العربية قدماً في طريق التطور والسعي لتحقيق أهداف النهضة العربية، وهي: العقلانية، الليبرالية، العلمانية، الديمقراطية، المجتمع المدني وغيرها.

تمَّ لهذا التيار النهضوي الغلبة في صفوف المثقفين. وفي الوقت نفسه انكمش وضَمُر التيار السلفي (المسمى حالياً أصولي). وشهدنا في الأربعينات والخمسينات صعود التيار القومي، مع انتشار ملحوظ للتيار الماركسي، الذي تأسّست له مواقع واضحة المعالم في صفوف المثقفين في الستينات.

وبفعل عوامل كثيرة، داخلية وخارجية، أخذ يتنامى دور الأصوليات الدينية، التي اكتسحت افئدة شرائح واسعة من العامة في السبعينات والثمانينات وكسبت فصائل هامة من المثقفين. والبون واسع بين سلفية عصر النهضة العربية ذات النزعة التنويرية وسلفية هذا العصر. وعقد مقارنة بينهما أمر ضروري وهام.

تألف المثقفون، الذين شكلوا في مستهل القرن العشرين نخبة محدودة في المجتمع، من الفئات التالية: الأطباء، المحامون، المعلمون، الموظفون، حاملوا الشهادات. وفي منتصف القرن العشرين أخذت تظهر فئة جديدة هي فئة المهندسين، التي سيكون لها دور هام في الربع الأخير من القرن العشرين.

وقد تحدر المثقفون، عموماً، من «الطبقة الوسطى». وحملوا همومها وتطلعاتها. ومع انتشار العلم في الربع الثالث من القرن العشرين ونتيجة للتغيرات المتفاعلة في الخارطة الاجتماعية أو بسببها، انفتحت أبواب الكليات الجامعية أمام جموع أبناء الريف والمدينة الفقراء، مما أدى بعد مدة من الزمن إلى رفد المثقفين بأعداد كبيرة من أبناء «الطبقات الدنيا». وهذه الظاهرة كان لها ولايزال جوانبها الايجابية الواضحة وبعض التأثيرات السلبية، التي لايُقر بها بعضهم.

مانريد التأكيد عليه أن المثقفين ليسوا فئة اجتماعية متجانسة ومنغلقة على نفسها، بل تحتوي على شرائح متعددة تعتمل في داخلها تفاعلات شتى وتنتشر في

أنسجتها أيـديـولوجيات مختلفة . وبعد تفاقم ظاهرة انحسار «الطبقة الوسطى»، في الربع الأخير من هذا القرن، وصعود شرائح معدودة منها نحو الأعلى وانضمامها إلى الفئات الطفيلية والبيروقراطية الثرية، وهبوط شرائح واسعة نحو الأدنى وانضمامها إلى مختلف الطبقات المنتجة وغير المنتجة، تأثر المثقفون بهذه الظاهرة، التي رافقها أو نتج عنها انحسار الثقافة وتسطحها وتراجع دور المثقف لصالح الفئات البيروقراطية والطفيلية وحملة «البترودولار»، وغيره من عملات عباد الله .

لماذا اخترنا الأطباء نموذجاً لدراسة دور المثقفين في السياسة والمجتمع؟ . . .

انطلقت الفكرة من رأي مؤداه أن المحامين بحكم مهنتهم يمارسون السياسة بمختلف أوجهها، ويواجهون مشكلات اجتماعية واقتصادية ساخنة . فهم سياسيون بالطبع . والمعلمون لهم دور واضح وأساسي . وهم بحكم رسالتهم التربوية يتفاعلون بصورة مباشرة مع الأجيال الصاعدة في المجتمع ويؤثرون فيها عن طريق الاتصال المباشر والدعوة الشفهية . أما المهندسون فقد دخلوا الحلبة متأخرين، ولم يكن لهم وجود أو تأثير يذكر في النصف الأول من القرن العشرين . أما الأطباء فإنهم شكلوا الخلايا الأولى للجسم المثقف منذ تكونه في أواخر القرن التاسع عشر. وثمة آراء تقول إن مهنة الطب تحدّ من النشاط السياسي والاجتماعي للطبيب . ولهذا فإن دخول الأطباء، أو النخبة منهم، ميداني السياسة والمجتمع يُعد نادراً . ومعروف أن أعداداً كبيرة من الأطباء مُنغلقة على نفسها ومهنتها . من هنا انطلقت فكرة تتبع نشاط الأطباء ـ كنموذج للمثقفين ـ في الميادين التالية :

- الدعوة إلى التنوير والنهضة والنضال ضد التخلف والجمود .
- الكفاح الوطني ضد الاحتلال الاستعماري والدعوة إلى الوحدة القومية .
- الدعوة إلى العدالة الاجتاعية ومناداة بعضهم بالاشتراكية .
- الدعوة للعودة إلى الماضي من قبل التيار السلفي .
- الابداع الأدبي شعر ونثراً . .

وقد أولينا الاهتمام الرئيسي للأطباء، الذين كتبوا في هذه الميادين، والذين

استطعنا الوصول إلى نتاجهم المكتوب والمنشور. ونبدي أسفنا مقدماً للأطباء الذين كتبوا ولم يرد لهم ذكر في هذا الكتاب. والمسؤولية ليست مسؤوليتنا فقد عانينا الكثير من أجل الوصول إلى نتاج الأطباء. ومعروف أن ضعف الأرشفة أو انعدامها هي السبب في القصور الحاصل، إن كان ثمة قصور. فالأرشفة هي المفتاح الذي يهدي الباحث إلى مقاصده. ونود أن نشير إلى أننا لم نتكلم عن الأطباء الذين كتبوا في الميادين الطبية، على الرغم من أهمية انتاجهم ودورهم الريادي. إذ أن هدف البحث تتبع الأطباء الذين انتجوا في الميادين غير الطبية.

وهكذا فإن هذه الدراسة تتناول تكوّن الأطباء ـ كفئة من فئات المثقفين ـ وتتبع نشاطاتهم الابداعية المكتوبة (غير الطبية). كما أنها تقدم لوحة تكاد تكون متكاملة عن هذه الشريحة الاجتماعية النخبوية، غير المتجانسة، والتي تشكل أحد قطاعات الشريحة الاجتماعية الأوسع ألا وهي شريحة المثقفين. وتقدم منهج تقصي منشأ كل طبيب وكيفية تأهيله العلمي وتطوره المتعدد الجوانب، كيما تغدو صورةً قريبة من الوضوح في هذا الميدان.

الفصـــل الأول

في الطب ومعاهد تأهيل الأطباء

لم تكن مهنـة الطب حتى منتصف القـرن التـاسـع عشـر مهنة مستقلة بذاتها في بلاد الشام بل كانت متداخلة مع عدة مهن يتقنها «الطبيب» كي يستطيع أن يؤمن ضروريات الحياة.

وقديماً عرّف الفارابي الطب بقوله: «صناعة فاعلة عن مبادىء صادقة تحفظ بها الصحـة»[1]. وأشـار الإمـام الشـافعي إلى وجود علمين شريفين هما: «الطب والنجوم»[2].

وكان مشاهير الأطباء هم: الكاهن، العرّاف، الساحر، المنجم، الراقي[3]، والمعزم[4].

واستخدم هؤلاء نوعين من المعالجات كثيراً ما دمجا معاً وهما[5]:

- المعالجة عن طريق المسهلات والمعرقات والمخدرات والميجات والمسكنات والعضد والحجامة والكي.
- المعالجة عن طريق التعاويذ والأحجية والتمائم والرقى وسائر أنواع السحر والطلاسم.

ومن الأسماء العربية للطبيب الآسي (أي المداوي) والعرّان والحكيم. والأخير اسم لاتزال العامة إلى الآن تطلقه على الطبيب إشارة إلى أن الأطباء كانوا حكماء (فلاسفة) في القديم. وفي نهاية القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين اطلق على الطبيب اسم النطاسي[6].

يضرب الطب جذوره في أعماق التاريخ العالمي. وكان للحضارة العربية الاسلامية باع طويل في هذا الميدان. ولايزال قائماً إلى الآن البيمارستان[٧] الكبير في دمشق، الذي انشأه السلطان نور الدين زنكي عام ٥٥٠هـ، وجعل أمر الطب فيه إلى الطبيب المتفنن أبو المجد محمود بن أبي الحكم الباهلي[٨]. وقد أطلق السلطان يد أبي المجد في إدارة البيمارستان وأمر الجباية فيه بالاضافة إلى معالجة المرضى. ولم يكن هذا الطبيب «عالماً» في الطب فحسب بل اشتهر في علم الهندسة وعلم النجوم. وكان مولعاً بالفن الموسيقي عليماً بقوافيه عازفاً على العود. وإن من يقرأ «معجم الأطباء»[٩] يجد عدداً وافراً من الأطباء، الذين مارسوا إلى جانب التحكيم عدة مهن غير متعارضة مع مهنة الطب.

لم يكن غريباً تراجع «العلوم الطبية» مع تجَمُّد الحضارة العربية الاسلامية وتقهقرها في العهدين المملوكي والعثماني. واستمرت حالة الجمود حتى أواخر القرن التاسع وبزوغ عصر النهضة العربية. فالعلاف يذكر في كتابه «دمشق في مستهل القرن العشرين»[١٠] إنه «لم يكن في دمشق طبيب بالمعنى العلمي، إنما كان هناك أطباء نشأوا على أساس التجربة الكسبية من رؤسائهم ومعلميهم غير مدينين لأية ثقافة علمية أو أي جامعة طبية». ولم يكن في دمشق في أواخر القرن التاسع عشر أكثر من أربعة أو خمسة أطباء وكحّال واحد «طبيب العيون». ولم يكن هناك طبيب جراح. وكانت الجراحة وطبابة الأسنان والعيون مجتمعةً من اختصاص الحلاقين، الذين كانوا أيضاً يختنون الأولاد[١١].

ولم يكن الوضع في حلب يختلف عن دمشق على الرغم من أن الطب الحديث بدأ يطرق أبواب حلب مع استقرار الحاليات الأوروبية في المدينة. فعندما زار الهواء الأصفر (الكوليرا) حلب في تشرين الأول ١٨٨٠ دفع الخوف من الموت، المسيحيين إلى الزيارات المتكررة للكنائس للاعتراف، وأكثَرَ المسلمون من الصلاة وإقامة حفلات الذكر والاستغاثة بالله لرفع غضبه عن البلد وانقاذها من الوباء[١٢].

وقد دخل الطب الحديث حلب على يد الأطباء الأوروبيين الذين أقاموا في مدينة حلب لتطبيب الجاليات التجارية مثل الطبيبين المنحدرين من عائلة رسل اللذَيْنِ اقاما في حلب بين عامي ١٧٤٢ ـ ١٧٦٨[١٣]. ويذكر الغزي أن الأطباء الغربيين بدأوا في حدود عام ١٢٧٠هـ يحضرون إلى حلب ويداوون المرضى حسب قوانين الطب الحديث. وقد أخذ

عن بعضهم جماعة من الحلبيين(*) وشرعوا يطببون الناس(١٤). وظهرت في أواخر القرن التاسع عشر في كل من دمشق وحلب فئة من «الأطباء»، الذين تلقوا بعض المعارف الطبية من سابقيهم وعمقوها من خلال خبرتهم الشخصية. وبعضهم أخذ الطب من الكتب ثم فتح محلاً وشهر نفسه بأنه من الأطباء بوضع علب العقاقير وقناني للأشربة وغير ذلك من إمارات أهل الطب(١٥).

ومع تأسيس المعاهد الطبية في بيروت (١٨٦٦) واستنبول (أواخر القرن التاسع عشر) ودمشق (١٩٠٦) وقدوم الأطباء خريجي الجامعات الأوروبية شهد الحقل الطبي مرحلة انتقالية امتدت إلى العشرينات (وحتى الثلاثينات) من القرن العشرين تعايش فيها وتنافس «الأطباء القدامى» والأطباء الجدد خريجي المعاهد الطبية، الذين أخذ عددهم يتكاثر وسمعتهم تنتشر مُضَيقين الخناق على «الأطباء القدامى»، الذين انتهى أمرهم في أربعينات القرن العشرين.

عرّف «قاموس الصناعات الشامية» الطبيب في مستهل القرن العشرين بأنه «اسم لمن يطبب المرضى ويداوي داءاتهم ومن الواجب في حقه أن يكون متخرجاً من احدى الكليات المهمة حائزاً للشهادات العالية بفنه»(١٦). واصبح هذا الأمر (الحكم) واضحاً في عشرينات القرن العشرين. فقد ذكر الغزي أن الأطباء في حلب هم الآن أي في عام (١٩٢٥) «المتخرجون من المكاتب الطبية الرسمية وليس لأحد أن يعاني (يزاول - المؤلف) حرفة الطب إلا بإجازة من تلك المدارس»(١٧).

---

* - في حدود سنة ١٨٦٢ حضر إلى حلب المستشرق الامريكاني الدكتور حنا ورتبات وتعاطى مهنة الطب الحديث ثم سافر إلى بيروت ليسهم في إنشاء الكلية الانجيلية السورية عام ١٨٦٧. وأثناء وجود ورتبات في حلب تعلم علي يديه عدد من المهتمين في الطب واكتسبوا بعض المعارف الطبية وحصلوا على شهادة منه ومنهم. الشيخ محمد الكيالي والسيد بكري زبيدة والسيد عبد الله الخلاصي والشيخ محمد الأفندي الملقب بالحكيم ونصري الحكيم والشيخ محمود السنكري والشيخ راجي الروح والياهو حايير. وقد تعاطى هؤلاء مهنة الطب في بيوتهم واتخذوا منها عيادات يعالجون المرضى ويصرفون لهم الأدوية وبقي أناس منهم حتى عام ١٩٢٠.

والواقع أن تقدم الطب الحديث لم ينتشر في العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين إلا في جزر ضيقة النطاق في المدن وبعض مناطق الريف المتطورة ذات الحظ السعيد. وكانت الرعاية الصحية من قبل الدولة معدومة أو شبه معدومة وعدد الأطباء لا يتجاوز أصابع اليدين في المدن الكبرى. ومثال على ذلك ما كان عليه وضع اللاذقية عام ١٩١٥. فلم تضم إدارة الصحة في اللاذقية إلا طبيب البلدية المسؤول أيضاً عن المناطق الريفية المجاورة على مسافة يوم واحد سيراً على الأقدام. وليس لهذا الطبيب معاون ولايوجد تحت تصرفه مستشفى وكان محروماً من كل الوسائط الصحية. وإلى جانب طبيب البلدية وجد فقط طبيب واحد وقابلتان ليستا من خريجي المدارس.(١٨).

بالطبع كان الوضع في دمشق وحلب أفضل من المدن الصغيرة. فدمشق مثلاً وجد فيها قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى أربع مشافي وهي: مستشفى الغرباء (الوطني حالياً) الذي أسسه الوالي حسين ناظم باشا والمستشفى الافرنسي والانكليزي والايطالي والثلاثة الأخيرة هي مستشفيات أسستها إرساليات تلك البلدان. وفي عام ١٩٢٥ أقامت الإرسالية الدانماركية مستشفى متطوراً في النبك.

دخل الطب الحديث بمعناه الصحيح مصر أيام محمد علي باشا، الذي استقدم النطاسي (الطبيب) الفرنسي، الذي عُرف باسم كلوت بك (١٧٩٣ - ١٨٦٨) لتطبيب الجيش منعاً لتفشي الأمراض فيه. وقد أسس كلوت بك أول مدرسة طبية في المشرق العربي هي مدرسة القصر العيني. وقام الأمير بشير الشهابي بإسال بعثة من لبنان إلى هذه المدرسة من أفرادها ابراهيم النجار، الذي حاول، دون نجاح، بعد رجوعه إلى بيروت انشاء معهد للطب فيها(١٩).

عام ١٨٤٠ وصل إلى بيروت الدكتور كرنيلوس فان ديك مبعوثاً من مجمع المرسلين الامريكانيين للعمل كمبشر (مرسل) وطبيب في الديار السورية(٢٠). واثمرت بعثة فان ديك، فيما بعد، بتأسيس كلية للطب في بيروت خرّجت أول دفعة عام ١٨٧١. كما قام اليسوعيون بتأسيس كلية منافسة عام ١٨٧٤. ويلاحظ أن كثيراً من الإرساليات الدينية، التي وصلت إلى بلاد الشام، أرسلت إلى جانب المبشر الطبيب، الذي تمتع باحترام سكان المنطقة وكان عوناً للمبشر في تأدية مهمته وسنداً معنوياً للبعثة التبشيرية. ومن أمثلة ذلك البعثة الانجيلية الدانمركية في القلمون، التي حازت في دير عطية في النصف الأول من

القرن العشرين بفضل «الحكيم فكسمول» على سمعة جيدة وعقدت علاقات طيبة مع أهالي القرية من مسلمين ومسيحيين. ثم قامت هده البعثة، ببناء، وتجهيز مشفى في بلدة النبك عام ١٩٢٥ أطبقت شهرته الآفاق.

نتيجة تخرج أعداد من الأطباء في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بدأت تتكون شريحة من الأطباء شكلت احدى دعائم المثقفين السوريين في النصف الأول من القرن العشرين. وقد حاز قسم من هؤلاء على سمعة جيدة ونالوا احترام الجمهور ودخل بعضهم معترك العمل السياسي وكانت لهم جولات في الميدان الثقافي وشاركوا في الحركة القومية والوطنية العربية. وقد لعبت الجامعات التي خرجت الأطباء، بالاضافة إلى المناخ الذي نشأوا فيه، دوراً في تكوين ايديولوجيتهم وتحديد مواقفهم الفكرية والسياسية. ولابد لفهم دور الأطباء في الحياة السياسية وبخاصة موقعهم داخل الحركة الوطنية مس معرفة الجامعات، التي خرّجت هذه الشريحة الاجتماعية المتميزة. ولهذا لابد من استعراض المعاهد الطبية التي خرجت الأطباء السوريين لالقاء ضوء على دورهم في الحياة العامة والسياسية.

تخرج الأطباء السوريون من المعاهد الطبية التالية:

١ - الجامعة الأميركية

وهي الكلية السورية الانجيلية سابقاً المؤسسة في بيروت عام ١٨٦٦ والتي خرجت أول دفعة من الأطباء عام ١٨٧١. ويلاحظ أن الجامعة الاميركية خرّجت عدداً من أبناء الميسورين من المدن السورية ومعظمهم من المسلمين. وقد حمل عدد من خريجي الجامعة الاميركية عقلية ليبرالية متفتحة وفكراً نهضوياً وروحاً وطنية مناهضة للاستعمار الفرنسي. وبعد الاستقلال تضاءل عدد الأطباء السوريين المتخرجين من الجامعة الاميركية.

٢ - الجامعة اليسوعية

جامعة القديس يوسف المؤسسة في بيروت عام ١٨٧٤ كمؤسسة منافسة للكلية السورية الانجيلية. وكان معظم خريجيها من السوريين من المسيحيين، الذين لم يعرف عن أكثرهم المشاركة في الكفاح الوطني أيام الانتداب وتقوقعوا في

مهنتهم في عهـد الاستقـلال. وبعـد الاستقـلال تضاءل أيضاً عدد الأطباء السوريين المتخرجين من الجامعة اليسوعية.

٣ ـ **المعاهد الطبية العسكرية والملكية في الآستانة (استنبول)**

افتتحت المـدرسـة الطبيـة في استنبـول سنـة ١٨٢٧. وكـان أسـاتذتها كلهـم أجانب وتدرس باللغة الفرنسية. ولم يبدأ التدريس باللغة التركية إلا في عام ١٨٧٣. ولم تكن ثمـة رغبـة ـ كمـا ذكـرت المقتبس[٢١] ـ للمسلمين في تعلم هذه الصنـاعـة (المهنـة) فشق على الأسـاتـذة، الـذين أخذوا بتدريس الطب بالتركية بادىء ذي بدء هذا الأمر. ومع الزمن تمكن الأساتذة من ايجاد مفردات للمصطلحات الطبية بالعربية أو بالفـارسيـة أو التـركيـة وإذا صعب عليهم التعبير عنها بلفظ عربي أو تركي أو فارسي يأتون باللفظ اللاتيني أو الفرنسي دون أن يعمدوا إلى أخذ شيء عن الانكليزية والألمانية.

وكـان لرسـوخ التقـاليـد القديمة في المعالجة الطبية وسيطرة الدجالين وانتشار العـلاج بالأدعيـة والتمائم للاستشفاء دور في تعثر تقدم المدرسة الطبية في استنبول، ومن ثم المـدرسـة الطبيـة المؤسسة في دمشق عام ١٩٠٦. وكان منع تشريح الجثث أحد العوامل، التي عرقلت تطور علوم الطب في الدولة العثمانية، علماً أن السلطان محمود الثاني استصدر فتوى من شيخ الاسلام للترخيص بالتشريح فافتاه بذلك[٢٢].

مع حلول القـرن العشـرين بدأ بعض الشبـاب العـرب يطرقون أبواب معهدي الطب المـدني (الملكي) والعسكـري في استنبـول. وتنوع خريجو هذين المعهدين فمنهم من حمـل الأفكـار «العثمليـة» وتحجـر في تفكيره ومواقفه ومنهم من شارك في الحيـاة الـوطنيـة والسياسية وأسهم في مقاومة الاستعمار الفرنسي. وبعد انهيار الدولة العثمانية عام ١٩١٨ انتهى دور هذه المعاهد في تخريج الأطباء السوريين.

٤ ـ **المعاهد المصرية** خرجت أعداداً محدودة جداً من الأطباء، الذين لم يلعبوا أي دور يذكر في الحياة السياسية.

٥ ـ **المعاهد الطبية الأوروبية الغربية**

احتلت فرنسـا الـدرجـة الأولى ثم تلتهـا ألمانيا وبريطانيا. والواقع أن الطلاب السوريين، الذين درسوا في المعاهد والكليات الطبية الأوروبية لم يكن عددهم كبيراً

ولم يلحظ لهم دور في الحياة السياسية بعكس خريجي معاهد الحقوق الفرنسية، الذين اشتهروا بنشاطهم وكانوا عمالقة السياسة في منتصف القرن العشرين. والمعاهد الأوروبية أسهمت أيضاً في تأهيل «تخصص» الأطباء المتخرجين من دمشق. ونادراً ما انخرط العائدون منهم في الحياة السياسية بل انصرفوا في معظمهم إلى مهنتهم ورفاههم بعيداً عن هموم المجتمع ومشكلاته.

٦ - **المعاهد الطبية الأوروبية الشرقية**

مع تعمق العلاقات في الستينات بين سورية والدول الاشتراكية أخذت جموع الطلاب تتجه في الستينات والسبعينات شطر الجامعات الأوروبية الشرقية، التي خرّجت أعداداً كبيرة من مختلف الاختصاصات ومنها الطب، الذي تراكض معظم الطلاب إلى كلياته. والقسم الأكبر من هؤلاء تابع اختصاصه بعد تخرجه وقبل عودته إلى الوطن. ومع أن قسماً من هؤلاء الطلاب درسوا مجاناً بمنح مقدمة إلى الأحزاب اليسارية السورية والمنظمات الفلسطينية، إلا أن أكثرية هؤلاء الأطباء لدى عودتهم إلى البلاد لم ينخرطوا في الحياة السياسية ولم يتابعوا نشاطهم الحزبي إلا من باب رفع العتب، علماً أنهم اوفدوا كمسيسين أو أقرباء لسياسيين أو تظاهروا بولاءات حزبية حتى يتمكنوا من الدراسة مجاناً في «الدول الاشتراكية». ومعروف أن أكثرهم لم يكن مبرزاً في دراسته الثانوية. وظهرت بسبب هذا الايفاد للدراسة المجانية انتهازية أفسدت كثيراً من الشباب..

ويعود سبب هذا التراجع عن المواقف السياسية السابقة إلى أسباب كثيرة أهمها: خيبة الأمل، التي أصيبوا بها بعد معايشتهم لأوضاع مغايرة لتصوراتهم السابقة عن الاشتراكية ومجتمعها. وكان تبديل العملة عند بعضهم ومن ثم الاتجار في السوق السوداء لدى الآخرين، أحد عوامل اهتزاز القناعات، التي حملوها أو تخيلوها. كما أن الأوضاع السائدة في بلادهم ومارافقها من تراجع للحركتين الثورية والوطنية، أثَّرَ في الاتجاه نحو السلبيات، وأخيراً لا آخراً جنوح قسم كبير منهم نحو البحث عن الحياة الهانئة والثروة الطائلة. ولهذا فإن أكثرية الأطباء العائدين من «الدول الاشتراكية» لم يلمعوا - إلا فيما ندر - في الميدان السياسي أو الثقافي واقتصر نشاط بعضهم على العمل الحزبي الروتيني، الذي كان في تراجع مستمر ولم يكن له

مردود اجتماعي ذو شأن يذكر. وعلى الرغم من ذلك فإن قليلاً منهم بقي محافظاً على مثله وأفكاره الاشتراكية نذكر منه الدكتور سلطان أبا زيد المولود في درعا ١٩٣٦ وخريج جامعة كارل ماركس في لايبزغ عام ١٩٦٦ وعضو المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي المنعقد عام ١٩٦٩.

المدرسة الطبية (العثمانية) بدمشق

يُرجِع الدكتور مرشد خاطر تأسيس هذه المدرسة إلى عام ١٩٠٣[٢٣]، في حين يذكر الدكتور حسني سبح أن تاريخ التأسيس يعود إلى عام ١٩٠١[٢٤]. ولعل تاريخ التأسيس وصدور الفرمان السلطاني تم عام ١٩٠١، ولكن البدء الحقيقي للدراسة جرى بعد عام أو أكثر. ولم يتجاوز عدد طلاب المدرسة الطبية في سنيها الأولى الأربعين طالباً. ويتفاوت رقم الخريجين في هده المدرسة، التي عاشت حتى انهيار الدولة العثمانية (١٩١٨)، من باحث لآخر. فالدكتور مرشد خاطر يقدر عدد الخريجين بين عامي ١٩٠٣ و١٩٢٤ ١٦٠ طبيباً وخمسين صيدلياً تفرقوا في البلاد السورية والفلسطينية والعراقية والحجاز وكليكيا «ونالوا» ـ حسب تعبير مرشد خاطر ـ «مقامات رفيعة في هذه البلدان علماً وطباً وأدباً»[٢٥]. أما الدكتور حسني سبح، الذي أعتمد على الأستاذ علي رضا أطاصوى صاحب كتاب «مدرسة دمشق الطبية» الصادر في استنبول عام ١٩٤٥، فيعطي رقماً أعلى لعدد الخريجين بين عامي١٩٠٣ و١٩١٨ وهو ٢٤٠ طبيباً و٢٨٩ صيدلياً جلهم من الشاميين وقلة منهم من الترك والأرمن[٢٦].

كانت لغة التدريس في البدء في المدرسة الطبية اللغة التركية، ثم أُبدلت بعد انقلاب ١٩٠٨ باللغة العربية، وعُيّن في المدرسة أساتذة عرب يلقون الدروس بلغة عربية،شبه فصيحة أحياناً وركيكة في معظم الأحيان.

بعد نشوب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) دعي إلى التجنيد أساتذة المدرسة ومن هم في سن الخدمة العسكرية وأغلقت المدرسة أبوابها في الربع الأخير من عام ١٩١٤. وبعد عام تبين أن الحاجة ماسة إلى تخريج أطباء فألحقت مدرسة الطب بالفيلق الرابع من الجيش العثماني ونقلت إلى بيروت لتستفيد من البناء الفخم للمعهد الطبي الفرنسي، الذي أغلق أبوابه في مطلع الحرب، ومن المستشفى

الفرنسي في بيروت. وانتهى أمر هذه المدرسة بعد انسحاب الأتراك من بلاد الشام في خريف ١٩١٨. وعند اغلاق المدرسة الطبية كان فيها ماينوف على مائة من الطلاب العرب، من بينهم ٨٠ طالباً قارب تخرجهم حين الإغلاق[٢٧].

٨ ـ **المعهد الطبي العربي بدمشق (المعهد الفيصلي)**

وهو وريث المدرسة الطبية[٢٨] احتفل بافتتاحه في ٢٣ كانون الثاني ١٩١٩ في عهد أول حكومة وطنية عربية قامت في بلاد الشام بقيادة الأمير (الملك) فيصل بن الحسين. وقد اهتمت الحكومة الوطنية العربية (تشرين الأول ١٩١٨ ـ تموز ١٩٢٠) بهذا المعهد وسهلت له طريق الحياة. تولى التدريس في هذا المعهد فريق من الأطباء والصيادلة العرب من خريجي مدرسة الطب العثمانية في اسطنبول مثل ميشيل شامندي الدمشقي أومن المساعدين العرب للأساتذة الأتراك في المدرسة الطبية[٢٩]. وانضم إليهم طبيبيان احدهما الدكتور مرشد خاطر من خريجي معهد الطب الفرنسي في بيروت وسيرد دوره، والآخر الدكتور عبد الرحمن شهبندر من خريجي الكلية الاميركية في بيروت، الذي اضطر بعد الاحتلال الفرنسي لدمشق في تموز ١٩٢٠ لمغادرة البلاد بسبب حكم الاعدام الصادر بحقه نظراً لمواقفه الوطنية.

لم يكن الاساتذة في المعهد الطبي على مستوى واحد في معرفة اللغة العربية، بسبب طغيان اللغة التركية على لسانهم. ولكن بعضهم كان متقناً للعربية ومساهماً في عملية التعريب مثل الأطباء جميل الخاني وأحمد حمدي الخياط ومرشد خاطر والصيدلي الكيماوي عبد الوهاب القنواتي، ومع الزمن تمكن الآخرون من تلافي مافاتهم وأخذوا يلقون دروسهم بالفصحى[٣٠].

كان من أهم منجزات العهد الوطني العربي (١٩١٨ ـ ١٩٢٠) احلال اللغة العربية في مؤسسات الدولة التعليمية المختلفة. ولهذا فإن كلية الطب في الجامعة السورية كانت السبّاقة بين الدول العربية في التدريس بالعربية. ولابد هنا من الإشارة إلى أول مجلة طبية صدرت باللغة العربية في هذا العهد. فقد أصدرت رئاسة ادارة الصحة بدمشق أول مجلة طبية اسبوعية أطلقت عليها اسم «الصحة العمومية». قام برئاسة تحريرها الطبيب محمد سعيد السيوطي الذي نشر فيها عدة مقالات طبية تثقيفية. وتناول الطبيب حكمة المرادي سلسلة من المواضيع تحت عنوان «اللغة

العـربيـة والطب». وبعـد فتـرة وجيـزة استلم رئاسة التحرير الدكتور مرشد خاطر[٣١]. ولكن المجلة توقفت عن الصدور على أثر الاحتلال الاستعماري الفرنسي في تموز ١٩٢٠.

٩ - **المعهد الطبي العربي بدمشق، في عهد الانتداب الفرنسي**

استمـر هذا المعهـد بعد الاحتلال الاستعماري الفرنسي صرحاً علمياً بارزاً، واستمـر في التـدريس باللغة العربية، ولكنه خضع في بادىء الأمر لتغيرات عدة على نحو مايلي[٣٢]:

- أُخضـع خريجـو المعهد إلى امتحان إجمالي (كولكيوم) تقوم به لجنة طبية عسكرية فرنسيـة لاختبـار الكفـايـة العلميـة للأطبـاء والصيادلة يُمنح الناجحون فيه حق مزاولة المهنة في سورية ولبنان. ولايحق لحامل شهادة المعهد الطبي وحدها مزاولة المهنة في منطقة الانتداب الفرنسي.
- فرض اتبـاع النظـام الفرسي في برنامج المعهد، وادخل تدريس اللغة الفرنسية بين الدروس الطبية التي تلقى على الطلاب.
- ضُم إلى هيئة التدريس ثلاثة من الأساتيذ الفرنسيين كانوا يلقون دروسهم السريرية بالفـرنسيـة ويقـوم أحـد المسـاعـدين بترجمتها إلى العربية. ثم استغني عن الترجمة عندما تقدمت معرفة الطلاب بالفرنسية وصاروا قادرين على فهم ما يُلقى عليهم.

وفي عام **١٩٢٣** أُحـدثت ادارة الجـامعـة السورية (جامعة دمشق اليوم) لتضم معهدي الطب والحقوق.

إن العقبة الكؤود التي قامت في وجه المعهد الطبي إنما هي فقدان المؤلفات الطبية العربية التي تناسب الطب الحديث، لأن البون الشاسع الذي وجد بين الطب القـديم الـذي وضعـه العـرب والطب الحديث وماوصل إليه من الرقي والكمال جعل الكتب الموضوعة باللغة العربية عديمة الفائدة من الوجهة الفنية.[٣٣].

ولهـذا أخـذ المعهـد الطبي العـربي على عاتقـه إصـدار مجلة المعهد الطبي العربي ابتداء من كانون الثاني **١٩٢٤**، وكان لها غايات ثلاث حددها رئيس الجامعة السورية والمعهد الطبي العربي الدكتور رضا سعيد بما يلي[٣٤]:

١ ـ خدمة اللغة العربية ونحت كلمات سهلة المأخذ قريبة الفهم جامعة بين السلاسة والمعنى المراد.

٢ ـ خدمة الطب والأطباء، الذين لايحسنون اللغة الأجنبية.

٣ ـ خدمة الشعب، لأن المجلة لم ولن تقتصر في أبحاثها على الطب والصيدلة فحسب، ولكنها تتناول أيضاً الموضوعات الصحية التي يسهل فهمها وتعم فائدتها.

كان أساتذة المعهد الطبي العربي (الدمشقي) يعنون عناية خاصة بجعل اللغة العربية لغة علمية مرنة وسد الفراغ الذي أحدثه في اللغة ذلك النوم الطويل الذي أصاب العرب[٣٥]. وقد ازدانت خزانة الطب العربي بمؤلفات أساتذة المعهد نشرتها عام **١٩٣٠** مجلة المعهد الطبي العربي. وهذه المجلة تعهدت أن «تكون أداة الوصل بين أطباء البلاد العربية كافة ورغبت أن تكون منذ عام **١٩٢٨** مستودع أبحاثهم واختباراتهم وتجاربهم. ولكن المجلة بقلم منشئها الدكتور مرشد خاطر أبدت أسفها لأن صوتها الذي تنادي به أطباء العرب وصيادلته وعلماءه لم يجد ملبياً. وجددت المجلة الدعوة إلى «العلماء الأعلام والنطس المهرة» «إلى مساعدة هذه الصحيفة التي كرست حياتها لخدمة الطب العربي وإبلاغه للمستوى الرفيع الذي وصل إليه في البلاد الغربية»[٣٦].

لم تيأس مجلة المعهد الطبي العربي من السعي إلى غايتها في صوغ المصطلحات الجديدة بلغة عربية خالية من التعقيد والعجمة»، ورأت أنها «تضع أساساً للمستقبل الذي سيشيد عليه أبناء الضاد أبنية نهضتهم العلمية المقبلة»[٣٧].

بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها باستسلام المانيا في أيار **١٩٤٥** نشرت مجلة المعهد الطبي العربي افتتاحية عبّرت فيها عن سرورها «بانفراج الأزمة العالمية ورفرفة السلام بجناحيه على هذه البسيطة... وأملنا أن تحل الطمأنينة محل القلق والاضطراب فيعود الفكر البشري إلى انتاجه... ويتآخى البشر بعد هذه المجزرة التي لم تبق ولم تذر»[٣٨].

إن المعهد الطبي العربي ومجلته حققا رغم المصاعب جزءاً من أهدافهما الطبية والعامة مع انتهاء مرحلة الانتداب الفرنسي وبزوغ عهد الاستقلال. فالمجلة، التي كرست

حياتها (١٩٢٤ - ١٩٤٧)(*) لخدمة الطب العربي[٣٩]، وإبلاغه للمستوى الرفيع الذي وصل إليه في البلاد الغربية. فقد تخرج من معهد الطب، وكذلك الحقوق، بين عامي ١٩٢٠، و١٩٤٦ الأعداد التالية[٤٠]:

تخرج من المعهد حتى نهاية العهد العثماني (١٩١٨) ١١٠ أطباء و١٥٢ صيدلياً. وتخرج من عام تأسيس المعهد إلى صيف ١٩٤٦ ثلاثمائة وسبعة وستون طبيباً منهم مائتان واثنان وثمانون سورياً وخمسة وثمانون غير سوريين معظمهم من الاردن وفلسطين. وخرّج معهد الصيدلة مائة وستة وعشرين صيدلياً منهم تسعة وثمانون سورياً. وبلغ خريجو مدرسة طب الأسنان مائة واثنين وعشرين منهم ستة وسبعون سورياً وستة وأربعون غير سوريين.

أما مجموع عدد الأطباء العاملين في الجمهورية السورية عام ١٩٤٦ فبلغ ٦١٣ طبيباً موزعين على المحافظات كما يلي[٤١]:

---

* - بعد أكثر من عقدٍ من توقف «مجلة المعهد الطبي العربي» تأسست «المجلة الطبية العربية» كامتداد تاريخي لمجلة المعهد. فبناء على اقتراح الدكتور بشير العظمة المنتخب رئيساً لنقابة أطباء دمشق صدرت في آذار ١٩٦١ «المجلة الطبية العربية» عن «الرابطة النقابية لأطباء الإقليم السوري». وهيئة تحرير هذه المجلة تألفت من اثني عشر طبيباً منهم ثلاثة ممن تناولتهم هذه الدراسة وابدعوا نتاجاً، خارج نطاق الطب وهم: الدكتور بشير العظمة، المدير المسؤول ود. نبيل الطويل ود. وجيه البارودي أمناء تحرير مراسلين. وقد أراد المؤسسون للمجلة أن تحقق الأغراض التالية:

مساعدة الممارس العام حيث يجد فيها باقة من المقالات المترجمة من أمهات المجلات الطبية الأجنبية.

- اطلاع الطبيب المختص على ماستجد من وسائل حديثة في التشخيص والعلاج، واتاحة الفرصة أمامه لنشر أبحاثه.

- نشر المواضيع الطبية الاجتماعية.

- إثبات صلاحية اللغة العربية للتعليم الطبي وللأبحاث الطبية المتلفة، والسعي لنشر اللغة الطبية العربية الواحدة في سائر الجامعات العربية الأخرى.

عن: للحقيقة والتاريخ بقلم د. أسعد اسطواني آذار ١٩٨٦ المجلة الطبية.

المحافظة	أطباء محليون	أطباء رسميون
دمشق	٢٨٥	٢٨
حلب	١٢١	٣٢
حمص	٠١٤	٠٩
حماة	٠١١	٠٨
اللاذقية	٠٣٧	٢٠
الفرات	٠٠٥	١٢
الجزيرة	٠٠٥	١١
حوران	٠٠٠	١٠
جبل الدروز	٠٠٠	٠٥
المجموع	٤٧٨	١٣٥

وبلغ عدد أطباء الأسنان عام ١٩٤٦ (٣٣١) طبيباً منهم في دمشق ١٢٨ طبيباً وفي حلب ٥٧ طبيباً. ولم يتجاوز عدد الصيادلة في ذلك العام ١٣٥ صيدلياً[٤٢].

١٠ ـ كلية الطب في الجامعة السورية

تأسست الجامعة السورية بموجب القرار رقم ١٣٢ في ١٥ حزيران ١٩٢٣ القاضي بتأسيس الجامعة من معهدي الطب والحقوق وأضيف إلى معهد الطب مدرسة لطب الأسنان، التي خرّجت عام ١٩٢٥ أربعة أطباء كأول دفعة، ومدرسة القبالة والتمريض. وفي عام ١٩٤٦ تأسست كلية للآداب وأخرى للعلوم ومعهد عال للمعلمين، كما افتتحت كلية للهندسة بمدينة حلب. وجميع هذه الكليات ارتبطت بالجامعة السورية المرتبطة آنذاك بوزارة المعارف.

فكلية الطب في الجامعة السورية هي استمرار لمعهد الطب العربي من مختلف الوجوه مع فارق أساسي وهو أن معهد الطب عاش معظم سنواته في مرحلة

الانتداب الفرنسي المتميزة بتغليب كفة النضال الوطني ، في حين عاشت كلية الطب في عهـد الاستقـلال حيث برزت إلى السطـح ، إلى جانب القضايا القومية والوطنية ، القضايا الاجتماعية ونشطت الأحزاب العقائدية مثل حزب البعث العربي الاشتراكي والاخـوان المسلمـون والحـزب الشيـوعي بين طلاب الجامعة السورية ومنهم طلاب كلية الطب . ولهذا فإن نسبة كبيرة من طلاب كلية الطب كانت مسيسة ومنضوية تحت لواء الأحزاب الثلاثة المذكورة . وفي فترة الخمسينات بلغ النشاط السياسي للأحزاب الثـلاثـة القمـة . كمـا أن المشاعر القومية والوطنية المتأججة طبعت النشاط الطلابي بطابعها . هذا الوضع دفع بعض الكتاب إلى تسمية الجامعة بمصنع لتخريج حزبيين مسيسين وبخاصة في صفوف حزب البعث العربي الاشتراكي . ولم يكن مصادفة أن مجموعة من الأطباء احتلت في قيادة حزب البعث مكاناً مرموقاً[٤٤] .

لقد لعبت كلية الطب في الجامعة السورية ، ومن قبلها المعهد الطبي العربي ، ومعهمـا معهـد الحقوق دوراً بارزاً في تخريج قسم من قادة الفكر السياسي والوطني ، الـذين تبؤوا مراكـز اجتمـاعيـة واقتصـاديـة وسيـاسية هامة في كل من سورية والأردن وفلسطين ولبنان .

١١ ـ كليات الطب في جامعات دمشق وحلب وتشرين (اللاذقية)

إن سيـاسـة الاستيعـاب وفتح أبواب الجامعات على مصراعيها في السبعينات رفعت من عدد طلاب الطب وبـالتـالي من خريجيهـا . وحمّلت كليـات الطب أعبـاء تفوق طاقتها التدريسية على استيعاب وتأهيل الطلبة تأهيلاً جيداً ، ويبدو ذلك واضحاً من الأرقام التالية إذ بلغ عدد طلاب كليات الطب في العام الدراسي ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤ مايلي[٤٥] :

١ ـ طلاب كليات الطب (العام)

	ذكور	اناث	المجموع
جامعة دمشق	٣٦٢٤	١٣٦٢	٤٩٨٦
جامعة حلب	٢٠٥١	٥٥٥	٢٦٠٦
جامعة تشرين	٨٤٨	٢٦٧	١١١٥
المجموع	٦٥٢٣	٢٢٨٤	٨٧٠٧

٢ ـ طلاب كليات طب الأسنان

	ذكور	اناث	المجموع
جامعة دمشق	٨١٧	٦٣٤	١٤٥١
جامعة حلب	٦٤٦	٢٦٤	٩١٠
جامعة تشرين	١٤٥	٦٨	٢١٣
جامعة البعث(حمص)	٢١٤	١٤٩	٤٤٣
المجموع	١٨٢٢	١١١٥	٣٠١٧

وقد بلغ مجموع خريجي كليات الطب (العام) في سنة ١٩٨٤ [٩٤٨] خريجاً. فإذا أضفنا إلى هذا الرقم الأطباء الخريجين من الجامعات الأوروبية الشرقية وغيرها فإن الأرقام تغدو مذهلة. ويتبين ذلك من المجموعة الاحصائية لعام ١٩٩٢، التي تقدم الأرقام التالية[٤٦]:

السنوات	أطبـــاء الصحة		أطبـــاء الأسنان		الصـــيادلة	
	عدد الأطباء	متوسط عدد السكان لكل طبيب	عدد الأطباء	متوسط عدد السكان لكل طبيب	عدد الصيادلة	متوسط عدد السكان لكل صيدلي
١٩٨٦	٦٩٩٣	١٥١٨	٢٢٢٥	٤٧٦٩	٢٧٨٦	٣٨٠٩
١٩٨٩	٩٨١٤	١١٩٤	٣٣٦٢	٣٤٨٦	٣٦٣٤	٣٢٢٥
١٩٩١	١١٨٠٨	١٠٦١	٤٤٩٥	٢٧٨٧	٤٠٤١	٣١٠٠

هذه الأعـداد الضخمـة من الأطبـاء أدت عمـومـاً إلى تراجـع نظـرة الاحترام السابقة للأطبـاء، عنـدمـا كان عددهم قليلاً. وهذه النظرة العادية للأطباء وبخاصة غير المختصين منهم يدفع إلى تكوين نفسية معقدة لدى هؤلاء، والوضع يسير باتجاه تكوّن فئة ممن يمكن تسميتهم «فقراء الأطباء». ويتبين ذلك بوضوح عندما أعلنت وزارة الصحة عن حاجتها إلى ثلاثة أطباء براتب لايثمن ولايغنى من جوع وهو ٣٠٠٠ ليرة سورية فتقدم ٣٠٠٠ طبيباً[٤٧]. و«فقـراء الأطبـاء» هؤلاء يصطـدمـون بواقع مرير عندما يبحثون عن مكان للعمل أومايعرف «فتـح عيـادة». فعلى الطبيب أن يدفـع مئـات الآلاف من الليـرات ثمن عيادة، أوفروغ في المـدن الصغيـرة والبلدات ومـلايين الليـرات في المـدن الكبيرة عدا نفقات تجهيز العيادة. وهـذا مايـزيد من تعقيدات «الأطباء الفقراء» وسيكون لهذه الظاهرة آثارها المستقبلية عليهم وربما على مهنة الطب.

حواشي الفصل الأول

١ ـ زيدان نعمة: «عالمنا العربي»، دمشق ١٩٥٦، ص.

٢ ـ المصدر نفسه ص ٢٨٤.

٣ ـ الراقي من يصنع الرُقية وهي أن يستعان للحصول على أمر ما بقوى خارقة تفوق الطبيعة في زعمهم.

٤ ـ المعزّم هو الراقي.

٥ ـ نعمة .... ص ٢٨٥.

٦ ـ ورد في المنجد الأبجدي: النّطس ـ العالم المتأنق في كلامه وملبسه وغير ذلك. والنُّطُس ـ الأطباء الحذاق والنطاسي العالم، الطبيب الحاذق.

٧ ـ البيمارستان كلمة فارسية مؤلفة من «بيمار» مريض و«ستان» محل أي محل المرضى. وعُرّب في عصر النهضة بالمستشفى واليوم بالمشفى. وفي التركية «خستته خانه». وهذا الاسم بقيت العامة في سورية تستخدمه حتى الأربعينات.

٨ ـ راجع: آل الجندي أدهم: «أعلام الأدب والفن» ج١، دمشق ١٩٥٤، ص ٢١١. ومجلة المعهد الطبي العربي، المجلد ١ الجزء ١، دمشق ١٩٢٤، ص ٧.

٩ ـ معجم الأطباء (ذيل عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي حبيقه) تأليف د. أحمد عيسى. بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٢.

١٠ ـ العلاف أحمد حلمي: «دمشق في مطلع القرن العشرين»، أعده علي جميل نعيسة. منشورات وزارة الثقافة دمشق ١٩٧٦، ص ١٣٨.

١١ ـ المصدر نفسه.

١٢ ـ وثائق تاريخية عن حلب (٤)، نشرها الأب فردينان اليسوعي، بيروت ١٩٦٤، ص ٦٢.

١٣ - قسطون وديع عبد الله : «الافرنج في حلب في القرن الثامن عشر» حلب ١٩٦٨، ص ٢٣ .

١٤ - الغزي كامل: «نهر الذهب في تاريخ حلب» حلب بلا تاريخ، الجزء ١، ص ١٧٦ .

١٥ - القاسمي جمال الدين، خليل العظم: «قاموس الصناعات الشامية»، ج ٢، ص ٢٨٩ .

١٦ - المصدر نفسه، ص ٢٨٩ .

١٧ - الغزي. . . ص ١٧٦ .

١٨ - رفيق بك محمد، بهجت بك محمد: «ولاية بيروت»، الجزء ٢، ص١٣٣٦، ولاية بيروت ج ٢ ص ٧٥ .

١٩ - زيدان نعمة. . . ص ٢٩٠ وزيدان جرجي: «تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر» بيروت بلا تاريخ ج ٢ ص ٧ ـ ٩ .

٢٠ - المصدر نفسه، ص ٥٢ .

٢١ - المقتبس ج ١١، م ٢ ذي القعدة ١٣٢٥ ـ ك١ ١٩٠٧، ص ٦١١ .

٢٢ - المصدر نفسه .

٢٣ - انظر: مقالة خاطر حول نشأة معهد الطب ولمحة عن معاهد الطب بدمشق، في: «مجلة المعهد الطبي العربي» بدمشق، ج ١ م ١ كانون الثاني ١٩٢٤، ص ٧ .

٢٤ - انظر مقالة الاستاذ الدكتور حسني سبح بعنوان «تصدير وذكريات» في: المجلة الطبية العربية العدد ٩٠، آذار ١٩٨٦ . والدكتور سبح التحق بالمدرسة الطبية سنة ١٩١٣ وتخرج من المعهد الطبي العربي في صيف ١٩١٩ مع أول فوج من خريجي هذا المعهد وعددهم ٤٨ منحوا (إجازة في الطب) ولقب عليم «دوكتور» في الطب .

٢٥ - خاطر مرشد «مجلة المعهد الطبي العربي»، ج ١ م ١ كانون الثاني ١٩٢٤، ص ٧ .

٢٦ - سبح حسني: «تصدير وذكريات»، في المجلة الطبية العربية العدد ٩٠، آذار ١٩٨٦، ص ٨ .

٢٧ - المصدر نفسه، ص ٩ .

٢٨ - يرجع الدكتور مرشد خاطر - في نوع من التباهي بالماضي - تاريخ المعهد الطبي العربي إلى نور الدين الشهيد، الذي فتح في دمشق بيمارستاناً لتدريس الطب عام ٥٥٠ هـ واستمر على قيد الحياة حتى عام ١٣٠١ هـ .

٢٩ - سبح. . . ص ٩ .

٣٠ - المصدر نفسه .

٣١ ـ الاسطواني اسعد: «للحقيقة والتاريخ» في المجلة الطبية العربية، آذار ١٩٨٦، ص ٢٧.
٣٢ ـ سبح. . . . ص ١٢.
٣٣ ـ خاطر. . . . ص ٩.
٣٤ ـ سعيد رضا في: مجلة المعهد الطبي العربي، المقال الافتتاحي بعنوان: «غاية المجلة»، ج ١، م ١ كانون الثاني ١٩٢٤، ص ٣.
٣٥ ـ فاتحة السنة الخامسة من المجلة كانون الثاني ١٩٢٨.
٣٦ ـ فاتحة السنة السابعة من المجلة كانون الثاني ١٩٣٠.
٣٧ ـ فاتحة السنة الثامنة من المجلة كانون الثاني ١٩٣١.
٣٨ ـ مجلة المعهد الطبي العربي بدمشق، المجلد العشرون، أيار حزيران ١٩٤٥، ص ٣.
٣٩ ـ مجلة المعهد. . . السنة الخامسة كانون ١٩٢٨، ص ٤.
٤٠ ـ مجلة «معهد الطب العربي بدمشق» كانون الثاني ـ شباط ١٩٤٦، ص ١٠٢. أما عدد خريجي معهد الحقوق العربي فبلغ ١٠٦٦ محامياً منهم ٧٤٣ سورياً.
٤١ ـ دليل الجمهورية السورية. دمشق بلا تاريخ. ص ٥٩٨.
٤٢ ـ المصدر نفسه، ص ٦٠٠.
٤٣ ـ نبذة عن تارخ الجامعة السورية ـ كراس بدون تاريخ للطبع.
٤٤ ـ د. نور الدين الأتاسي، د. يوسف زعين، د. ابراهيم ماخوس، د. حبيب حداد.
٤٥ ـ المجموعة الاحصائية لعام ١٩٨٥، ص ٣٧٦.
٤٦ ـ المجموعة الاحصائية لعام ١٩٩٢، ص ٣٥٢.
٤٧ ـ هذا ماسمعته من عدد من الأطباء. .

الفصل الثاني

الأطباء والقضايا القومية في فجر النهضة
(قبل ١٩١٤)

بدأت النهضة العربية تدق أبواب المجتمعات العربية في القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين تحت ضغط التأثيرات الخارجية (الرأسمالية والاستعمارية) وبفعل العوامل الاقتصادية ـ الاجتماعية، كما كان للتأثيرات التراثية (العربية ـ الاسلامية) دور هام في إضفاء لون خاص على هذه النهضة.

ويمكن القول أن «الطبقة الوسطى» هي التي رفعت علم النهضة وتبنت الفكر القومي، ونادت بالتجديد الديني. وقبل أن تتبلور أفكار «الطبقة الوسطى» قامت دولة محمد علي باشا في النصف الأول من القرن التاسع عشر برفع لواء النهضة في مصر. ومعنى ذلك أن حركة الاصلاح بدأت من «فوق» ثم امتدت إلى «تحت» إلى قاعدة المجتمع وبخاصة الفئات الوسطى المتعلمة من المجتمع. وشهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر حركة واضحة للنهضة تمثلت بالدعوة إلى العلمانية والعقلانية وحقوق المواطنة والاعتماد على العلم والسير في طريق التجديد على مختلف الأصعدة.

وبرز في قلب النهضة تياران رئيسيان: الأول تيار ليبرالي علماني أرسى أسسه رفاعة الطهطاوي (بعد ١٨٣١) وكان من أركانه الطبيب شبلي شميل. والثاني التيار الديني المستنير.

بعـد مصـر أخـذت بذور النهضـة تظهـر جليـة في لبنـان وبيروت متمثلة في عدد من المثقفين المتأثرين تأثراً واضحاً بالحضارة الغربية. وكان في مقدمة هؤلاء بطرس البستاني في صحيفته «نفيـر سوريـة» وفي «دائـرة معارف البستاني»، التي عكست مستوى المعارف العلمية الطبيعية في منتصف القرن التاسع عشر. كما أنشأ البستاني عام ١٨٧٠ في بيروت مجلة الجنـان، التي تَصَـدَّرَ عددهـا الأول مقدمة تحت عنوان: «حب الوطن من الإيمان». ويلاحظ من هذه المقدمة أن البستاني رمى من وراء تأسيس الجنان إلى هدفين رئيسيين[1]:

- نشر المعارف العمومية وتقوية أركانها بين الجمهور.
- إحياء اللغة العربية وتحسينها.

وبعـد الجنـان أنشأ في حزيـران ١٨٧٦ في بيـروت خريـج المدرسة الكلية السورية يعقوب صروف مجلة «المقتطف»، التي تضمنت مقالات علمية وفوائد صحية وأخبار علمية وصنـاعيـة. وكـان الاهتمـام بالمقـالات الطبيـة واضحاً في هذه المجلة، التي انتقلت عام ١٨٨٥ إلى القاهرة وتابعت مسيرتها النهضوية العلمية. وكان من كتابها الدكتور شبلي شميل والدكتور عبد الرحمن شهبندر[2]:

وبعد البستاني وصروف بدأت أفكار النهضة العربية وحركة التنوير الديني تدق أبواب دمشق وحلب، متأثـرة بحـركـة الاصـلاح التي قادهـا مدحت باشـا والتي كانت ثمـرة حركة التنظيمات في منتصف القرن التاسع عشر.

مايهمنـا هنـا هو القـاء الضـوء على الأطباء الذين أسهموا مع غيرهم في وضع أسس النهضة العربية بوجهيها الفكري والسياسي وبخاصة ابداعاتهم المكتوبة وهم:

١ ـ فرنسيس المرش (١٨٣٦ ـ ١٨٧٣)

وهـو من عائلة حلبيـة درس الطب في باريس وألف هنـاك كتـابه «غابة الحق»، الذي نُشر بعـد ممـاتـه في بيـروت عام ١٨٨١. استقى هذا الكتاب أفكاره من الوسط الأوروبي وتميـز بنـزعـة تقدمية تقف إلى جانب الفقير ضد الغني. ولكن هذه النزعة لاتظهر في كتاب المـراش الثـاني «مشهـد الأحـوال» المؤلف في حلب المطبـوع في بيروت ١٨٨٣. ويعود

سبب ذلك إلى تقيته وخوفه وهو في حلب من بطش الحكام وأعوانهم، فغلف أفكاره التقدمية الجريئة بالأفكار المألوفة مازجاً الشعر بالنثر ومعالجاً نظرية أصل الأنواع والاجناس مروراً بالمجتمع والسياسة والغزل[٣].

٢ - ميخائيل مشاقة (١٨٠٠ - ١٨٨٨)

آل مشاقة أسرة يونانية الأصل استوطنت في طرابلس الشام. ولد مخائيل في رشميا ونشأ في دير القمر وتعلم الطب فيها على يد أحد الأطباء الايطاليين. وبعد سفر هذا الطبيب الايطالي أخذ مخائيل يمارس مهنة الطب مجاناً. عام ١٨٣٣ انتقل إلى دمشق واشترى بيتاً فيها وتعهد أيام الحكم المصري تعمير قرية أيب في اللجاة والخربة المنصورة في الحولة، كما أصبح ملتزماً لجباية الأموال الأميرية. ولما اندلعت الاضطرابات ضد حكم ابراهيم باشا (المصري) سطا الثوار على قراه ونهبوها فخسر كل شيء مما دفعه للالتجاء إلى التطبيب. وفي هذه الأثناء تعرف على الطبيب الفرنسي الدكتور كلوت بك رئيس أطباء مصر ورافقه في بعض زياراته فاحبه كلوت بك واهداه جميع الكتب الطبية التي كانت قد ظهرت في مصر بالعربية مع أدوات للجراحة. ثم جعله كلوت بك رئيساً لأطباء دمشق فكثر احتكاك مشاقة باعيانها وبقناصل الدول فيها. ولكنه لم يجد في مهنة التطبيب دخلاً كافياً لمعيشته فاضطر أن يتعاطى التجارة والأعمال الاقتصادية مرة أخرى. وحول هذا الموضوع كتب رسالة عام ١٨٤٤ جاء فيها ان «صناعة الطب لاتكفي للمعيشة في هذه المدينة». ولهذا سافر مشاقة عام ١٨٤٥ إلى مصر وقدم امتحاناً في معلوماته الطبية أمام ثلاثة أطباء مصريين، الذين سلموه شهادة في التطبيب مذيلة بإمضاء الدكتور كلوت بك ناظر عموم الصحة. وعلى الأثر عاد إلى دمشق لممارسة «صناعة الطب». وفي هذه الأثناء ترك الكثكلة عام ١٨٤٨ واعتنق المذهب الانجيلي وعمره ثمان وأربعون عاماً وذلك بسبب صداقته مع المراسلين الاميركيين. وفي احداث ١٨٦٠ الدينية شكلاً والاجتماعية السياسية جوهراً اثخنه الرعاع بالجراح وتمكن من النجاة بمساعدة رجال الأمير عبد القادر الجزائري. وبعد ذلك بعشر سنوات أصابه فالج بجانبه الأيمن[٤]

بلغت تآليف مخائيل مشاقة أربعة عشر مؤلفاً بعضها طبع في حياته والآخر بعد مماته ولاتزال بقية مؤلفاته مخطوطة. واتسمت هذه المؤلفات بالدعوة إلى المذهب البروتستانتي والدفاع عنه ونقد الكاثوليكية. من هذه المؤلفات:

- «أجوبة الانجيليين على أباطيل التقليديين». بيروت ١٨٥٢.
- «الرسالة الموسومة بالدليل إلى طاعة الانجيل» بيروت ١٨٦٠. (يرجع أسد رستم تاريخ كتابتها إلى عام ١٨٤٨).
- تبرئة المتهوم بما قذفه به البطريك قليموس مظلوم بيروت ١٨٥٤.
- «كشف النقاب عن وجه المسيح الكذاب» بيروت ١٨٦٠.
- البراهين الانجيلية صد الأباطيل البابوية، بيروت ١٨٦٣.
- منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب. وقد تحرى نصوصها ووضع مقدمتها وفهارسها د. أسد رستم وصبحي أبو شقرا. منشورات المكتبة البوليسية الطبعة الثانية ١٩٨٥. وهذا الكتاب أنجزه مشاقة في دمشق عام ١٨٧٣ وانتقد فيه بلطف الكاثوليك والأرثوذكس واليهود والمسلمين.
- رد على ابن الحموية لأجل طعنه في المذهب الانجيلي.
- الرسالة الشهابية في الالحان الموسيقية العربية.

٣ - شبلي شميل (١٨٥٣ - ١٩١٧)

ولد في كفرشيما (لبنان) وحاز شهادة في الطب عام ١٨٧١ من الكلية البروتستانتية السورية في بيروت (الجامعة الاميركية فيما بعد). ثم سافر إلى باريس لمتابعة دراسته في الطب وهناك اطلع على نظرية التطور لداروين واعتقد بها. ومن باريس انتقل إلى القاهرة واستقر فيها ومارس مهنة الطب وكتب بإسهاب عن نظرية النشوء والتطور[٥] واشتبك في جدال علمي مع الأوساط المسيحية والمسلمة[٦].

لقد ألقى الدكتور شبلي شميل عصا التسيار في مصر موئل معظم الأحرار من بلاد الشام، الذين وجدوا في مصر آنذاك مناخاً فكرياً مناسباً لنشر أفكارهم دون أن ينالهم أذى أو يُلقى بهم في غياهب السجون.

وهكذا شرع الطبيب شبلي شميل ينشر في مجلة المقتطف عام ١٨٧٨ مجموعة «مباحث في الحياة لتأييد الرأي المادي فيه». ثم اتبعها بسلسلة مقالات في المجلة نفسها حول «مذهب داروين في أصل الأنواع وتحولها». وقام في عام ١٨٨٤ بطبع هذه المقالات

تحت اسم «شرح بخنر على مذهب دارون» وقد أحدث نشره يومئذ لغطاً عظيماً مع أنه لم يطبع منه إلا خمسمائة نسخة لم تنفذ إلا بعد خمس عشرة سنة. ذلك اللغط كان قليله من الخاصة المعدودة، التي نفته كله أوبعضه كل على قدر علمه أوحسب هواه. أما اللغط الأهم فكان من العامة، التي أكثرت من الجلبة محتجة على الكتاب الذي لم تقرأ، ولكنها سمعت أن فيه مساساً بأعز شيء لديها.

حول هذا الموضوع والضجة المثارة حول الكتاب بعد صدوره عام ١٨٨٤ كتب شميل عام ١٩١٠ مايلي: «على أن هذه الضجة التي حصلت حينئذ هي المقصودة مني في ذلك الحين لايقاظ الأفكار من نومها. والحركة مهما كانت خير من السكون. ومن منا نحن الشرقيين اليوم أولى بهزّة تصل فينا إلى أعماقنا وقد تقادم علينا السبات حتى بتنا في رتبة في صفّ الأحياء لا هي بالميتة فتدفن جثة هامدة ولا هي بالحيّة فتبعث بشراً سوياً».

رداً على الذين تعرضوا لنفي كتاب شميل قام شميل بتسطير وطبع كتاب جديد عام ١٨٨٥ بعنوان: «الحقيقة» وهو يتضمن ردوداً لإثبات مذهب داروين في النشوء والإرتقاء.

واستمر شميل في نشر مقالاته في مجلات مختلفة وبخاصة المقتطف ثم قام عام ١٩١٠ بطبعها في كتاب ضخم تحت عنوان «فلسفة النشوء والارتقاء» اشتمل على مقالات في مذهب دارون في أصل الأنواع وتحولها، معتمداً على مقولة أن «الاصابة ليست دائماً في جانب الاجماع فالكثرة ليست حجّة قاطعة».

رداً على مانشرته جريدة الاخبار من هجوم على آراء شميل ووصفها بأنها غريبة، أصدر شميل في عام ١٩١٢ كتاباً جديداً في القاهرة تحت عنوان: «آراء الدكتور شبلي شميل»، أشار شميل في مقدمة كتابه أن غرابة آرائه الدينية نابعة من كونها «مخالفة للآراء الغالبة بين الناس في أصل الانسان وحقيقته في هذا الوجود». ولكن آراءه «ليست غريبة عن العلم اليوم» و«الحقيقة أن تُقال لا أن تُعلم».

عالج شميل في كتابه «آراء...» المواضيع التالية: مقام الكائنات في الطبيعة، تأثير العلم الطبيعي في الأديان، غرابة آرائي الاجتماعية، تأثير العلم الطبيعي في العمران، الجنايات والاجتماع، العلم والتعليم، نظرة في أحوالنا. مايهمنا هنا هو الموضوع الأخير «نظرة في أحوالنا»، الذي يتضمن المواضيع التالية: الشرق الأقصى والأدنى في نصف قرن، ثورة اليابان السلمية، ثورة الصين، ثورتنا العثمانية، الفرق بين ماضينا واليوم.

أراد شميـل من وراء الحـديث عن ثورة اليابان الوصول إلى ترجيح كفة الحداثة على التمسك بالقديم. فاليابان اقتبست الحضارة عمن سبقها من الأمم وهجرت القديم ولاذت بالجديد. وقد أدركت أن التمسك بالقديم جمود والجمود تقهقر.

أمـا «ثـورتنـا العثمـانية» والمقصود ثورة جمعية الاتحاد والترقي عام ١٩٠٨ على عبد الحميد فهي لاتبشـر بمستقبـل زاه لعـدم اشتـراك الأمـة فيهـا اشتـراكـاً محسوساً. «فثورتنا عسكـريـة» ولايربطها رابط مع «علومنا وصناعاتنا وتجاراتنا». ويرى شميل أن «تربيتنا ونظام احكـامنـا» تعتمـد على «علوم النظر والاستظهار» وتبتعد عن «المحسوس» و«علوم العمل». والمطلوب «تحرير عقولنا من القيود التي تربطها وتضيق دائرة أحكامها». لأن «تقدم العمران اليوم بالعلوم الحديثة» وليس «اشتغال الناس كثيراً بعلوم الأوائل وانصرافهم عن البحث في ما أمامهم».

ويـرى شميـل ضرورة تجـديـد اللغـة العربية و«طرح الألفاظ التي ماتت من قواميسنا وادخال الالفاظ المستحدثة فيها كما فعل السلفاء أنفسهم». ويدعو إلى جعل «علوم اللغة» «بسيطة وسهلة التحصيل لحسن التعبير وخدمة العلم ـ اللغة متحولة فالجمود بها جمود في الأفكـار والمعلومـات». كمـا أن الاقتصـار على العلوم الأدب مضيعة لنا». فالعلوم «واسطة لبلوغ ماهو أرقى وانفع في العمران».

لم يقتصر نشاط شميل الفكري على نشر مذهب النشوء والارتقاء بل تعداه كما رأينا إلى البحث في مواضيع الساعة آنذاك وإبداء الرأي الجريء والصريح فيها. وكان هذا ديدنه منذ نعومة أظفاره الفكرية.

فقـد نشـر في مصـر عام ١٨٩٦ رسالة مفتوحة إلى السلطان عبد الحميد في استنبول بعنـوان: «شكـوى وأمـل» حلل فيهـا أسباب ضعف الامبراطورية العثمانية. كما حدد ثلاثة عوامل قال أن غيابها حدّ من التطور في الامبراطورية وهي: العلوم، العدل والحرية.

ولـم ير شميـل في الثـورة الفـرنسيـة نهاية التاريخ، كما كان شأن معظم رجال النهضة العـرب، بل تطلع إلى الثـورة الاشتـراكية وكتب في عام ١٩٠٨ أن «الاشتراكية نتيجة لازمة لمقـدمـات ثابتـة لابـد من الـوصـول إليهـا، ولـو بعد تذبذب طويل»[٦]. ورد على القائلين بطوباوية الاشتراكية بقوله في العام نفسه: «ما الاشتراكية كما يرميها خصومها باضغاث أحلام»[٧].

لقد كان شميل في عداد مجموعة من الديمقراطيين الثوريين في مصر ذوي الأصل الشامي، الذين بشروا قبل الحرب العالمية الأولى بالاشتراكية، وشكلوا الجناح اليساري داخل الحركة القومية العربية[٨].

من جهة ثالثة نشط شبلي شميل داخل الحركة القومية العربية وكان من الأعضاء البارزين في «حزب اللامركزية الادارية العثماني» المؤسس في القاهرة سنة ١٩١٢ ورشح نفسه عن ولاية بيروت في انتخابات مجلس المبعوثان عام ١٩١٢.

وعندما أصدر جمال باشا أحكام الاعدام ضد عدد من الوطنيين السوريين العرب كان اسم الدكتور شبلي شميل في قائمة المحكوم عليهم بالاعدام عام ١٩١٦ بسبب عضويته في حزب اللامركزية ونشاطه في الحركة القومية العربية.

٤ ـ شبلي شميل والعلاقة الودية مع السلفي النهضوي الشيخ محمد رشيد رضا

إن ظاهرة العلاقة الايجابية بين الطبيب النهضوي العلماني شبلي شميل مع صديقه رجل الدين السلفي النهضوي محمد رشيد رضا صاحب «المنار» تسترعي الانتباه.

بمناسبة الضجة التي أثارتها كتابات المستشرق الايطالي كايتاني نشرت المنار في آذار ١٩٠٨ تقريراً حول هذا الموضوع تحت عنوان: «رأي الدكتور شميل في القرآن والنبي[٩]». وفي هذا الرأي يسعى شميل للتوفيق بين منطلقاته العلمية والمعتقدات الدينية. ويقدم الدكتور شميل في هذا المجال نموذجاً لتعامل العلمانيين مع الآراء الدينية السائدة.

هذا الخط المتمسك بالعلمية والعلمانية والمبدئية الصادقة من جانب شميل، إلى جانب العمل في الحلف المناهض للاستبداد العثماني والصداقة الشخصية مع السلفي النهضوي محمد رشيد رضا دفعت الأخير إلى الدفاع عن شميل عندما ترشح لعضوية مجلس المبعوثان عن ولاية بيروت عام ١٩١٢.

وعندما أدركت المنية شبلي شميل عام ١٩١٧ كتب محمد رشيد رضا في المنار مقالاً من ثمان صفحات حول أعمال شميل نقتطف منها المقاطع التالية[١٠]:

«في اليوم الأول من هذه السنة الميلادية سنة (١٩١٧) اغتالت المنية الطبيب النطاسي، الحكيم الاجتماعي، العالم الطبيعي، الأديب الكاتب، الناظم الناثر، الدكتور

شميل الشهير بتصانيفه ومقالاته العلمية والاجتماعية في المجلات والجرائد العربية والفرنسية» .

«كان شبلي فذاً نادر المثل في مجموعة علومه وأعماله وأفكاره وأخلاقه والذي يحملنا على ترجمته أنه كان من طلاب الاصلاح المدني والتجديد الاجتماعي المخلصين ـ وهم قلّة ـ لا من الذين اتخذوا العلم ذريعة لجمع المال ولا وسيلة للجاه كما هو شأن السواد الأعظم من المتعلمين ، فهو لم يدخر مالاً ولم يتأثل عقاراً ، ولم يصرف جل أوقاته للكسب ، بل كان اشتغاله بالأمور الاجتماعية أكثر من اشتغاله بالطب . . . » .

« . . . وجمهور المتعلمين على الطريقة العصرية من السوريين في مصر وسورية وأمريكة يحبون الدكتور شميل ويعدونه من دعاة الاصلاح الاجتماعي المخلصين ومنهم من يغلو فيه ، أما النصارى منهم ـ وهم الأكثرون ـ فلا يرون عدم تدينه مانعاً من اصلاحه الاجتماعي إذ لا علاقة للدين بذلك عندهم ، ولا شك في كون هذا من تساهلهم الذي قاربوا به الافرنج . وأما المسلمون فلا يرون مروقه من عقيدته التي نشأ عليها مبعداً له عنهم لأنها ليست عقيدتهم فهو في نظرهم طبيب عالم اجتماعي غير مسلم ، ولكنه أقرب من غيره من المخالفين لهم إلى التساهل والانصاف لحريته واستقلال فكره . وله أصدقاء من مسلمي مصر لعلهم يزيدون على أصدقائه من مسلمي سورية الذين لايعرفه أكثرهم إلا بالسماع» .

وحول نشاط شميل في كونه أول من نشر مذهب داروين باللغة العربية وانتصر له وناضل دونه ينقل رشيد رضا رأي «بعض علماء المسلمين» في هذا المذهب ، ومنهم استاذ رشيد رضا الشيخ محمد الجسر «من طرابلس الشام» ، في الرسالة الحميدية . فقد «لخّص الجسر هذا المذهب وبين ان دلائله في أصل البشر ظنية لم تصل إلى درجة القطع ، وانها لو ثبتت وصارت يقينية لاتكون حجة على الإسلام لإمكان تأويل ظواهر النصوص الواردة في الكتاب والسنة في خلق آدم . وقد أقر أكابر علماء سورية شيخنا (الجسر ـ ع . ح .) على تلك الرسالة وترجمت بالتركية وأقرها علماء الترك[11] .

وفي اليوم المتمم للأربعين من تاريخ وفاة الدكتور شبلي شميل ، أقام النادي السوري في القاهرة حفلة تأبين له أجاب الدعوة إليها مئات من أهل العلم والأدب والوجاهة من سكان القاهرة على اختلاف مذاهبهم ونحلهم . وكان الشيخ محمد رشيد رضا أحد المؤبنين حيث سلط الأضواء على أخلاق شميل . وبعد أن تكلم عن تحلي شميل

بـ«الصـدق واستقـلال الرأي والشجاعة والثبات والسخاء والوفاء والنجدة والمروءة والرأفة». أردف قائـلاً: «ان الجـرأة والشجـاعة مكّنت شميل أن يكون صادقاً يقول مايعتقد وإن كان مما ينكـره عليـه ويكـرهـه منـه أهله وقـومـه والسـواد الأعظم من أهـل وطنه لتصريحه بالآراء التي تخـالف عقـائـد هؤلاء». وأشاررضا إلى أن شميل كان يعالج الفقراء مجاناً على الرغم من أنه «لم يكن ذا فضل من المال»، [أي لم يكن غنياً] في وقت «نرى كثيراً من الأغنياء البخلاء يحتالون على أكل أموال الناس حتى الفقراء»[١٢].

٥ ـ الحركة الاصلاحية ومشاركة بعض الأطباء فيها

بعد تخمّر طويل داخل المجتمع العربي في الدولة العثمانية انتشرت في سنة ١٩١٣ الأفكـار المنـاديـة بالاصلاح بين الفئات البورجوازية الناشئة بمختلف شرائحها. وفي ذلك الجـو المتصف بالنهـوض القـومي عُقـد «المؤتمـر العربي الأول» في باريس من ١٨ ـ ٢٣ حزيـران ١٩١٣، الـذي ضم حزب الـلامـركـزية وجمعية بيروت الاصلاحية والعربية الفتاة وتجمعات المهاجرين السوريين في الاميركتين، ولم يشارك فيه أي طبيب. وعلى الرغم من عدم مشـاركـة الجمعيـة الاصـلاحيـة الـدمشقية في المؤتمر ـ لأسباب لايتسع المجال هنا لذكـرهـا ـ[١٣] إلا أنهـا أيـدت المؤتمر ودعمت مقرراته في إقامة إدارة لامركزية في كل ولاية عربيـة. وكـان دعم «المؤتمر العـربي الأول» واضحـاً في الـرسالة التي بعث بها الأعضاء البـارزون في الجمعيـة الاصلاحية الدمشقية المؤرخة في ٢٠ أيار (مايو) سنة ١٩١٣. وقد ذيلت رسـالـة التأييـد هذه بـ٤٩ توقيعـاً منهم عشـرة أطبـاء وصيدلي هم[١٤]: الطبيب صلاح الـدين القاسمي، الطبيب أحمد ترجمان، الطبيب عبد الرحمن شهبندر، الطبيب مصطفى فهمي، الطبيب أحمد منيف العائدي، الطبيب محمد حسيب، الطبيب حكمت المرادي، الطبيب أحمـد عزت، الطبيب مصطفى عارف سقـا أميني، الطبيب خليل خالد، الصيدلي منير المحايري.

وسنـرى أن الحـركـة القومية في حماه أرسلت إلى المؤتمر العربي الأول رسالة تأييد كان في طليعة الموقعين عليها الطبيب صالح قنباز[١٥].

٦ ـ صلاح الدين القاسمي: (١٣٠٥ ـ ١٣٣٤ هـ) ـ (١٨٨٧ ـ ١٩١٦ م)

نشأ صلاح الدين القاسمي في حجر أبيه الشيخ محمد سعيد القاسمي. وبعد موت والده كفله أخوه الشيخ جمال الدين. تعلم في «مكتب عنبر ونال شهادة الطب من المدرسة الطبيـة بدمشق عام ١٣٣٢ هـ (١٩١٤). ويـلاحـظ أن النشـاط الثقـافي السيـاسي للشاب صلاح الدين القاسمي تركز في فترة الدراسة أي قبل عام ١٩١٤. ولا نعرف له نشاطاً فكرياً يذكـر بعـد حصـولـه على شهـادة الطب. ولعـل ظروف الحرب وهجرته إلى الحجاز للعمل حالت أو حدّت من نشـاطـه الثقـافي. ولم تلبث المنيّة أن عاجلته في الطائف عام ١٩١٦، وهو ابن تسعة وعشرين عاماً[١٦].

نشأ القـاسمي في منـاخ اسـلامي عربي ترجـح فيـه كفـة القـوميـة العربية. فقد كان القاسمي واقرانه «يؤمنون أن العروبة أكرم عناصر الجامعة الاسلامية وأن الله اختارها لحمل أمانات الاسلام في عصره الأول، وأن أول ما أساء به المسلمون إلى أنفسهم قبل أكثر من ألف سنة كفُّهم يدَ العروبة عن إدارة دفة الاسلام ودولته».

كانت مهمة جمعية النهضة العربية والتي اختير القاسمي كاتماً لسرها والمؤسسة عام ١٣١٤ هـ، ١٩٠٦م تعـريف شبـاب العـرب المثقفين بعـروبتهم ودعـوتهم إلى التعـاون «وصـلاح المجتمـع». ورأى أعضـاء الجمعيـة، ومنهم القـاسمي، إن أسبـاب تخلف المسلمين: استعجام لغة الدولة الرسمية وتجاهل ماكان يقع في الغرب من نهضة.

ولهـذا فإن من بواكيـر نشـاطـات القـاسمي المحـاضـرة التي ألقاها عام ١٣٣٠ هـ ـ ١٩١٢م في جمعيـة النهضـة العـربيـة بعنـوان: «الثـورة الفرنسية»، التي كانت رمزاً ومنارة لمعظم رجال النهضة العربية.

وعندما اتهمت قوى الجمود في دمشق الشيخ جمال الدين القاسمي بالوهابية(*) كتب

---

* ـ كانت الـوهـابيـة في ذلك الحين تهمة تلصق بدعاة التحرر من المسلمين وكانت احدى قلاع قوى التنـويـر ضد الجمـود والتحجـر السـائـدين في المجتمـع الاقطاعي العثماني. ومفهوم الوهابية في ذلك الحين يختلف عن النظرة الحالية من قبل بعضهم.

أخـوه صلاح الـدين مقـالاً للمقتطف القـاهـرية عرّف الناس فيه بكثير من الجرأة والشجاعة بالوهابية وأدان قوى الجمود، التي نعتها بالحشوية

بعـد الانقـلاب على السلطـان عبـد الحميـد واعـلان الـدستـور كتب صلاح الدين القاسمي سلسلة مقالات حول: المسألة العربية ونشأتها، ضائقتنا العلمية، العلم والعامة، فوضى الاقـلام، الخطـران الاصفـران الصهيـونيـة والـوبـاء الكوليرة، وقد تحدث كثيراً عن الحرية والدستور.

إن الانتاج الفكري النهضوي الغزير لطالب الطب صلاح الدين القاسمي يدفعنا إلى الظن بأن شأنه كطبيب ومفكر سيكون عظيماً لو لم يدركه الموت في سن الشباب.

٧ ـ أحمد قدري (١٨٩٣ ـ ١٩٥٨)

كان والد أحمد قدري أحد ضباط الجيش العثماني متنقلاً من مكان إلى آخر في بلاد الشام والعراق. وكان لهذا الأمر أثره على الابن، الذي ولد ولايعرف ـ كما ذكر ـ وطناً أقليمياً له فكافة بلدان العرب بأقطارها الناطقة بالضاد كانت أوطانه.

ولد أحمد قدري بدمشق ونشأ وأتم دراسته الثانوية في ربوع فلسطين وبيروت وربطته فيهـا رابطـة الصـداقـة المـدرسيـة مع عدد من الطـلاب الـذي سيشكلون فيما بعد الجسم الأساسي للحركة القومية العربيه.

درس الطب في استنبول وشهد ثورة الأتراك الاتحاديين واعلان الدستور عام ١٩٠٨ وخلع السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩. وكانت ردود فعله ـ وزملائه الطلاب العرب ـ على الروح القومية التركية الشوفينية تعاظم شعوره القومي العربي والاقتناع بتشكيل جمعية عربية سريـة على نحـو جمعيـة تركيـا الفتـاة تنهض بواجب الـدفـاع عن حقـوق العـرب ورفـع مستـواهم.. وحسب مذكـرات أحمـد قدري فإن الجمعية العربية الفتاة، التي تأسست في باريس في صيف ١٩١٣ نشأت فكـره فيـامهـا في استنبـول بعـد أربعـة أيـام من إعـلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨. أسهم طالب الطب أحمد قدري في تأسيس المنتدى الأدبي في استنبـول عام ١٩٠٩، الـذي كان موئلا للطلاب العرب الذين يؤمون الاستانة. عام ١٩١١ انتقل أحمد قدري إلى باريز للتخصص في الطب وهناك أسهم في تأسيس أول هيئة ادارية للجمعية العربية الفتاة وغايتها النهضة بالعرب وإيصالهم إلى مصاف الأمم الحية.

عاد الـدكتـور أحمـد قدري إلى دمشق ف صيف ١٩١٣ ونشـط في تأسيس تنظيم للجمعيـة فيهـا. وفي أثنـاء الحرب كانت اجتماعات الجمعية تُعقد في داره بعد أن نجحت في بث أفكارها القومية العربية بين صفوف الضباط الاحتياط.

عمـل أحمـد قدري طبيباً للدرك برتبة رئيس وهذا مما سهّل له حرية التنقل والاتصال وتنظيم أمـور الجمعيـة في أيـامهـا العصيبـة عنـدما بدأ جمال باشا باعتقال القوميين العرب وسـوقهم إلى المشـانق. وقـد تردد اسم أحمـد قدري على ألسنة الموقوفين في ديوان حرب عالية، وتقرر استدعاؤه وأوقف في ٣/ ١/ ١٩١٦ وأطلق سراحه في ١٦/ ٣/ ١٩١٦. كما أعتقـل ثانيـة في ٩/ ١٠/ ١٩١٦ وأودع سجن خان البـاشـا وأطلق سراحـه في ١٠/ ١١/ ١٩١٦. وفي أواخـر عام ١٩١٧ التحق بالأمير فيصـل في شرقي الاردن، وسـار معه باتجاه دمشق لتخليصها من الحكم العثماني. وأيام الحكم العربي (الفيصلي) كان أحمد قدري طبيباً خاصاً للأمير (الملك) فيصل ومستشاره. وقد مثّل في ٧ حزيران ١٩١٩ بلدة الخليل في المؤتمـر السـوري في ٧ حزيـران ١٩١٩. ورافق الأمير فيصل في سفره إلى أوروبا في تشرين الأول ١٩١٩.

كان أحمـد قدري منـاهضـا لاتفاق فيصل ـ كلمنصو(٦ كانون الثاني ١٩٢٠)، ومن القـوميين الـراديكـاليين الداعين للوقوف في وجه الانتداب الافرنسي. وبعد هزيمة ميسلون ودخـول المستعمـرين الفـرنسيين إلى دمشق أصدر المجلس العسكري التابع للغرفة الثالثة الفرنسية في ١٩ آب ١٩٢٠ حكم الاعدام على أحمد قدري، وعدد آخر من الوطنيين، مع مصادرة املاكه. ولكن أحمد قدري غادر دمشق مع الملك فيصل قبل هذا الحكم وأقام في القاهرة وافتتح فيها عيادة كانت مركزاً للسوريين اللاجئين إلى مصر.

عيّن في القـاهـرة قنصـلاً عامـاً للعراق سنة ١٩٣٠ وأسس المفوضية العراقية بباريس ١٩٣٥ وتولى ادارة الكلية الطبية ببغداد ١٩٣٦ وعاد في السنة نفسها إلى دمشق أيام الحكم الـوطني ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ ولم يلبث أن غادرهـا على أثر سقوط الحكم الوطني ثم عاد إليها عام ١٩٤١ وعُيّن فيهـا أمينـاً عامـاً للصحـة سنـة ١٩٤٣. وقـد مثّـل سوريـة في كثيـر من المؤتمـرات الصحيـة العـالميـة. وكتب في أعـوامـه الأخيـرة «مـذكراتي عن الثورة العربية الكبرى»، الذي صدر في طبعته الأولى عام ١٩٥٦[١٧].

٨ ـ عبد الرحمن الشهبندر (١٨٧٩ ـ ١٩٤٠م)

الأثـر الأكبـر للشهبنـدر، خريـج الجـامعـة الأميركية في بيروت عام ١٩٠٦ يظهر في المـرحلة الـلاحقـة، مرحلة الانتداب الفرنسي. ولكن الشهبندر أسهم أيضاً بصورة واضحة في هذه المـرحلة ولعب دوراً واضحـاً ومؤثـراً. فهـو طبيب مشهـور، احتـل مكاناً مرموقاً في ميدان النضال الوطني، وأسهم في بلورة المشروع النهضوي التنويري العربي. وقد عالج، وبخاصة في المرحلة التالية، جملة من القضايا الاجتماعية من منظار تنويري متفتح.

وعـدا كتـابنـا عن الشهبنـدر الصـادر في دمشق عام ١٩٨٩ أصدرت وزارة الثقافة في سلسلة «قضـايـا وحوارات النهضة العربية»، التي يشرف على اعدادها الاستاذ محمد كامل الخطيب الأعمال الكاملة للشهبندر في أربعة أجزاء وهي:

١ ـ المقالات: وهي تنشر في كتاب للمرة الأولى.

٢ ـ كتاب «القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي» ١٩٣٦.

٣ ـ «تاريخ الثورة الوطنية السورية».

٤ ـ مذكرات وخطب.

ولنا عودة إلى الشهبندر وأعماله ودوره في فصل لاحق.

٩ ـ عزة الجندي (١٨٨٢ ـ ١٩١٥)

ولـد في حمص وفيهـا تلقى علومـه الأوليـة ثم انتقل إلى دمشق وأتم دراسته. انتسب إلى معهـد الطب في استنبـول ولكنـه (طـرد؟) منه بحجة صِغَرِ سنه فعاد إلى دمشق والتحق بمعهدها الطبي ثم عاود الرحيل إلى استنبول وعلى الرغم من رغبته في نيل شهادة الطب، إلا أن عاطفة الاشتغال بالسياسة تغلبت على مقصده الأساسي[١٨].

يذكر أمين السعيد أن عزة الجندي كان من أعضاء الجمعية القحطانية المؤسسة عام ١٩٠٩ والتي استمرت على قيد الحياة حتى الحرب العالمية الأولى.

كان الجنـدي من أعضـاء المنتـدى الأدبي الذي نشط في أوساط الطلاب العرب في استنبـول في سنـوات ماقبـل الحـرب العـالميـة الأولى. كما انتسب إلى جمعية اللامركزية

الادارية العثمانية وأصبح رئيساً للجنة التنفيذية السرية التي كان من أهدافها الاستقلال العربي التام ووزعت مناشير بهذا الشأن .

سافر إلى مصر عام ١٩١١ وكانت له اتصالات مع الخديوي وصلات مع الادريسي . وانشأ في مصر مستشفى بميدان العتبة الخضراء وزاول مهنة الطب وانقطعت لفترة وجيزة صلاته بالسياسة ، ولكنه سرعان ماعاد إليها عودة العاشق إلى محبوبته ، فعاود السفر إلى الاستانة بدعوة من أنور باشا الشخصية السياسية الأولى فيها . وحسب رواية أخيه أدهم فإن أنور طلب منه أن يرشح نفسه عام ١٩١٢ لانتخابات مجلس المبعوثان عن حمص على أساس مبادىء الاتحاديين ولكنه تقدم باسم المعارضة فلم ينجح . كما كانت له صلات بابناء العشائر العربية الذين درسوا في استنبول . وهكذا فإن شبكة اتصالات عزة الجندي السياسية كانت واسعة ومتشعبة ومع قوى متصارعة .

وصل إلى بيروت قادماً من مصر على آخر باخرة ايطالية قبل دخول تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا في صيف ١٩١٤ . ويذكر أحمد قدري في مذكراته أنه التقى بعزة الجندي في بعلبك وكان في طريقه إلى الحجاز واليمن ونجد لتأسيس كيان عربي في الجزيرة العربية قبل أن «يجرفنا تيار الاستعمار» إذا ماتمزقت الدولة العثمانية . وبعد مدة اختفى عزة الجندي ولم يُعرف مصيره بالضبط . وشاعت شائعات مختلفة حول اختفائه منها انه قتل أو مات في طريقه إلى الجزيرة العربية . ولكن عدة مصادر تؤكد أن جمال باشا استدعاه بعد أن ارتاب بنشاطه وقتله بنفسه ودفن في مكان مجهول .

أثناء إقامة الجندي في مصر نشر عدة مقالات في الصحف المصرية . فقد علق في مقال له في المؤيد في ٢٠ / ٤ / ١٩١٠ على جلسة مجلس المبعوثان حول تناقض أقوال الاتحاديين مع افعالهم في سياستهم إزاء العرب . ونشر في الأهرام بتاريخ ٢٢ / ٤ / ١٩١٣ مقالاً ننقل منه الفقرة المعبرة التالية التي تعطينا فكرة عن موقف القوميين العرب في ذلك الحين . كتب الجندي :

«إننا عرب قبل كل شيء . المسلم عربي والمسيحي عربي . . أجل إننا عرب قبل أن نكون مسلمين . والمسيحي عربي قبل أن يكون مسيحياً . وقد تركنا مسألة الديانات والعبادات إلى الجوامع والكنائس . فإذا كنا عرباً قبل أن نكون مسلمين أو مسيحيين ، فبالأولى أن نكون عرباً قبل أن نكون عثمانيين» .

١٠ ـ الدكتور النطاسي توفيق أفندي سلوم

هذا الاسم مع ألقابه نجده في جريدة المقتبس التنويرية لصاحبها محمد كرد علي في العدد الصادر بدمشق بتاريخ ٢٢ كانون الأول ١٩٠٨ . وليست لدينا أية معلومات عن هذا الطبيب وكل مانعرفه عنه هومانشرته المقتبس من نظمه تحت عنوان «أرجوزة في الحرية» يتبين منها أن صاحب الأرجوزة لايتقصر على الدعوة إلى الحرية المجردة، بل يسعى إلى إعطاء الحرية مضامين إجتماعية وأخلاقية نهضوية . فالحرية لاتعني ارتكاب الجرائم وارتكاب المنكر، وهي لاتعني أيضاً بعض حقوق البائسين، ولا الاستعلاء على الناس والتكبر عليهم، ولا نهب أموال الناس والاعتداء عليهم . فالحر، في رأي النطاسي سلوم، هو حر الضمير والوجدان، الذي يحفظ لسانه من النطق بالمحرمات، وفي الوقت نفسه لايخاف في قول الحق لومة لائم، ويعامل جميع الناس باللطف والايناس، ولايسعى لإلحاق الضرر بالناس، ويعطي كل ذي حق حقه . وننقل، فيما يلي بعض أبيات هذه الأرجوزة :

«أرجوزة في الحرية»

لكن بعض الناس قد اساؤا ... تفسيرها(*) وخبطوا ماشاؤ
ما الحر من يرتكب الجرائما ... ويفعل المنكر والمآثما
ما الحر من يهضم حق البائس ... ويعرف الحياة بالخسائس
وليس حراً من طغا تجبُرا ... وتاه عجبا وانثنى تكبُرا
ونهب البيوت والأموالا ... واستعبد النساء والرجالا . .
الحر ذو الضمير والوجدان ... والطاهر الفؤاد واللسان
ولا يخاف في سبيل الحق ... لوماً ولا يقول غير الصدق
الحر من يعرف قدر الناس ... يعامل الجميع بالإيناس
يعطي لكل حقه من الملا ... ولا يضر أحداً ولا ولا

* ـ الضمير يعود على الثورة، ضد نظام الاستبداد للسلطان عبد الحميد . ويبدو أن الفوضى تدب، في معظم الأحيان، بعض القضاء على أحد أنظمة الطغيان . ويمسي المجتمع بحاجة إلى ضوابط جديدة، بدلاً من ضوابط القمع والارهاب .

١١ ـ الدكتور رضا سعيد (١٨٧٦ ـ ١٩٤٥)

ثمة نموذج من الأطباء لم يشاركوا بصورة مباشرة وحيوية في الحياة السياسية. وإنما كانت لهم اسهامات معينة في ميادين عامة لاتعرضهم «للمخاطر» وفي الوقت نفسه يبرزون في المجتمع كشخصيات مرموقة بفضل المناصب التي تقلدوها. وهذه حال عدد وافر من الأطباء نذكر منهم كنموذج الدكتور رضا سعيد.

ولد في دمشق ودرس علومه الابتدائية في المدرسة الرشدية العسكرية، ثم انتقل إلى الاستانة فدخل القسم الاعدادي التابع للمدرسة الطبية العسكرية وتخرج منها برتبة ضابط وعمل في استنبول وضواحيها. وبعد انقلاب ١٩٠٨ أوفد إلى باريس للاختصاص بالامراض العينية حيث تلقى تدريباً في مستشفى أوتيل ديولمدة سنتين. وبعد عودته من باريس إلى دمشق عُيّن كحالاً في المستشفى العسكري المركزي بدمشق. ثم اشترك في حرب البلقان ١٩١٢ وعاد بعدها إلى دمشق حيث عُين لرئاسة أطباء الخط الحجازي والخطوط السورية في سنة ١٩١٤. وفي أثناء الحرب تقلد رئاسة البلدية بدمشق حيث كانت من مهماته تأمين إعاشة المدينة.

بعد الحرب العالمية الأولى تزعم النهضة الرامية إلى إعادة افتتاح المعاهد العالية التي أغلقت أثناء الحرب. وفي أواخر ١٩١٩ دعاه الملك فيصل إلى افتتاح المعهد الطبي العربي وظل عميداً للمعهد ثم رئيساً للجامعة السورية إلى أن أحيل على التقاعد عام ١٩٣٦[١٩]. وكان قبل دلك قد تقلد وزارة المعارف من ١/ ١/ ١٩٢٥، إلى ١١/ ٢/ ١٩٢٦.

حواشي الفصل الثاني

١ ـ الجنان العدد الأول بيروت ١٩٧٠ . .

٢ ـ راجع اعداد المقتطف الصادرة في بيروت أولاً ثم القاهرة.

٣ ـ موسى منير: «الفكر العربي في العصر الحديث» بيروت بلا تاريخ ص ٣٤.

٤ ـ اعتمدنا في الكتابة عن مشاقة على مصدرين : «الروضة الغناء في دمشق الفيحاء». لنعمان القساطلي ط ١ ١٨٧٩ ، ترجمة العلامة ميخائيل مشاقة ص ١٥٠ ـ ١٥٤ . . . ومنتخبات من الجواب على اقتراح الاحباب للدكتور مخائيل مشاقة ، تحرى نصوصها ووضع مقدمتها وفهارسها الدكتور أسد رستم وصبحي أبو شعر، منشورات المكتبة البوليسية بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٥ . .

٥ ـ حول شبلي شميل ونشاطه الفكري والسياسي راجع :

ـ الملف الخاص عن شميل في . مجلة «الطليعة» القاهرية يوليو ١٩٦٩ .

ـ انطون زحلان : «التحدي والاستجابة : مساهمة العلوم والتقانة العربية في تحديث الوطن العربي» ، في : مجلة «المستقبل العربي»، ٤/ ١٩٩١ ، ص ١١ ومايليها.

- Adel A Ziadat, Western Seience in the Arab World. The Impact of Darwinism, 1860-1930, London: Macmillan, 1986.

- Albert Haurani, Arabic Thought in the liberal Age, 1798- 1939 (London- Oxford university press, Royal Institute on International affairs, 1962).

٦ ـ نقلاً عن السعيد رفعت: «تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر ١٩٠٠ ـ ١٩٢٥» بيروت ١٩٧٢ ، ص ١٠٢.

٧ ـ نقلاً عن : «مجلة الطليعة» الدمشقية ، العدد ٢٨ تشرين الأول ١٩٣٦ ، ص ٦٨٨.

٨ ـ السعيد. . . . . ص ١٠٣.

٩ - المنار الجزء ١، المجلد ١١، آذار ١٩٠٨

١٠ - المنار: الجزء ١٠ المجلد ١٩، ١٨ أبريل ١٩١٧، ص ٦٢٥ - ٦٣٢.

١١ - المصدر نفسه.

١٢ - المصدر نفسه، ص ٦٢٩.

١٣ - راجع بهذا الشأن: حنا عبد الله: «عبد الرحمن الشهبندر (١٨٧٩ - ١٩٤٠) علم نهضوي ورجل الوطنية والتحرر الفكري، دمشق ١٩٨٩. ص ١٨ص.

١٤ - نقلاً عن: «وثائق المؤتمر العربي الأول ١٩١٣، كتاب المؤتمر والمراسلات الدبلوماسية الفرنسية المتعلقة به» تقديم ودراسة وجيه كوثراني، بيروت ١٩٨٠، ص ١٥٣ - ١٩٥٤.

١٥ - بلع عدد المحامين الموقعين على رسالة التأييد ستة محامين أما بقية الأسماء فذكرت دون إشارة إلى المهنة. ويلاحظ خلو الأسماء من لقب بك أو أفندي أو حواجه وهي الألقاب المتعارف عليها آنذاك.

١٦ - أخذنا المعلومات عنه من كتاب: «الدكتور صلاح الدين القاسمي، صفحات من تاريخ النهضة العربية في أوائل القرن العشرين»، قدم له وحققه محي الدين الخطيب ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩، المطبعة السلفية مصر.

١٧ - أخذنا المعلومات عن قدري من: «مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى» للدكتور أحمد قدري الصادرة في طبعتها الثانية عن وزارة الثقافة دمشق ١٩٩٣، في سلسلة «قضايا وحوارات النهضة العربية».

١٨ - استقينا أخبار الجندي من أربعة مصادر:

- «الثورة العربية الكبرى» لأمين السعيد، مجلد ١، مصر بلا تاريخ ص ١٠

- «اعلام الأدب والفن» لأدهم آل الجندي الجزء ١ دمشق ١٩٥٤.

- «تاريخ حمص» لمنير الخوري عيسى أسعد، القسم الثاني نشرته مطرانية حمص الارثوذكسية، ط ١ ١٩٨٤.

- «شهداء الحرب العالمية الأولى» لأدهم آل الجندي، دمشق ١٩٦٠، ص ٣٣- ٣٤.

- «مهرجان الفكر والعقيد لتكريم ذكرى عبد الحميد الزهراوي، رفيق سلوم، د. عزة الجندي. . اصدار المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، دمشق ١٩٦٣، ص ٩٨ - ١٠٢.

١٩ - راجع: مجلة «معهد الطب العربي»، كانون الثاني شباط ١٩٤٦، حفلة تأبين الاستاد رضا بك سعيد.

الفصل الثالث

الأطباء في النضال الوطني ضد الانتداب

بعد انهيار الدولة العثمانية في خريف عام **١٩١٨** قامت في سورية الداخلية حكومة وطنية عربية (اقطاعية ذات نزعات بورجوازيّة) بقيادة الشّريف فيصل بن الحسين قائد جيش الشمال للثورة العربية التي انطلقت من الحجاز، ولكن الدولة الوطنية العربية لم تتمكن، لظروف داخلية وخارجية متعددة، من الحياة أكثر من سنتين إذ عاجلتها جيوش الغزو الفرنسي، التي قضت على المقاومة الوطنية في ميسلون في **٢٤** تموز عام **١٩٢٠**، واحتلت دمشق وسائر المدن السورية

بعد احتلال المستعمرين الفرنسيين لسورية ولبنان كان لابد لهم، بالاتفاق مع الاستعمار البريطاني، الذي احتل العراق وفلسطين وشرقي الاردن، من ايجاد «حجة» شرعية لحكم الأقطار العربية «فلسطين، شرق الأردن، العراق، سورية، لبنان»[1].

وهكذا أقر مجلس عصبة الأمم أثناء اجتماعه في لندن في **٢٤** تموز سنة **١٩٢٢** صك الانتداب، الذي وضعته الحكومة الفرنسية لسورية ولبنان، وقد هدف هذا الصك المتذرع «بنصح الأهالي ومعاونتهم وارشادهم في إدارتهم»، إلى تثبيت السيطرة الاقتصادية والسياسية والثقافية للاستعمار الافرنسي وإنشاء مواقع استعمارية جديدة تخدم المصالح الامبريالية للاحتكارات الافرنسية والاجنبية الأخرى[2]

في مرحلة الانتـداب الفـرنسي برزت البـرجوازية الوطنية التجارية، التي حَلُمَ بعض أقسـامهـا في التحـول إلى بورجـوازيـة صنـاعية، كقوة قائدة في حركة التحرر الوطني . وقد اصطدمت مصالحها بشكل عام مع سياسة الانتداب الافرنسي الرامية إلى تمكين الرأسمال الاحتكـاري الافـرنسي من السيطـرة على سورية واستثمار شعبها . كما أن هذه البورجوازية نادت بوحـدة بلاد الشـام التي قسّمهـا الانتـداب الاستعماري وحلمت بإقامة سوق مشتركة واسعـة نسبيـاً كمـا أن عنـاصـر فعّـالـة مثـل الطلاب والمعلمين وبعض المحامين والأطباء تحدّرت قبل ١٩٤٥ من صفوف البورجوازية الوطنية والفئات الوسطى، أسهمت بنشاط في إيقاد جذوة النضال الوطني[٣] .

ولكن القـوى الضـاربة الأساسية في النضال الوطني تكوّنت ـ في المرحلة الأولى في العشـرينـات ـ من الفلاحين وشغيلة المدن . وقد حمل الفلاحون العبء الأكبر من النضال الـوطني في الفتـرة الأولى من الاحتـلال الافـرنسي . وكـانت آخـر الانتفـاضـات المسلحة (الفلاحية) الثورة السورية (١٩٢٥ ـ ١٩٢٧) التي اشترك فيها بالإضافة إلى فلاحي جنوب سورية جماهير شعبية من مدينة دمشق[٤] . وكان للطبيب عبد الرحمن الشهبندر دور بارز فيها وفي ترسيخ دعائم الحلف الوطني بين المدينة والريف .

وقبـل الاحتـلال الافرنسي كان الأطباء الطليعيون في مقدمة المعارضين للانتداب فقـد احتجت في صيف ١٩١٩ الأحـزاب والهيئـات السـوريـة «على ماصـرحت به اللجنة الاميـركيـة باسم مؤتمـر السـلام من لزوم تسميـة دولـة تنتـدب للوصاية على بلادنا» وطالبوا بـ«الاستقلال التام بلا حماية ولا وصاية ولا إشراف» .

بلغ عدد المحتجين على الانتـداب أربـع وعشـرون حزبـاً وهيئة وعدد التواقيع أربع وسبعـون توقيعـا منهم أربعـة أطبـاء وصيـدليـان وهم : عبـد الـرحمن الشهبندر عن الاتحاد السـوري، أحمـد قدري عن الاستقلال العربي، حسام الدين أبو السعود ومرشد خاطر عن جمعية الأطباء، منير المحايري وحسني هبل عن جمعية الصيادلة[٥] .

وفيما يلي أشهر الأطباء الذين قاتلوا الاحتلال الاستعماري الافرنسي بالسيف والقلم :

١ ـ خالد الخطيب (١٨٩٨ ـ ١٩٣٣)

ولـد في حمـاة وتلقى دراستـه الابتدائية فيها ونال الشهادة من مدرسة الاتحاد الوطني بحمص. دخل معهد الطب العربي بدمشق وتحرج طبيباً في الجراحة وتخصص في التوليد.

شارك بنشـاط في الحـركـة الوطنية أيام الحكومة الوطنية العربية (١٩١٨ ـ ١٩٢٠). وعلى أثـر وقعـة ميسلون في ٢٤ تمـوز ١٩٢٠ اعتقله الفـرنسيـون وحكم عليـه بالاعدام ثم خفضت العقوبة إلى عشرين عاماً[٦].

أسهم بنشاط في التحضير لاستقبال الأميركي مستر كراين ووداعه في ٦ نيسان ١٩٢٢ تعبيـراً عن الاحتجـاج على الانتـداب الفرنسي. فاعتقل مع الدكتور عبد الرحمن الشهبندر وخمسـة وطنيين آخـرين واحيـل إلى المحكمـة العسكـريـة الفـرنسيـة، التي حكمت على الـدكتـور خالـد الخطيب بالسجن عشر سنوات، في حين كان نصيب الشهبندر حكماً لمدة عشـرين سنـة. نقـل الخطيب والشهبنـدر ورفـاقهمـا إلى سجن جزيـرة أرواد. وقـد امضى الخطيب في سجن أرواد تسعة عشر شهراً أطلق سراحه مع رفاقه على أثر عفو في ١٢ تشرين الأول ١٩٢٣[٧].

بعد اندلاع الثورة السورية عام ١٩٢٥ شارك الخطيب في انتفاضة حماة، التي قادها الضـابـط في قوى البـاديـة فوزي القـاوقجي. وبعـد إخمـاد الانتفاضة توارى الخطيب عن الأنظار واختبأ في قبوداره. وعندما اشتدت ملاحقة السلطات الفرنسية له هرب من حماة إلى حمص في سيارة صديقه فريد مرهج وهو يرتدي لباساً نسائياً ونقاباً على وجهه. ومن حمص نظم الخطيب بمعونة أحد أقربائه أمر وصوله إلى جبل الدروز معقل الثورة. ولم يكن راضياً عن طريقة توزيع الاعانات على الثّوار فاحتج ثم صفا الجو وقام بواجبه الانساني في معالجة المـرضى والجـرحى في جبـل الـدروز. انتقـل من الجبـل إلى الغوطة مرتين للمشاركة في معارك الغوطة وان من أنصار الشهبندر في الخلاف الذي دب في صفوف الثوار[٨].

بعـد خمـود الثورة سار من السـويـداء إلى عمـان سيراً على الأقدام. ولكن الانكليز أبعـدوه عن عمـان فلجأ إلى مصـر وأقـام فيهـا لمدة سنة. ولما كانت إجازة الطب من معهد

الطب بدمشق لاتخوله العمل في مصر فإنه بقي عاطلاً عن العمل. وتشاء الصدف أن يتعرف على سيدة انكليزية اقترن بها(*)، وكانت وسيلته للعودة إلى عمان حيث افتتح عيادة وتعاطى مهنة الطب حتى وفاته بذات الرئة عام ١٩٣٣ . وقد منعت السلطات الفرنسية دخول جثمانه إلى سورية فحماة خوفاً من قيام مظاهرات عند الاحتفال بدفنه. وبعد وساطات سُمح بنقل جثمانه إلى دمشق، وليس إلى حماة، وأُلحِدَ الثرى بمقبرة الباب الصغير بدمشق.

كان الدكتور خالد الخطيب أديباً وخطيباً وشاعراً، وله ديوان شعر مطبوع لم نستطع العثور عليه.

٢ ـ صالح قنباز

ولد في حماة عام ١٨٨٧ من والدين فقيرين. تعلم القراءة والكتابة في مدرسة كان يديرها مفتي حماة الشيخ سعيد النعسان. ثم انتقل إلى مدرسة حماة الاميرية وبعدها أتى إلى دمشق ودرس في مدرستها الثانوية مكتب عنبر. ثم أصبح طالباً في المعهد الطبي بدمشق إلى أن نال الاجازة في الطبابة عام ١٩١٠ من ذلك المعهد[١].

ويذكر السفرجلاني أن صالح قنباز نشأ في عائلة فقيرة بالمال. فمن الذي أنفق عليه في دمشق لاتمام علمه؟. ثمة احتمالان: الأول أن أحد أقربائه من الأثرياء تبرع بالانفاق على تعليمه عندما توسم فيه الذكاء، والثاني أن احدى المؤسسات الخيرية قامت بالغرض نفسه. وعن هذين الطريقين تخرج عدد من الأطباء المتحدرين مس بيئة فقيرة، ومتوسطة الحال. وهذا يعني انتقال هؤلاء من فئة اجتماعية دنيا إلى فئة أعلى. وكان لهذا الحراك الاجتماعي ـ أي الانتقال من فئة اجتماعية إلى أخرى ـ أثر بيِّن على النشاط السياسي والاجتماعي لهؤلاء الأطباء. فمنهم من سار في ركاب الوجاهة والارستقراطية واندمج فيها

---

* ـ نشر الثائر الشهيد سعيد العاص في كتابه «صفحة من الأيام الحمراء» الصادر في القاهرة ١٩٣٠ صورة فوتوغرافية احتلت صفحة كاملة للدكتور خالد الخطيب وقوفاً وزوجته الانكليزية جلوساً على الكرسي.

كلياً و«نسي» أصله، ومنهم من اتخذ موقفاً نقدياً من المحيط الجديد اختلفت حدته من طبيب لآخر. والمصادر اليسارية تضع الطبيب صالح قنباز في عداد التيار المناهض للوجاهات الاقطاعية الحموية ابتداء بعلي الارمنازي وقنباز ومروراً بالطبيب توفيق الشيشكلي وانتهاء بالمدرس عثمان الحوراني وابن اخيه المحامي أكرم الحوراني.

أما المصادر الأخرى التي تحدثت عن قنباز فلم تتعرض لهذه الناحية واكتفت بالكشف عن نشاطه الاجتماعي والوطني. ولنقرأ ماكتبه السفرجلاني عنه: «لم يكن عالماً في الطب والعلوم المادية والدنيوية فحسب بل كان فقيهاً متشرعاً عالماً بالفرائض (علم المواريث) ألف فيه كتاباً لم يطبع بعد. وكان عالماً بالتاريخ... مثابراً على واجبه الديني فلم يفته أداء صلاة من الصلوات[10]...

زار قنباز استنبول بقصد الاستمرار في دراسة الطب عام ١٩٠٩ في مرحلة نهوض الحركة العربية بين الطلاب العرب في عاصمة الدولة العثمانية، وتوطدت صداقاته مع زعماء الحركة العربية وفي مقدمتهم عبد الكريم الخليل. ولهذا نجد أن صالح قنباز في طليعة الشباب المثقف في حماة، الذين أيدوا المؤتمر العربي الأول المنعقد في باريز عام ١٩١٣ في رسالة من حماة مؤرخة في ١٦ أيار ١٩١٣[*].

أثناء الحرب عُين قنباز طبيباً برتبة رئيس في مدينة القدموس وعندما بدأ جمال باشا بملاحقة وإعدام قادة الحركة العربية نفى الدكتور صالح قنباز إلى الأناضول وبقي هناك حتى نهاية الحرب ١٩١٨.

بعد الحرب عُيّن طبيباً «لحكومة حماة». ولكنه آثر العمل الحر فاستقال وافتتح عيادة.

---

* - جاء في الرسالة: «... ان الاختلاف بين البشر لابد منه ليكون باعثاً على التسابق في مضمار الحياة... ورأينا أن إحياء روح المعارضة الطاهرة الخالصة من شوائب الانتقام... ودعونا للمركزية...، التي تدعو للذود عن الوطن والدولة والوقوف في وجه الاستعمار والتداخل الأجنبي...».

ومن الموقعين على الرسالة علي الارمنازي الاب الروحي للحركة الوطنية في حماه. ويُظن أنه منشيء الرسالة. راجع: الطريق البيروتية العدد الرابع، تشرين الثاني ١٩٩٣، ص ١١٠ - ١١١.

ومن أولى نشاطاته الوطنية الفكرية تأسس النادي العربي في حماة وترؤ سه. وكان مركز النادي العربي في دمشق وله فروع في عدد من المدن السورية. وقد لعب هذا النادي دوراً في تأجيج المقاومة الفكرية ضد الاستعمار الفرنسي أيام حكومة فيصل(١٩١٨ - ١٩٢٠). كما كان قنباز في عداد مؤسسي مدرسة دار العلم والتربية في حماة، التي كانت مركزاً للحركة التربوية في المدينة. وكان قنباز رئيساً لعمدة المدرسة. وفي الوقت نفسه كان عضواً في المجلس البلدي، وعضواً في المجمع العلمي العربي، وعضواً في مجلس المعارف المحلي. وتطوع لتدريس العلوم الطبيعية في مدرسة حماة الثانوية الاميرية. وكان له اليد الطولى في بث الروح الوطنية وحب القومية[١١].

في تشرين الأول **١٩٢٣** يمم قنباز وجهته نحو البلاد الفرنسية ليطلع على ماحدث في العالم الطبي. «وكان في غضون إقامته في فرنسا ساعياً سعياً حثيثاً وراء إفادة أمته عن طريق محادثة رجالات فرنسا بالقضية الوطنية العربية». وكان من ثمار هذا العمل، أن الجمعية الأسيوية في باريز انتخبته في **٤** تشرين الثاني **١٩٢٤** عضواً فيها.

في أواخر عام **١٩٢٤** غادر قنباز فرنسا إلى القاهرة ومنها إلى الديار المقدسة لقضاء فريضة الحج، واجتمع هناك بالملك حسين الأول. ثم قفل راجعاً إلى حماة وفي رأسه مشاريع ثقافية وعمرانية كثيرة. وكان أول ماقام به البدء بترجمة كتاب المستشرق المجري غولدتسيهر وموضوعه الاسلام وشرعته. كما أخذ يمد مجلة الزهراء بأبحاث طبية.

أثناء انتفاضة حماة أيام الثورة السورية وقع بصره على الشارع فشاهد أن أحد ذوي قرباه أصيب بطلق ناري وهو بحاجة إلى معونة طبية فأسرع إلى نجدته ولم يبال بالنار. وبينما كان يفحص المريض أطلق عليه أحد جنود الاحتلال الفرنسي الرصاص فسقط شهيداً[١٢]. لم يتجاسر أحد على دفنه فحملته النساء إلى زاوية آل الشرابي القريبة من بيت قنباز فدفن فيها. وفي تلك الأثناء هجم جنود الاحتلال على بيته فحطموا الأبواب وكسروا النوافذ والصناديق والمكتبات ونهبوا كتبه ومخطوطاته النفيسة ومجموعاته التي قضى حياته في جمعها، ومنها كتابٌ في علم الفرائض (المواريث)، كما كان قد ترجم عن الفرنسية كتاباً في الفلسفة وحاضر وكتب في الصحف باسمه الصريح أو المستعار.[١٣].

٣ ـ توفيق الشيشكلي (١٨٨٤ ـ ١٩٤٠)

ولد في حماة ودرس فيها . وفي عام ١٩٠٨ انتسب إلى المكتب الطبي في استنبول، ثم انتقل إلى معهد الطب العربي بدمشق وتخرج منه عام ١٩١١ ، نشط في أوساط الحركة العربية وانضم إلى حزب اللامركزية . أيّد جمعية الاتحاد والترقي في أول عهدها ثم خرج عليها وخطب ضدها في مدينة حماة . أيام الحرب «حرسته» ـ حسب تعبير فائز سلامة ـ «العناية الالهية من مشانق الأتراك»[١٤] . علماً أن صديقه علي الارمنازي كان في عداد الشهداء العرب .

أيام الدولة الوطنية العربية (١٩١٨ ـ ١٩٢٠) كان الشيشكلي ركناً قوياً في لجنة الدفاع الوطني العليا ، التي رفعت شعار رفض الانتداب وحثت الجماهير على المقاومة المسلحة . وهو من طلاب الاستقلال التام الناجز بدون حماية أو وصاية . وكانت خطة السياسة تدعو إلى الوصول إلى الاهداف بالطرق الدبلوماسية لا بالعنف والاكراه . انتسب إلى حزب الاستقلال وكان أحد أركانه في حماة ومن ثم أصبح من زعماء الكتلة الوطنية وخطيبها في حماة[١٥] .

حمل المثقفون أبناء العوائل من الدرجة الثانية والثالثة في مدينة حماة لواء النضال المناهض للاقطاعية واحتجاجاً على عائلات الوجاهة من آل العظم والبرازي والكيلاني . فمنذ مطلع القرن العشرين عمل الاستاذ علي الأرمنازي ـ صديق توفيق الشيشكلي ـ ضد عائلات الوجاهة الاقطاعية . وبعده جاء الدكتور صالح قنباز ـ وقد مرّ ذكره ـ ، الذي سقط شهيداً برصاص جنود الاستعمار الفرنسي في الثورة السورية عام ١٩٢٦ . وبعد الدكتور قنباز برز الدكتور توفيق الشيشكلي ، الذي قاد منذ عامَ ١٩٣٢ الكتلة الوطنية في حماة، ولم يكن على وفاق تام مع العائلات الاقطاعية في المدينة . فقد رشح نفسه للنيابة عام ١٩٢٨ مناوئاً القوى الاقطاعية في حماة فلم يكتب له النجاح إلى أن اشتد ساعد الحركة الاجتماعية واليقظة الشعبية عام ١٩٣٢ .

إن مجموعة الأرمنازي ـ قنباز ـ الشيشكلي ومن بعدهم عثمان الحوراني وابن أخيه أكرم الحوراني كانت حصاد حركة وطنية نشأت في مدينة حماة كتعبير عن تمرد البورجوازية

الصغيرة والجماهير الكادحة في المدينة وريفها ضد العائلات الاقطاعية (آل العظم والكيلاني والبرازي). والواقع أن العلاقات الطبقية في مدينة حماة وريفها تقدم نموذجاً كلاسيكياً عن التحالف بين بورجوازية المدينة الثورية والريف الفلاحي المضطهد ضد الاقطاعية المسيطرة اقتصادياً في الريف وسياسياً في المدينة. ولهذا فإن الحركة الاجتماعية في حماة كانت في طور بارز منذ مطلع هذا القرن وازدادت معالمها وضوحاً بعد الاحتلال الافرنسي وتحالف الاقطاعية في أواسط سورية مع هذا الاحتلال وسيرها في ركابه. وفي الوقت نفسه رفعت الأقسام المتقدمة من البرجوازية الصغيرة علم النضال ضد الاحتلال الاستعماري وأخذت تصطدم تدريجياً بالاقطاعية عدوتها الطبقية وحليفة الاستعمار[١٦].

تجلت هذه الظاهرة بوضوح في معارك الانتخابات النيابية في كانون الأول **١٩٣١** وفي أوائل عام **١٩٣٢** واتخذت طابعين بارزين:

الطابع الأول طابع (محتوى) وطني معادٍ للامبريالية، إذ أن المعركة دارت بوجه عام بين المناهضين للامبريالية ولسياسة الانتداب من جهة، وبين أنصار الانتداب من جهة ثانية.

والطابع الثاني كان ذا محتوى اجتماعي طبقي، تمثل في الصراع بين الاقطاعية والقسم الأكبر من ملاك الأرض من جهة وبين البورجوازية الوطنية التجارية والصناعية والبورجوازية الصغيرة من جهة ثانية. وقد دعمت جماهير المدن بقوة وحزم الجبهة الوطنية (الكتلة الوطنية) وحملت ممثليها في كل من دمشق وحمص وحماة إلى البرلمان.

تجلت المعركة الطبقية بأجلى معانيها خلال الانتخابات في حماة، حيث استطاعت العائلات الصغيرة والفقيرة والبورجوازية في المدينة، التي تزعمها الطبيب توفيق الشيشكلي، من قادة الكتلة الوطنية، إن تجند جماهير المدينة حولها في الكفاح ضد العائلات الاقطاعية الارستقراطية (آل العظم، الكيلاني، البرازي). وقد تردد أثناء «العراضات» ومهرجانات التأييد لقائمة الكتلة الوطنية شعار[١٧]:

هات المجرفة والكريك، لَنْقُشْ الآغا والبيك

وقد اسفرت نتيجة الانتخابات في حماة عن فوز قائمة الكتلة الوطنية بزعامة توفيق

الشيشكلي ، الذي كانت له مواقف وطنية واجتماعية مشهودة في البرلمان في الدفاع عن حقوق العمال والطبقات الفقيرة . وهذا مادفع صاحب كتاب «اعلام العرب في السياسة والأدب» المطبوع عام ١٩٣٦ إلى نقل أقوال الناس في الشيشكلي بأنه «قضى على عهد الاقطاعية في حماة ومحا نفوذ الزعماء المستبدين بها»[١٨].

ولكن الجانب البارز من نضال الدكتور الشيشكلي تجلى في العمل الوطني ولم يكن العمل الاجتماعي أو بالأصح تبني بعض مطالب الطبقات الوسطى والدنيا إلا متمماً للنضال الوطني في ظروف حماة المعروفة . فتوفيق الشيشكلي هو بالدرجة الأولى زعيم وطني وليس زعيماً لطبقات دنيا ضد الطبقة العليا وإن كان قد سعى بصفته من عائلات الدرجة الثانية إلى تقليم أظافر العائلات الاقطاعية في حماة .

شارك الشيشكلي في مؤتمر بعلبك ، الذي عقدته الكتلة الوطنية بتاريخ ٢١ تشرين الأول ١٩٣٥ . وفي هذا المؤتمر أعلنت الكتلة الوطنية انها سارت بعيداً في طريق الثقة بالوعود واتباع وسائل التفاهم وجميع هذه الوسائل لم تنم . بمعنى آخر أن السلطات الفرنسية هي المسؤولة عن تأزم الأوضاع[١٩] . وكأن الكتلة كانت ترى الغليان الشعبي ضد سياسة الانتداب يطفو على سطح الأحداث وهذا ماجرى بعد ثلاثة أشهر إذ اندلعت الاضرابات وعمت معظم المدن السورية في أوائل عام ١٩٣٦ .

قاد الدكتور توفيق الشيشكلي حركة الاضراب الشامل في حماة في كانون الثاني ١٩٣٦ احتجاجاً على مداهمة السلطات مكتبي الكتلة الوطنية في دمشق وحلب ثم اقفالهما وعلى اعتقال النائب الوطني فخري البارودي وغيره من الوطنيين . وقد رفع النائب الدكتور الشيشكلي برقية إلى المفوض السامي للجمهورية الفرنسية وإلى قناصل الدول العربية والاجنبية والى كبريات الصحف في بيروت ودمشق يعلن فيها عن اضراب مدينة حماة احتجاجاً على استخدام الشدة[٢٠] .

وبتاريخ ٤ شباط ١٩٣٦ ، ارسل نائب حماة توفيق الشيشكلي عريضة إلى «فخامة المفوض السامي لسوريا ولبنان المعظم» بين فيها أن الاحتجاج على إقفال مكاتب الكتلة الوطنية لم يكن إلا بمثابة الشعرة التي قصمت ظهر البعير . فثمة أسباب جوهرية عدّدها

الشيشكلي في عريضته[٢١] دفعت الشعب للتظاهر والاحتجاج أعقب ذلك مظاهرات صاخبة في حماة سقط فيها عدد من الشهداء برصاص الشرطة. وعلى الأثر قامت السلطات باعتقال الشيشكلي لمدة أسبوع. وبعد اطلاق سراحه استقبلته حماة استقبالاً شعبياً حاشداً[٢٢]. ثم انتخبته نائباً عنها في برلمان ١٩٣٦.

إن توفيق الشيشكلي يمثل مع جيل من النهضويين المستنيرين الفكر المتسامح والوطني. فقد وصفه صاحب كتاب «اعلام العرب...» بأنه «عربي قح، متمسك بدينه ولكنه بدون ماتعصب». وهذه كانت صفة معظم الوطنيين أيام النضال ضد الانتداب الافرنسي وفي السنوات الأولى للاستقلال.

٤ ـ عبد الرحمن الشهبندر (١٨٧٩ ـ ١٩٤٠)

ولد الشهبندر في دمشق لأسرة رقيقة الحال. وبفضل مساعدة قريبه التاجر حسن القتلان أتم الشهبندر تعليمه الابتدائي والاعدادي في مدارس دمشق ثم انتقل عام ١٨٩٦ إلى بيروت حيث درس في «الكلية السورية الانجيلية» والقى في حفلة التخرج عام ١٩٠١ خطاباً في التقليد حمل فيه على الجمود بأنواعه حملة شعواء. عاد إلى دمشق وانضم إلى حلقة الشيخ طاهر الجزائري التنويرية. ثم قفل راجعاً إلى بيروت لدراسة الطب في الكلية السورية الانجيلية ونال عام ١٩٠٦ شهادة الدكتوراه في الطب بدرجة امتياز ولهذا القى كلمة الطلاب في حفلة التخرج بعنوان «التسامح» أو «التساهل» حمل فيها على التعصب حملة مماثلة لحملته على التقليد.

بدأ نجم الشهبندر يلمع في ميداني الطب والفكر السياسي بعد عودته من بيروت عام ١٩٠٨ واستقراره في مدينة دمشق. لقد دخل الشهبندر الميدان السياسي والفكري وهو لايملك من الأطيان ورأس المال إلا علمه الطبي وثقافته الواسعة، وربما من هنا يفهم المرء نزعته الاشتراكية، واهتمامه بالقضايا الاجتماعية واحساسه بامتيازه الفكري والمعرفي على باقي زملائه سليلي العائلات الاقطاعية والتجارية ووجوه الأحياء.

بين عامي ١٩٠٩ ـ ١٩١٤ كتب الشهبندر عدداً من المقالات في الجريدة الوطنية الدمشقية «المقتبس»، لصاحبها محمد كرد علي. ونشط في الجمعية الاصلاحية

الـدمشقيـة، التي تألفت عام ١٩١٣ مؤيـدة الجمعيـة الاصـلاحيـة البيـروتيـة في المطالبة بالاصـلاح واعطـاء القـوى البورجوازية (التجارية) في المدينتين قسطاً من الحكم الاداري والحرية الاقتصادية.

عندما شعر الشهبندر أيام الحرب العالمية الأولى ـ وكان طبيباً لجمال باشا ـ بأن دوره في الاعتقـال والاعـدام قد حان هرب في تشـرين الثاني ١٩١٥ عبر بادية الشام إلى البصرة ومنها إلى الهند فمصر. وهناك شارك الشهبندر في الحركة الوطنية الشامية الناشطة آنذاك في القطر المصري.

بعد انهيار الدولة العثمانية عام ١٩١٨ وتأسيس الدولة الوطنية العربية (الفيصلية) عاد الشهبنـدر إلى دمشق وكـان في طليعـة القـوى الـوطنيـة المطـالبة بعدم الرضوخ للاستعمار الافـرنسي. وعنـدمـا قويت شكيمـة العناصر المعادية للاستعمار تشكلت في ٣ أيار ١٩٢٠ وزارة هاشم الأتـاسي واحتـل الشهبنـدر فيهـا منصب وزير الخارجية. وبعد هزيمة المقاومة الـوطنيـة في ميسلون في ٢٤ تموز ١٩٢٠ واحتلال المستعمرين الفرنسيين لدمشق حُكم على الشهبنـدر بالاعـدام. فغـادر دمشق والتجأ مرة ثانية إلى مصر وبقي فيها حتى عودته في تموز ١٩٢١، بعد صدور العفو عن الوطنيين المؤيدين للدولة الوطنية العربية.

اغتنم الشهبندر فرصة عودة الاميركي المستر كراين إلى دمشق للقيام بحملة مناهضة للانتداب الافرنسي. فنظم عدة لقاءات واسعة مع الأهالي في عدد من أحياء دمشق، كما استغل الشهبندر مناسبة توديع المستر كراين في ٦ نيسان ١٩٢٢ لجمع جمهور ضخم، ضم عدداً كبيـراً من النسـاء، أخـذ ينشـد الأنـاشيد الوطنية ضد الحماية والوصاية. أما الشهبندر فختم خطابه أمام حشد كبير قائلاً: «فليحيى الاستقلال التام ولتحيى شجرة الحرية النامية».

كان رد فعـل السلطـات الفـرنسيـة سريعـاً وعنيفاً فقامت باعتقال الشهبندر ومحاكمته وزجه في سجن جزيرة أرواد. وبعد أن أمضى في السجن نحو تسعة عشر شهراً أطلق سراحه في ١٢ تشرين الأول ١٩٢٣.

هنـاك في حجـرة السجن ومن وراء القضبان قام الشهبندر بترجمة كتاب ديزل بورنس «في السيـاسـة الـدولية» الصادر في لندن عام ١٩٢٠ ونشره في دمشق عام ١٩٢٥ مع مقدمة طويلة له أعلن فيهـا سروره بتقـدم الاشتراكية الديمقراطيـة في أوروبـا واعجابه بالولايات

المتحدة (آنذاك). كما أكد الشهبندر في مقدمته على «أن الأسباب الاقتصادية تحدث الثورات الاجتماعية» وأن المظالم القومية والمنافسات الاقتصادية هي التي تسبب الحروب. ودعا إلى الثورة الاجتماعية بدون عنف وإراقة دماء.

في أواخر عام ١٩٢٤ وأوائل عام ١٩٢٥ شرع الشهبندر في تأسيس حزب يحوز على الشرعية ويقود النضال الوطني. وهكذا تأسس في أيار ١٩٢٥ حزب الشعب بزعامة الشهبندر. وهو أول حزب سياسي اعترفت به السلطة الفرنسية بعد الاحتلال في تموز ١٩٢٠

وبالرغم من عدم دعوة حزب الشعب إلى الثورة المسلحة واقتصاره على «الدعوة إلى الثورة الفكرية السلمية» والسعي «لتحقيق مبادئه بالطرق القانونية». فإن بعض أعضائه وفي مقدمتهم الشهبندر ساروا، وإن يكن بتردد في طريق التهيئة السرية للثورة المسلحة.

التحق الشهبندر بالثورة في أواخر آب ١٩٢٥ وبذل قصارى جهده لتوحيد قوى الثورة، وبعد أن أقام مدة في جبل العرب، معقل الثورة، وصل في ١٢ نيسان ١٩٢٦ إلى الغوطة لتنظيم أمور الثورة فيها ثم عاد إلى الجبل.

لم تكلل بالنجاح مساعي تأجيج نيران الثورة الوطنية مرة أخرى، وتمكن الفرنسيون من السيطرة على الموقف عسكرياً وتوجيه ضربات متتالية للعصابات الثائرة في أواخر عام ١٩٢٦ ومستهل ١٩٢٧. ولهذا لم يبق أمام الشهبندر إلا طريق اللجوء السياسي إلى احدى الدول العربية وبخاصة ان حكماً بالإعدام كان قد صدر بحقه من المجلس العدلي الافرنسي بسبب مشاركته في الثورة، التي اعتبرها المستعمرون تمرداً وعصياناً وخراباً للبلاد.

التجأ الشهبندر في ٧ آذار عام ١٩٢٧ إلى القاهرة، وهناك، لم ينكس علم النضال الوطني بل استمر إلى جانب عمله الطبي - يكافح ويناضل دون أن يقطع الصلة بالحركة الوطنية السورية. وفي الوقت نفسه خصص الشهبندر جزءاً من وقته للعمل الفكري ترجمة وابداعاً. فقام بنشر سلسلة من المقالات في مجلتي المقتطف والهلال القاهريتين بالإضافة إلى الخطب التي ألقاها ونشرتها الصحف المصرية والعربية.

وفي عام ١٩٣٦ قام الشهبندر بطبع مجموعة مقالاته المنشورة في المقتطف بدءاً من

عدد فبراير (شباط) ١٩٣٢ في كتاب صدر في القاهرة في أوائل عام ١٩٣٦ تحت عنوان: «القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي».

عاد الشهبندر إلى دمشق في أواسط أيار ١٩٣٧ بعد صدور عفو عام شامل في نيسان عام ١٩٣٧ عن المشاركين في الثورة وفي مقدمتهم عبد الرحمن الشهبندر وسلطان باشا الأطرش. وكان استقبال الشهبندر في دمشق استقبالاً منقطع النظير. ثم شرع في زيارة أحياء دمشق وألقى فيها أربعين خطاباً في واحد وعشرين يوماً متتابعاً، لم يحص عليه المحصون فيها كلها لحنة واحدة ولم يجدوا فكرة واحدة معادة أو رأياً مكرراً. وكانت الحفلات والخطب تجري في البيوت الدمشقية القديمة، وغالباً في الليل.

دخل الشهبندر في صراع، يطول الحديث عنه، مع بعض قيادات الكتلة الوطنية، التي وصلت إلى (جزء من) السلطة بموجب معاهدة ١٩٣٦ بين فرنسا وسورية. وفي ضحى السادس من تموز ١٩٤٠ اغتيل الشهبندر غدراً في عيادته بدمشق. وقد كشف التحقيق عن الجناة المنفذين من الحلقة الدنيا إلا أنه لم يستطع (أويرغب) أن يصل إلى الجناة من الحلقة العليا وحتى المتوسطة.

لقد أثار هذا الاغتيال اضطراباً في النفوس وقلقاً في الخواطر وشغل الناس بتتبع أخبار اعتقال الجناة والمتهمين وبالمحاكمة التي نشأت عنه حيناً من الزمن. وتضاربت الآراء حول دوافع الاغتيال وهي ثلاثة:

- دوافع سياسية ناجمة عن الخصومة بين الشهبندر ومنافسيه في الكتلة الوطنية وتحديداً جميل مردم بك.
- رغبة السلطات الفرنسية في تصفية هذه الشخصية الوطنية المناهضة لها والصاق التهمة بأعداء الشهبندر السياسيين، أي برجال الكتلة الوطنية.
- الدافع الايديولوجي، أو بالأصح دافع أولئك النفر، الذين لم ترق لهم المنطلقات الفكرية التنويرية النهضوية الجريئة التي طرحها الشهبندر بصراحة وعزيمة لاتلين.

لقد مثّل الشهبندر فكريا يسار عصر النهضة أو بالأصح احدى تيارات ذلك اليسار النهضوي، الذي شرع يطرح آراءه في خضم عصر النهضة العربية منذ أواخر القرن التاسع عشر. وكان اغتيال الشهبندر على يد تلك الفئة المنغلقة المتزمتة بمثابة تحذير للمنادين بحرية الفكر

العـربي والـداعين إلى العقـلانيـة والعلمـانية والتنوير والسير بالمجتمع العربي خطوات إلى الأمام في ميدان التقدم الحضاري.

جاء في بيـان «جمـاعـة الاصـلاح الاجتمـاعي العـربي» بدمشق الصادر بعد اغتيال الشهبنـدر، «إذا صح أن التهـوّس الـديني ساعـد» على اغتيار الشهبندر «كان معنى ذلك أن العـالم العـربي يعيش في بؤرة من التقهقـر الاجتمـاعي وأن حريـة الفكـر في بلاد العـرب أصبحت في خطر، وأن كل مفكر لا يستطيع التفوه بما يعود على الحضارة العربية بالتقدم».

٥ ـ عبد الرحمن الكيالي (١٨٧٧ ـ ١٩٦٩)

ولد في حلب وهو ابن الشيخ عبد القادر طه الكيالي تخرج من المكتب السلطاني في حلب ونال شهادة م ط من الجامعة الاميركية في بيروت عام ١٩١٤.

انتخب نائبـاً عن حلب في ثلاث دورات: ١٩٢٨، ١٩٣٦، ١٩٤٣. شغـل وزارة العـدليـة والمعـارف والاشغال (١٩٣٦ ـ ١٩٣٨) في حكومة جميل مردم بك، وهي حكومة الكتلة الـوطنيـة، التي وقعت معـاهدة ١٩٣٦ مع الفرنسيين واستلمت جزءاً من السلطة كما تقلد منصب وزارة العـدل في ١٩ آب ١٩٤٣ في حكـومـة سعـد الله الجـابـري، وهي أول حكـومـة وطنيـة بعد الاستقلال والغاء الانتداب، وفي عهد وزارة فارس الخوري ١٤ تشرين الأول ١٩٤٤ تقلد حقيبتي وزارتي العدل والأشغال العامة وعهد إليه بشؤون الأوقاف والافتاء.

كما اشترك الكيالي بتمثيل سورية في منظمة الأمم المتحدة في دورة ايلول ١٩٤٨، وأسهم في الميـدان الاقتصـادي وكان نائباً لرئيس مجلس ادارة شركة الغزل والنسيج بحلب في الخمسينات. ورئيس جمعية العاديات في حلب وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق[٢٤].

ارتبـط اسم الـدكتـور عبد الرحمن الكيالي، مع عدد من الوطنيين، بالكتلة الوطنية، التي قادت النضـال الـوطني في الثـلاثينـات بعـد انتهـاء فتـرة الكفـاح الوطني المسلح عام ١٩٢٧. فقـد أخـذت ترتـسم في الأفق، بين سنتي ١٩٢٦ ـ ١٩٢٧ مع تراجـع الثـورة السـوريـة، معـالم تكتل سياسي جديد سيضم قسماً من أعضاء حزب الاستقلال وقسماً من

أعضاء حزب الشعب (دون رئيسه الطبيب الشهبندر) ممن لم يشاركوا في الثورة المسلحة ونتيجة اندماج هذين الحزبين ظهرت الكتلة الوطنية في أواخر العشرينات إلى عالم الوجود.

وقد لعبت الكتلة الوطنية الدور الرئيسي في الحياة السياسية في سورية بين عامي ١٩٢٨ ـ ١٩٤٥ وترأست النضال الوطني ضد الانتداب الفرنسي. وتجمعت حول الكتلة جماهير واسعة مستلهمة بطولات الثورة السورية وحاقدة على معاهدة سايكس بيكو وعلى السيطرة الفرنسية وأعمال المستشارين الفرنسيين.

كان الدكتور عبد الرحمن الكيالي من الأعضاء المؤسسين والبارزين في الكتلة الوطنية. فقد شارك مع عدد من الوطنيين أنصار الكفاح السلمي في عَقْدِ مؤتمر في بيروت في ١٩ تشرين الأول ١٩٢٧، درس بيان المفوض السامي الجديد بونسو الصادر في ٢٧ تموز ١٩٢٧. وقد كان هذا المؤتمر الذي سماه عبد الرحمن الكيالي. بـ «المؤتمر الوطني في بيروت»[٢٥] إيذاناً بميلاد الكتلة الوطنية ودعوة لإنهاء مرحلةِ الكفاح المسلح وبدء الكفاح السلمي الذي تزعمته الكتلة الوطنية.

بعد خمس سنوات مس عقد هذا المؤتمر التأم المؤتمر الوطني للكتلة في حمص في ٤ تشرين الثاني ١٩٣٢ وأقر القانون الأساسي للكتلة[٢٦]. وقد تألفت البنية الاجتماعية للأعضاء المؤسسين للكتلة الوطنية والموقعين على القانون الأساسي من ثلاث فئات:

- بورجوازية عاملة في التجارة والصناعة.
- اقطاعية ذات منحى وطني.
- فئات ذات ارتباط بالعلاقات الاقطاعية وتفكيرها من جهة وبالتطور البورجوازي من جهة أخرى. وهذا التشابك بين «اقطاعية متبرجزة» أو «بورجوازية ذات مصالح ومفاهيم اقطاعية» كان من السمات المميزة لقيادة الكتلة الوطنية.

كما شارك في المؤتمر وقاد الكتلة فيما بعد فئة من المثقفين المتأثرين بالفكر البورجوازي ومبادىء الثورة الفرنسية ومثلها. وتألف هؤلاء مس محامين وطبيبين هما: توفيق الشيشكلي من حماة وعبد الرحمن الكيالي من حلب، الذي يمكن اعتباره الشخصية البارزة الثالثة في حلب بعد ابراهيم هنانو وسعد الله الجابري.

نجح عبد الرحمن الكيالي في انتخابات الجمعية التأسيسية لعام ١٩٢٨ في عداد

قائمة الكتلة الوطنية. ولم يحالف الكتلة الوطنية ومنها الكيالي النجاح في انتخابات ١٩٣٢.

ألقى الكيالي في ١٩٣٢ أمام لجنة الانتدابات في جنيف بياناً رد فيه على بيان المفوض السامي. وقام بطبع هذا البيان في حلب سنة ١٩٣٣ تحت عنوان. «رد الكتلة الوطنية على بيان المفوض السامي للجمهورية الافرنسية في سوريا ولبنان»، حمل فيه الكيالي بجرأة على سياسة الانتداب الافرنسي وعلى أنصار الانتداب في الداخل ومنهم الشيخ تاج الدين الحسني قاضي دمشق(*).

على أثر توقيع معاهدة التحالف في ايلول ١٩٣٦ بين وفد الكتلة الوطنية إلى باريز ووزارة الخارجية الفرنسية، جرت الانتخابات النيابية في تشرين الثاني لعام ١٩٣٦ التي نجحت فيها قوائم الكتلة الوطنية في معظم المناطق، وكان عبد الرحمن الكيالي في عداد الناجحين نائباً عن حلب وتشكلت على الأثر وزارة اقتصرت على أعضاء «المكتب الدائم» للكتلة الوطنية وهم: جميل مردم بك للرئاسة والاقتصاد وسعد الله الجابري للداخلية والشؤون الخارجية وشكري القوتلي للمالية والدفاع وعبد الرحمن الكيالي للعدلية والمعارف.

وقد عاشت حكومة الكتلة الوطنية منذ تأسيسها إلى يوم زوالها في ١٨ شباط ١٩٣٩ في جملة تناقضات لم يكن من السهل عليها حلها.

بعد أن بقيت الكتلة الوطنية بعيدة عن السلطة من ربيع ١٩٣٩ إلى صيف ١٩٤٣ عادت إلى السلطة بعد نجاحها في الانتخابات النيابية في تموز ١٩٤٣. وكان عبد الرحمن

---

* - نقرأ في الصفحة ٨٥ من رد الكيالي الوصف التالي للشيخ تاج وأبيه المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين:

«الشيخ تاج هو ابن الشيخ بدر الدين الحسني الذي ذكر عنه جمال في مذكراته بأنه افتى بقتل قادة الحركة العربية أثناء الحرب الأولى. ومع تظاهره بالتقشف والعلم فإنه قبض ٣٠٠٠ ليرة بدعوى معاشات متراكمة له ولزاويته أخذها أيام حكومة ابنه من أوقاف المسلمين وهو يتقاضى ٢٥٠ ليرة سورية شهرياً من الوظائف التي هيأتها له حكومة ابنه. ويجتمع حوله مشايخ يأكلون أموال المسلمين ويقاومون كل تجدد واصلاح نافع ويثورون باسم الدين كلما ارادت الأمة أن تشق لها طريقاً لاصلاح أوقافها وأمورها الدنيوية والدينية».

الكيـالي بعـد سعـد الله الجابري على رأس قائمة الناجحين في حلب. وكما هو الحال في عام ١٩٣٦ تألفت في ١٩ آب ١٩٤٣ وزارة برئـاسـة سعد الله الجابري وضمت سبعة وزراء من ضمنهم عبد الرحمن الكيالي.

بعد انفراط عقد الكتلة الوطنية قام الكيالي مع عدد من الأعضاء السابقين في الكتلة بتأسيس الحزب الوطني في نيسان ١٩٤٧. وأصبح رئيساً لهذا الحزب فترة من الزمن. ولكن النجاح لم يحالفه في انتخابات ١٩٥٤(*). فانصرف إلى ميدان التأليف والكتابة عن تاريخ النضال الوطني والدعوة إلى أفكار عصر النهضة.

ألَّف الكيالي كراساً من ١٨ صفحة نشره في حلب عام ١٩٥٧ تحت عنوان: «رسالة عن الإمـام جعفـر الصـادق رضي الله عنـه». وقـام بتأليف كتـاب جيد تحت عنوان «شريعة حمـورابي: أقـدم الشـرائع العالمية» نشره في حلب عام ١٩٥٨. ونلاحظ في هذا الكتاب اهتمـام الكيـالي بالأوضـاع الاقتصـاديـة السائدة أيام حمورابي وإلقاء الأضواء على الحياة الاجتماعية ودور العبيد وأقر ذلك في صياغة قوانين حمورابي.

ألَّف الكيـالي كتاباً آخر تحت عنوان: «أضواء وآراء» نشره في حلب عام ١٩٥٩ تناول فيـه فيسيـولـوجيـا الوعي وفرويد ومذهب التحليل العقلي، الرؤيا، الجرائم، فكرة الالوهية وكيف نشأت. ولنقرأ ماكتبه في الصفحة ١٢١:

«ومع أن الاسلام دين العقل والبرهان فإن المسلمين في مصر وسوريا والعراق والهند وتـركيـا والعجم وفي غيـرهـا من الممـالـك الاسلامية لاتزال لهم عادات وعنعنات وطقوس يمارسونها كأنها من مقتضيات الاسلام وهي في الحقيقة خارجة عنه وعن تقاليده. ومن بقايا الوثنية القديمة ومن بقايا المسيحية واليهودية والقبطية والفينيقية التي كانت سائدة في البلاد التي فتحها الاسلام».

عالج الكيالي في كتابه أوضاع الإسلام وغيره من الديانات وقال عن الديانة المسيحية أنهـا «كـانت تؤمن في أول عهـدهـا وتطـور اعتقـادها بالاله الواحد» ثم تطورت «إلى القول بالتثليث». ويقول الكيالي «إن كل انسان يعتقد أن دينه على حق». وأشار إلى أن «اختلاف

---

* ـ لعـل فشـل الكيـالي دفعـه في إحـدى كتـاباته لنقل قول الامام علي: «إذا أقبلت الدنيا على امرىء البسوه محاسن غيره، وإذا أدبرت الدنيا عن أمرىء سلبوه محاسن نفسه».

العقـائـد سبب الثورات الدموية» . ولهذا فهويخاطب الطلاب والطالبات قائلاً : «إنكم ورثة الأجيال الماضية وآمال المستقبل الذهبية» ودعاهم إلى «مقاومة التفرقة والتعصب الطائفي والجنسي» .

وعلى الـرغم من اعتمـاد الكيـالي على التـاريـخ العربي الإسلامي واستمداد الأمثلة منه، إلا أنه يكثر في الوقت نفسه سوق الأمثلة والوقائع الكثيرة المستقاة من الغرب .

إن أهم عمـل قام به الكيـالي وأنجـزه في السنـوات الأخيـرة من حياته هو كتابة تاريخ الحـركـة الـوطنية السورية مستنداً على مايملك من ثروة وثائقية هامة من جهة ومعتمداً على ماتختـزنـه ذاكـرتـه من أحـداث شارك فيهـا مشـاركة فعلية . ويبدو واضحاً من هذا السِفر أن الـدكتـور عبـد الـرحمن الكيـالي كان سيـاسيـاً أكثـر منـه طبيباً . مُؤلّف الكيالي ضم أربعة مجلدات صدرت في حلب في أعـوام ١٩٥٨ ، ١٩٥٩ ، و١٩٦٠ تحت عنـوان : «المراحل في الانتداب الفرنسي ونضالنا الوطني» . بين عامي ١٩١٦ و١٩٣٩ . ولابد لكل من يؤرخ لسورية في مرحلة الاحتلال الفرنسي الاستعماري من الرجوع إلى هذا السفر الغني بالوثائق والغزير بالمعلومات والشروح المستندة إلى خبرة الكيالي الشخصية .

تبـدو الـروح القـوميـة العربية واضحة جياشة في كتابات الكيالي وفي مقدمتها كتاب «المـراحـل . . . » فقـد اختتم الـدكتـور عبـد الـرحمن الكيـالي «عضو اللجنة العليا للكتلة الوطنية» و«رئيس الحزب الوطني العام سابقاً» مقدمة كتابه بالعبارات التالية : «وكل ماأتمناه أن أكون قد وفقت لتقديم تاريخ صادق وصورة صحيحة عن جهادنا القومي ونضالنا الوطني» .

٦ ـ أمين رويحة (١٩٠١ ـ ١٩٨٤)

هو ابن الحـاج محمـود بن محمـد بن قاسم بن يحيى ، والأسـرة الحموية الأصل وقد نزح جده الأعلى يحيى رويحة من حماة إلى اللاذقية واستوطن فيها .

ولـد أمين رويحـة عام ١٩٠١ في الـلاذقيـة ودرس فيها الابتدائي والاعدادي ، وتعلم اللغة الفرنسية في مدرسة الفرير بدمشق ثم التحق بالمدرسة السلطانية لمدة سنة . سافر إلى ألمـانيـا سنـة ١٩١٦ ودرس الطب في جامعة برلين (همبولت) وتخرج منها ثم تخصص في

الجـراحـة، وعـاد إلى الـلاذقيـة عام ١٩٢٠ ولكن السلطـات الفـرنسية أجبرته على مغادرة اللاذقية بسبب نشاطه. فعاد إلى ألمانيا وعمل في مستشفياتها حتى أواخر عام ١٩٢٤.

منعه الفرنسيون من دخول سورية فذهب إلى مصر أواخر سنة ١٩٢٤ وافتتح عيادة في الاسكنـدريـة. وعنـدما اندلعت الثورة السورية عام ١٩٢٥، أغلق عيادته وحمل مااستطاع نقله منهـا من الأدوات الجـراحيـة «لمعـالجـة جرحى المجـاهـدين وقـام بفريضتي الجهاد والـواجب الانسـاني». وقـد وصل إلى غوطة دمشق عن طريق الجبل وشارك في الثورة. ثم عاد إلى مصـر بعـد انتهـاء الثـورة. ولكنـه لم يستطـع استئناف فتح عيادته فاضطر إلى قبول وظيفة رئيس أطباء مستشفى الرشيد في مصر.

أثنـاء وجـود رويحـة وعمله في مصر مرّ الملك فيصل الأول، ملك العراق، من مصر بطريقه إلى أوروبا، فطلب منه الملك الالتحاق في العراق والعمل هناك لأنهم بحاجة إليه. اعتبـر رويحـة أن العمـل في العـراق «واجب وطني» فسـافـر إلى بغداد واستلم ادارة مديرية الصحـة العسكـريـة. لم يقتصـر نشـاط رويحـة في بغداد على العمل الطبي بل تعداه إلى الاشتغال في القضايا العربية. وعندما اندلعت ثورة ١٩٣٦ في فلسطين آزرها رويحة بجمع الأمـوال والسـلاح والأدوات الطبيـة لارسـالهـا إلى ثوار فلسطين، حتى أن بيتـه تحـول إلى مستودع للسلاح.

لم يكن أمين رويحـة في أواخـر الثـلاثينـات على وفـاق مع نوري السعيد وحكومته. ولهذا وضعته تلك الحكومة تحت الاقامة الجبرية مدة طويلة. ثم تمكن أخيراً في أوائل عام ١٩٤٠ من السفـر في طائـرة خاصـة مع عائلتـه بحجـة معالجة ولده فيصل في مصر. ولكن نوري السعيـد بالاتفـاق مع البـريطـانيين أجبـروا الطـائـرة على الهبوط في احدى مطارات فلسطين. وهنـاك اعتقله الانكليـز في سجن عكـا ثم نفـوه إلى روديسيـا وبقي منفيـاً حتى السماح له بالعودة إلى سورية عام ١٩٤٧.

كانت علاقـات الـدكتور أمين رويحة وثيقة مع بعض قادة الكتلة الوطنية وبخاصة مع شكـري القـوتلي رئيس الجمهـوريـة من ١٩٤٣ - ١٩٤٩. وفي دمشق عين رويحـة مديـراً للمستشفى العسكري. ورشح نفسه عام ١٩٤٧ لانتخابات المجلس النيابي عن اللاذقية ففشل.

وعنـدمـا انـدلعت معـارك فلسطين عام ١٩٤٨ التحق بجيش الانقـاذ وقـام بواجبـه

الانســاني . ثم عاد إلى سوريــة وارتفعت وتيــرة نشاطه السياسي وبخاصة عندما أراد الضابط سامي الحناوي ومن ورائه قوى سياسية توحيد سورية مع العراق. وكان رويحة يرى في هذا التـوحيـد ضمـاً وخيـانة في الوقت نفسه لأن العراق مرتبط بمعاهدة استعمارية مع بريطانيا. وكـان رويحــة أحد مخططي انقلاب أديب الشيشكلي ضد الحناوي وحزب الشعب. وكان رويحة يظن، حسب حديثه مع الشيشكلي، أن الأخير سيعيد شكري القوتلي المخلوع عام ١٩٤٩ إلى سدة الـرئـاسـة. وعندما شعر رويحة أن الشيشكلي يمهد لترسيخ أقدامه «حاول رويحـة ازاحتـه من الطـريق» فاعتقـل وحـوكم وواجـه حكم الاعدام لولا تدخل شخصيات سورية وعربية فاطلق سراحه.

انتقل أمين رويحة عام ١٩٥٣ إلى السعودية وتولى ادارة صحة الجيش وأسس بأموال السعودية مستشفى حديثاً ضخماً فيها. ولكنه لم يستطع البقاء طويلاً في السعودية واصطدم ببعض الأمراء فاضطر إلى تقديم استقالته والعيش في لبنان. وهناك اشترى في حمانا أرضاً وأقام عليها مزرعة حديثة وسكناً مريحاً خاتماً حياة الاضطراب والتنقل والمغامرات والنضال الوطني غير المنظم والعفوي.

قبل أن يستقر المقام بأمين رويحة في لبنان لم ينشط كتابياً إلا في ترجمة تمثيلية هزلية من تأليف الكاتب الألماني شيللر، نشرتها بدمشق المطبعة الهاشمية عام ١٩٥٠. وبعد أن خلد إلى الهدوء والسكينة عام ١٩٥٣ بدأ ينشر سلسلة من الكتب الطبية المبسطة الموجهة إلى عامــة الشعب. ومعظم هذه الكتب أوبالأحـرى الكتيبـات من تأليفـه ولكنهـا مستمـدة بالطبـع من اللغـات الأوروبيـة إذ كان رويحـة يتقن العـربيـة والتركية والفرنسية والانكليزية والالمـانيـة، والقليـل منهـا متـرجم. وقـد أعيد طبع كتب رويحة أكثر من مرة بدليل رواجها وحاجة العامة إلى هذه الثقافة الطبية البسيطة. وفيما يلي أهم ما ألفه رويحة مع مكان الطبع وزمانه:

أخطار التمدن في التغذية: الأضرار الصحية الناجمة عنها بيروت ١٩٨٠. الاسعافات الأولية بيروت ١٩٦٤. أمـراض الأوعيـة الـدمـوية بيروت ١٩٧٤. أمراض الجهاز البولي بيروت ١٩٧٢. أمراض شعبية. الصـداع ـ السـل الـرئـوي ـ الأمراض الزهرية بيروت ١٩٧٧. التداوي بالأعشاب بيروت ١٩٧٧ التداوي بالايحاء الروحي ١٩٧٤. التداوي بلا دواء طبعة ثانية ١٩٧٢. التغذية والمشروبات الروحية الطبعة الثالثة ١٩٨٣. الجمال والرشاقة: أحدث وسائل فن التجميل وممارسته بطرق علمية سهلة ١٩٧١. الجيمناستيك

الصباحي شباب دائم ومرونة وصلابة بدون تاريخ. الحب والزواج ١٩٨٥. شباب في الشيخوخة ١٩٦٥. الغازات السامة أو السلاح الكيماوي بدون تاريخ. كيفية اكتشاف الهرمونات بدون تاريخ. المرأة في سن الاخصاب وسن اليأس ١٩٧٤. النباتيون ومنهجهم في التغذية بدون تاريخ. ولدي في حالة الصحة والمرض ١٩٧٤. داء السكري بدون تاريخ. الروماتزم بدون تاريخ. زوجتك هذا الكائن المجهول.

٧ ـ سامي طيارة

ولد في حمص عام ١٩٠٣ وحمل شهادة الكفاءة من حمص عام ١٩٢٠ ثم التحق بمكتب عنبر (التجهيز) عامي ١٩٢٢ ـ ١٩٢٣ وسجن في حوادث دمشق أثناء زيارة المستر كراين وقيام المظاهرات ضد الانتداب الفرنسي، وطرد بعد السجن من مكتب عنبر. ذهب إلى برلين بقصد الدراسة فلم يتمكن لاسباب خاصة فغادرها متوجهاً إلى فرنسا أواخر عام ١٩٢٣. وهناك نال شهادة العلوم الطبيعية سنة ١٩٢٦، والدكتوراه في الطب سنة ١٩٣١. وعمل في فرنسا كطبيب حتى سنة ١٩٣٣.

بعد عودته إلى حمص ترأس حركة عصبة العمل القومي المؤسسة عام ١٩٣٣ والداعية إلى الوحدة العربية الشاملة وإلى سيادة العرب واستقلالهم المطلقين. وعلى الرغم من وجود عناصر اقطاعية داخل العصبة إلا أن خطها العام عكس تفكير البورجوازية الصغيرة في الثلاثينات. وشارك طيارة بنشاط في اضرابات عام ١٩٣٦ فاعتقل فترة من الزمن.

رشح نفسه للنيابة عام ١٩٤٧ في «القائمة الشعبية» ضد الحزب الوطني الحاكم ففشل. ولم يتضمن بيان طيارة أموراً جوهرية. أما بيان قائمته فدعا إلى «التفاني في حفظ الاستقلال وتقوية الروابط الأخوية بين البلاد العربية بجميع الوسائل، ودعم الحكم الجمهوري الديمقراطي، وتطبيق الحريات العامة، ومحاربة النفعية ومكافحة الاستئثار والاستغلال» والمقصود بذلك حكم شكري القوتلي والحزب الوطني.

نجح نائباً عام ١٩٤٩ في الجمعية التأسيسية، التي وضعت دستور ١٩٥٠. وتقلد منصب وزير الصحة ووكالة وزارة الاشغال في وزارة خالد العظم (٢٧ / ٣ / ١٩٥١ ـ ١٩ /١٩٥١/٨). ثم تقلد وزارة المعارف في وزارة الزعيم فوزي سلو (١٩٥٢/٦/٩ ـ ١١ /١٩٥٣/٧) وفاز بالنيابة نائباً عن حمص في برلمان الشيشكلي (١٩٥٣ ـ ١٩٥٤).

اعتمد الدكتور سامي طيارة لترسيخ مواقعه السياسية على أمرين: العصبية العائلية، التي دعمته أثناء الانتخابات، مكانته الاجتماعية كطبيب يداوي الفقراء وكثير من الناس مجاناً، وكان له علاقة جيدة مع «زكرتية» الأحياء. وقد ذكر أحد الحماصنة المطلعين أن سامي طيارة كان «وجهه حامي» أي بشوشاً ويربح صوتاً انتخابياً كلما عالج مريضاً بلا مقابل، وهو يشبه في هذا المجال الدكتور وهيب الغانم في اللاذقية والدكتور عبد المجيد الرفاعي في طرابلس الشام. فالثلاثة وصلوا إلى قبة البرلمان من وراء العيادة والحكمة المجانية[٢٨].

٨ - حكمت الحكيم (١٨٩٢ - ١٩٥٨)

تضرب اسرته جذورها في أعماق تاريخ الطب العربي. ويروى أن الجد الأكبر للأسرة كان طبيباً للظاهر بيبرس. وتتفرع هذه الأسرة حسب رواية السيدة دعد حكمت الحكيم (في لقاء معها في ١٩/ ٣/ ١٩٩٤) في كل من بيروت واللاذقية وحلب وأدلب. وهكذا فإن والد حكمت مصطفى الحكيم ورث مهنة الطب العربي عن أبيه وكان على جانب من الثراء وله أملاك واسعة في قرية عين شيب في سهل الروج. ولهذا فإن مصطفى الحكيم ارسل ولديه حكمت وحلمي إلى استنبول لدراسة الطب الحديث.

ولد حكمت الحكيم في أدلب عام ١٨٩٢ وتلقى علومه الابتدائية في المدرسة الرشدية بأدلب والثانوية في المدرسة الاعدادية في حلب ثم يمم شطر استنبول ونال شهادة الدكتوراه في الطب منها واختص في الجراحة والتوليد. وفور وصوله إلى استنبول انضم عام ١٩٠٩ إلى المنتدى الأدبي في استنبول وهو تجمع سياسي للطلاب العرب في العاصمة العثمانية.

بعد تخرجه عُيّن طبيباً في ولاية أدنه وعلى أثر اعلان الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى اشترك فيها كطبيب وكانت له اتصالات مع عدد من الضباط الأتراك. وبعد انتهاء الحرب عاد إلى أدلب وافتتح عيادة فيها وقام، سراً، بمعالجة جرحى ثوار ابراهيم هنانو (١٩٢١) وحكم عليه إثر الثورة بالاعدام وسُجن فترة في سجن جزيرة أرواد.

عام ١٩٢٦ انتخب نائباً عن أدلب في مجلس دولة حلب وكان ضد فصل حلب عن

دمشق وناضل في هذا السبيل مع الوطنيين في حلب حتى تمت الوحدة بين دولتي حلب ودمشق. انضم إلى الكتلة الوطنية واسس لها فرعاً في أدلب وتجدد انتخابه نائباً عن أدلب في أدوار المجلس النيابي ١٩٣٦، ١٩٤٣، ١٩٤٧. وتقلد وزارة الأشغال العامة عام ١٩٤٥ في وزارة فارس الخوري، ووزارة الاقتصاد الوطني ١٩٤٦ - ١٩٤٧ في وزارة جميل مردم. كما ترأس مجلس النواب في سنة ١٩٤٨ بصفته نائباً لرئيس المجلس. واعتزل العمل السياسي اعتباراً من عام ١٩٤٩ وتوفي في ١١ آب ١٩٥٨.

جمع الدكتور حكمت الحكيم بين السياسة والطب. وكان يغلق عيادته في فترات اقامته بدمشق أثناء جلسات المجلس النيابي ويمارس مهنة الطب في بقية الأوقات. وقد مكنته مكانته الاجتماعية كطبيب بالإضافة إلى مكانة عائلته المثقفة وانتسابه إلى الكتلة الوطنية من الفوز بالنيابة ثلاث دورات متتالية.

ذكرت ابنته دعد أن والدها كان يمنع أفراد أسرته من استخدام سيارة الوزارة لاغراض شخصية. وكانت زوجة الدكتور والوزير حكمت الحكيم تستخدم وسائل النقل العام (الترامـوي) أثناء تنقلاتها في المدينة. وكذلك الحال بالنسبة لأولاده فهم يذهبون إلى المدارس كسائر أولاد المواطنين مستخدمين أرجلهم أو وسائط النقل العام.

كان حكمت الحكيم معتدلاً في أمور العلاقة بين الدين والدنيا. ورغم تدينه فإن بناته خرَجْنَ سافرات كسائر الجيل المثقف المتنور في ذلك الزمن المتميز بالنهوض الوطني والانطلاق النهضوي. وكانت الدعوة إلى تحرر المرأة وانطلاقها للعمل تتردد أصداؤها في الأوساط المثقفة المستنيرة الطامحة في بناء مجتمع متطور يسير مع ركب الحضارة الصاعدة[٢٩].

٩ - رياض رويحة

ولد عام ١٩١١ ودرس في المعهد الطبي العربي وتخرج منه عام ١٩٣٣ مختصاً في طب الأسنان. مارس مهنة طب الأسنان بين عامي ١٩٣٤ - ١٩٣٦، ثم ترك المهنة ليتفرغ مفتشاً عاماً للشباب الوطني في اللاذقية التابع للكتلة الوطنية. وأثناء عملية سلخ لواء اسكندرون أوفد مندوبا عن الحكومة السورية (حكومة الكتلة الوطنية) إلى اسكندرون

للمشاركة في لجنة الاستفتاء الدولية الموفدة من قبل عصبة الأمم لبحث مصير لواء اسكندرون. وبعد ذلك عُيّن رئيساً للحرس الوطني وأصدر في أواخر الأربعينات جريدة الجلاء. وفي هذه الفترة انضم إلى حزب الهيئة الشعبية في اللاذقية بعد أن أمضى فترة من الزمن عضواً في الكتلة الوطنية.

هذه المعلومات المستقاة عن الدكتور رياض رويحة منشورة في كتاب «من هم» الصادر عام ١٩٥٧. وفي التعريف بالدكتور رويحة إشارة إلى أن له مؤلفان تحت الطبع: الأول أسباب الحرب العالمية الثانية، والثاني لواء اسكندرون العربي. ولم نعثر في مكتبة الأسد بدمشق على أي أثر لهذين المؤلفين. ولكننا وجدنا للدكتور رياض رويحة مؤلفاً آخر بعنوان: «جبّار ثقيف الحجاج بن يوسف، مالىء الدنيا وشاغل الناس». وهو صادر عن دار الأندلس عام ١٩٥١ في بيروت. ويتحدث الدكتور رويحة بإيجابية عن «الحجاج العبقري الفذ والقائد الإداري الأديب». ويكتب الدكتور رويحة في المقدمة ان «خوف المؤرخين من بطش الحاكمين وتحاشياً من اغضاب النافذين»، «حالت بين مؤلفي العرب ومؤرخيهم وبين تدوين التاريخ تدويناً يزر بالمفاخر والعبقريات» فالمؤرخون اهملوا «تدوين ما يجب تدوينه».

* * *

سيرة مختصر للاطباء، الذين شاركوا بشكل ما في الثورة السورية (١٩٢٥ ـ ١٩٢٧)[٣٠]

ـ الدكتور حكمت المرادي

مواليد دمشق عام ١٨٩١ وخريج المعهد الطبي عام ١٩١٤. كان على رأس المحتجين ضد اعتقال الطبيب عبد الرحمن الشهبندر عام ١٩٢٢. وخوفاً من اعتقاله أيام الثورة هرب إلى حيفا ثم عاد إلى دمشق بعد انتهاء الثورة. كان أديباً نشر مقالات في مجلة الميزان التنويرية.

- **الدكتور مصطفى فخري**

ولد عام ١٨٨٦ وتخرج من المدرسة الطبية في استنبول. اتصل، أثناء الثورة السورية، بالسلطات التركية من أجل تزويد الثورة بالسلاح والعتاد. وكان يعالج المرضى والجرحى من الثوار بصورة سرية. وعندما علمت السلطة الفرنسية بأمره حكمت عليه بالإعدام عام ١٩٢٦ فهرب إلى حيفا وعاد إلى دمشق ام ١٩٣٧ على اثر اعلان العفو العام. وأثناء وجوده في فلسطين ألف كتاباً بعنوان «المحاضرات» وكان من أعضاء حزب الاستقلال.

- **الدكتور مدحت شيخ الأرض**

ولد في دمشق عام ١٩٠٠ وتخرج من معهد الطب العربي بدمشق عام ١٩٢٤. «اشترك بواجبه الانساني في معارك الغوطة. وحكم عليه بالاعدام فالتجأ إلى السعودية وصار طبيب الملك الخاص وتسلم منصب وزير الصحة فيها. وبعد وفاة الملك عبد العزيز عيّن سفيراً في اسبانيا.

- **الدكتور عبد الكريم العائدي**

ولد في دمشق عام ١٩٠٣. وشارك وهو طالب في معهد الطب العربي في الثورة السورية، وهرب أثناءها إلى عمان ثم عاد عام ١٩٢٧ وأتم دراسته وتخرج من معهد الطب. ولكنه انصرف بعدها إلى التعليم فتولى مديرية الكلية العلمية الوطنية من عام ١٩٢٩ - ١٩٣٩. وكان في الثلاثينات عضواً في عصبة العمل القومي. أواخر ١٩٣٩ نزح إلى الأردن ثم التجأ إلى بغداد. وبعد حركة رشيد عالي الكيلاني عام ١٩٤١ لاحقه الانكليز فعاد إلى سوريا. وتولى منصب قائمقام في العهد الوطني.

- **الدكتور توفيق بكر القصيباتي**

ولد في يافا عام ١٩٠١ تم استوطن مع والده في دمشق. دخل في زمن الحكومة الوطنية العربية (العهد الفيصلي) معهد الطب وتخرج منه. وكان في عداد البعثة الطبية لاسعاف الجرحى في معركة ميسلون. وأيام الثورة كان يداوي الثوار في بيوتهم خلسة

وشرع القصيباتي بالاتفاق مع أبي قاسم الصقال (صاحب مطبعة) في طبعة المنشورات الثورية ضد المستعمرين الفرنسيين. وكان مع عدد من أصدقائه يوزعونها سراً أويلصقونها على جدران المدينة. ولما اشتدت حدة المعارك أيام الثورة ترك عيادته في الميدان وانضم إلى المجاهدين واتخذ قرية الحتيتة مركزاً له. ثم سعى لتأسيس شبه مستشفى في احدى دور قرية الافتريس لمعالجة الجرحى. وكان بالاضافة إلى ذلك يحمل بندقيته على كتفه للمشاركة في المعارك. بعد انتهاء الثورة نزح مع رفاقه إلى الأردن ثم بغداد ومنها الرياض ولم يكن على صلة وطيدة بأركان الحكم فيها. وبعد العفوعن الثوار عاد إلى دمشق.

ـ الدكتور أحمد حمدي سكر

وهومن أسرة رفاعية الأصل تقيم في الصالحية بدمشق ولاتمت بصلة نسب إلى أسرة سكر المشهورة في الميدان. ولد عام ١٨٩١ وتخرج من معهد الطب بدمشق. كان يقوم عام ١٩٢٥ بإسعاف الجرحى من المجاهدين بشكل مستتر. وتجول سراً في الغوطة والتقى مع زميليه الطبيب أمين رويحة والطبيب توفيق القصيباتي. ثم تجرأ وذهب إلى الغوطة جهراً وعرف الفرنسيون أمر خروجه فتوارى عن الانظار. ثم نزح إلى عمان وأقام فيها سنة ونصف وعاد إلى دمشق بعد صدور العفو العام.

ـ أحمد كمال الحصني

ولد في دمشق عام ١٨٩٨ وتلقى دراسته الطبية في دمشق أولاً ثم أكملها في الاستانة سنة ١٩٢٠. اشترك في ثورة مصطفى كمال أتاتورك برتبة رئيس في الجيش التركي. عاد إلى دمشق عام ١٩٢٣ وبعد نشوب الثورة التحق بها وعالج الجرحى والمرضى في مركز زبدين بالغوطة. لمدة شهرين ثم انسحب وسافر إلى مكة المكرمة وعيّن طبيباً جراحاً فيها. عاد إلى دمشق بعد العفوعام ١٩٣٧ وعيّن طبيباً في قيادة الدرك.

ـ محمود علي الشواف (١٩٠٢ ـ ١٩٥٤)

أسرته نجدية الأصل استوطنت مدينة حماة. تلقى دراسته في كلية الاتحاد الوطني بحمص وتخرج من معهد الطب بدمشق. شارك في الثورة السورية والتحق في السويداء

بمـركـز مختص لمعـالجة الجرحى . ثم التجأ إلى الاردن وانضم إلى جيش الملك علي في جدة وحضر حصار جدة سنة ١٩٢٤ . وبعد استسلام جدة انضم إلى السعوديين وامسى من أنصارهم .

ـ الدكتور سعيد عودة (١٨٨٨ ـ ١٩٧٤)

ولـد في دومـا وتخـرج من معهـد الطب في بيـروت . وتنقل طبيباً في قطعات الجيش العثمـاني المـرابطـة في تبـوك والمـدينـة المنـورة ودمشق . ولمـا احتـل الجيش الانكليزي فلسطين عام ١٩٢٨ كان في عداد الأسـرى فعين طبيبـاً لمـرضى الأسـرى . وبعـد اطـلاق سراحه شارك في الحركة الوطنية أيام الملك فيصل . وكانت له فيما بعد مشاركة واضحة في الثورة السورية . وقد نهب المستعمرون الفرنسيون داره في دوما ثم أحرقوها بسبب مساعدته للثـوار . وتم اعتقـالـه وسجنـه في قلعـة دمشق حيث حكم عليـه بالإعـدام . لكنه خرج من السجن بغلطـة هي تشـابـه اسمـه مع اسم (سعيد عورة) فأسرع بالخروج من السجن وبقي سبعـة أشهـر مختبئـاً في حي الصـالحيـة بدمشق . وبعـد أن تمكن من اجتيـاز الحـدود إلى فلسطين انتقـل إلى مصـر ومنهـا إلى المملكـة العـربيـة السعودية حيث عمل طبيباً لفترة من الزمن . ثم ذهب إلى سويسرا ومنها إلى حيفا . فالقى عليه الانكليز القبض بتهمة الاشتراك في الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦ . وبعد اطلاق سراحه عاد إلى وطنه سورية على أثر صدور قانون العفو العام .

نشـط الـدكتور سعيد عودة في دوما في الميادين الوطنية والاجتماعية . وبعد أن دخل مرحلة الشيخوخة أخذ يهتم بالثروات المعدنية في سورية وشكل جمعية لاكتشافها .

ـ الدكتور توفيق عز الدين الحلبي (١٩١٢ ـ ١٩٨١)

لم يشـارك توفيق عز الـدين في الثـورة بسبب صغر سنه فهو من مواليد ١٩١٢ ، ولكنه «بفضل» الثورة وما اعقبها أصبح طبيباً . كان والده محمد عز الدين الحلبي من أقطاب الثورة البارزين في جبل العرب . وعندما تراجعت الثورة والتجأ المجاهدون أواخر عام ١٩٢٦ إلى الأردن . ومن ثمّ «النبك» في وادي السرحان في السعودية ، كان محمد عز الدين الحلبي في جملة هؤلاء . وقد سعى الوالد إلى تعليم ابنه الوحيد ، فأعيد الفتى إلى سورية حيث تلقى

تعليمه الأولي في «مكتب عنبر» بدمشق. ثم تابع دراسته في «روضة المعارف» في القدس بفضل معونة جهات وطنية تبنت تعليم أبناء الثوار، الذين غادروا سورية خوفاً من بطش المستعمرين. وبعد حصوله على الماتريك (الشهادة الثانوية) انتسب إلى كلية الطب في الجامعة الأميركية وتخرج منها.

زاول الدكتور توفيق عز الدين الحلبي مهنة الطب في السويداء وهو أول طبيب من أبناء جبل العرب. وعندما نشبت ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق عام ١٩٤١ التحق بتلك الثورة «مجاهداً وطبيباً» حيث جُرح في تلك الثورة، وكانت تستهويه فكرة «الطبيب المجاهد»، التي أخذها عن الدكتور عبد الرحمن الشهبندر صديق والده ومن قادة الثورة السورية.

وبعدأن عاد إلى السويداء عيّنته القيادة الفرنسية طبيباً لفرقة الفرسان في الجبل بالنظر لحاجتها لأطباء في هذا المركز. في تلك الأثناء كان الدكتور توفيق عز الدين على اتصال بشكري القوتلي أحد قادة الكتلة الوطنية ورئيس الجمهورية العربية في انتخابات عام ١٩٤٣.

كان الدكتور توفيق عز الدين عضواً في منظمة سرية عسكرية في الجبل كانت تخطط للانتفاض على الفرنسيين. وكانت أكثر اجتماعات هذه المنظمة تُعقد في بيته. وفعلاً قامت هذه المنظمة بعد اجتماع عقدته في بيت الدكتور توفيق بحركة عسكرية في صباح يوم ٢٩ أيار ١٩٤٥ وتمكنت من اتقال ٣٣ ضابطاً فرنسياً والاستيلاء على الثكنة العسكرية ورفع العلم السوري فوق الثكنة.

تابع الدكتور توفيق دراسته العالية في لندن حيث اختص بالأمراض الداخلية وأمراض حوض المتوسط وكانت عيادته في السويداء ملتقى للوطنيين. ويذكر الاستاذ توفيق عبيدان الدكتور توفيق عز الدين كان يعطي في ثانوية السويداء الوحيدة آنذاك دروساً في المواد العلمية بسبب قلة المدرسين المختصين. ولم يكن هدفه «التعليم فقط بل من أجل توطيد العلاقة مع أبناء الجيل الجديد وغرس الأفكار القومية العربية في وسط ذلك الجبل».

حواشي الفصل الثالث

١ - انظر النص الحرفي لصك الانتداب في : «العياشي غالب» : «الايضاحات السياسية وأسرار الانتداب الافرنسي في سورية» - بيروت ١٩٥٥ ، ص ١٧٠ - ١٧٥ .

٢ - راجع الشهابي مصطفى : «محاضرات الاستعمار» معهد الدراسات العربية العليا. القاهرة ١٩٧٧ .

٣ - راجع : حنا عبد الله : «الحركة العمالية في سورية ولبنان» (١٩٠٠ - ١٩٤٥)، دمشق ١٩٧٣ ، الباب الخامس ص ٢٠٣ - ٢٦٤ .

٤ - راجع : حنا عبد الله : «القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سورية ولبنان» (١٩٢٠ - ١٩٤٥)، القسم الثاني ، بيروت ١٩٧٨ ص ٤٠٩ - ٤٢٧ .

٥ - الجمعيات والأحزاب والهيئات التي وقعت الاحتجاج على الانتداب هي التالية : الاتحاد السوري ، الاستقلال العربي ، جمعية النهضة الأدبية ، العهد السوري ، العهد العراقي ، المؤتمر السوري ، جمعية النهضة الفلسطينية ، الجمعية البقاعية ، الشبيبة البيروتية ، التعاون الخيري ، الاسعاف الخيري ، جمعية الأطباء ، جمعية الصيادلة ، جمعية المحامين ، النداء الخيري ، جمعية المعلمين ، جمعية طلاب المدارس ، جمعية الإخاء العلوية ، حريجي المدارس العالية ، النادي التجاري ، الجمعية الزراعية السورية ، النقابة الصحافية ، الحرف والنقابات ، جمعية نهضة الطباعة العربية . نقلاً عن «المنار» القاهرية الجزء ٥ المجلد ٢١ في ٢٦ آب ١٩١٩ ، ص ٢٥٠ .

٦ - أدهم آل الجندي «تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب» دمشق ١٩٦٠ . ص ٢٦٠ - ٢٦٢ .

٧ ـ الحكيم حسن: «عبد الرحمن الشهبندر، حياته وجهاده» بيروت ١٩٨٥، ص ١٣٥.
٨ ـ أدهم آل الجندي . . .
٩ ـ السفرجلاني محي الدين: «تاريخ الثورة السورية». دمشق ١٩٦٠ ص ٦١٦ ـ ٦١٨.
١٠ ـ المصدر نفسه، ص ٦١٧.
١١ ـ المصدر نفسه.
١٢ ـ أدهم آل الجندي . . . ص ٢٧٧.
١٣ ـ السبعاوي سليمان محمود: «تاريخ النضال الشعبي في الاقليم السوري» دمشق بلا تاريخ ص ٥٥.
١٤ ـ سلامة فائز: «اعلام العرب في السياسة والأدب» جزء ٢ دمشق ١٩٣٦، ص ٧ ـ ٩.
١٥ ـ المصدر نفسه، ص ٩.
١٦ ـ حنا عبد الله: «من الاتجاهات الفكرية في سورية ولبنان في النصف الأول من القرن العشرين» دمشق ١٩٨٠، ص ٨٨ ـ ١٩١.
١٧ ـ مقابلة مع الاستاذ درويش العلواني (الحموي) في دمشق في ٢٨/ ٣/ ١٩٦٩.
١٨ ـ سلامة . . . ص ٩.
١٩ ـ اشرفي منير، اشرفي نذير: «سورية المستقلة». حلب ١٩٣٦، ص ٨٤٨
٢٠ ـ «الكتاب الأحمر، سوريا المجاهدة في سبيل الاستقلال، حوادث الأحزاب مفصلاً من ١٩ كانون الثاني إلى ٨ آذار ١٩٣٦» جمع وترتيب فريد شورى ص ١١٦.
٢١ ـ جاء في عريضة الشيشكلي «لقد جعلت البلاد السورية الواحدة عدة دول وجعل لها عدة حكومات وأضيف فيها مستشارون (فرنسيون ع . ح) أصليون وفرعيون . . وأما الدستور فقد مزق وأما المجلس النيابي فقد عطل وأصبح طرح الضرائب وصرف موارد الدولة منوطة بالحكومة . . . وأجما النظم الجمركية فقد قضت على البقية الباقية من ثروة الأمة . . إذ بدأت بإضراب المتاجر وقيام المظاهرات السلمية التي قوبلت بقوى الشرطة والدرك والجيش. إن السلطة كانت بغنى أن توقع بالأمة هذه الصدمات التي/لايمكن التآلف بينها وبين روح الثورة الفرنسية التي كانت أول صيحة دوت في تحرير الأمة . . . ومن مصلحة فرنسا المادية والأدبية أن تجنح إلى المسالمة والتفاهم لأنها جاءت للإرشاد لا للإبادة والهدم . . .» وفي الختام طلب الشيشكلي رفع كتابه إلى وزارة الداخلية وعصبة الأمم.
٢٢ ـ المصدر نفسه، ص ١٢٥.

٢٣ ـ قمنـا بتلخيص مايتعلق بالشهبنـدر من (كتـابنـا) : حنـا عبـد الله «عبد الرحمن الشهبندر علم نهضوي ورجل الوطنية والتحرر الفكري» دمشق دار الأهالي ١٩٨٩ .

٢٤ ـ «من هم في العالم العربي» سورية ١٩٥٧ ، الجزء الأول ، ص ٥٤٥ .

٢٥ ـ الكيـالي عبـد الـرحمن : «المـراحـل في الانتـداب الفـرنسي ونضالنا الوطني» ج ١ ، حلب ١٩٥٨ ، ص ١٥١ .

٢٦ ـ المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٨٤ .

٢٧ ـ اعتمدنا في الكتابة عن رويحة على مصدرين :

ـ أدهم آل الجندي : «تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب ، دمشق ١٩٦٠» .

ـ جانودي صديق : «سوريا في عهد الانتقال» . اللاذقية ١٩٣٧ . ص ٦٢ ـ ٦٤ .

٢٨ ـ اعتمدنا في الكتابة عن طيارة على ثلاثة مصادر :

ـ «من هم في العالم العربي» ج١ ، سورية ١٩٥٧ ، ص ٣٩١ .

ـ كتاب دليل الناخبين وعنوان المرشحين ، ذكرى انتخابات ١٩٤٧ . تأليف اسامة الأتاسي ، حمص ١٩٤٨ ، ص ٣٥ ـ ٣٦ .

ـ عدد من السياسيين الحماصنة .

٢٩ ـ اعتمدنا في الكتابة عن حكمت الحكيم على مصدرين :

ـ «من هم في العالم العربي» ج١ ، سورية ١٩٥٧ .

ـ لقاء في ٢٥ / ٣ / ١٩٩٤ مع السيدة دعد حكيم ابنة حكمت ومديرة مركز الوثائق التاريخية بدمشق .

٣٠ ـ اعتمـدنـا في الكتـابة عن الأطباء على : أدهم آل الجندي «تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب» دمشق ١٩٦٠ .

الفصل الرابع

العوامل المؤثرة في نشاط الأطباء وغيرهم من الفئات

حتى منتصف القرن التاسع عشر كانت الايديولوجية الدينية الصوفية هي السائدة في المشرق العربي. وكان عدد من كبار المتصوفة، الذين ظهروا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر قد تركوا أثراً واضحاً في أقطار المشرق العربي وغيره من البلدان الاسلامية. ولاتزال أصداء أقطاب الصوفية وكراماتهم تتردد حتى الآن في الأوساط المتأثرة بالصوفية وطرقها.

وقد أدى التخلف الاقتصادي والركود الفكري إلى قيام رجال الثقافة المتخلفين بالالتجاء إلى الجوانب السلبية والرجعية والمتزمتة من التراث والاعتماد عليها لتبرير الاستثمار الاقطاعي العثماني وتخدير العامة وصرفها عن النضال الثوري ضد مستثمريها. ومع أن الصوفية كانت في كثير من الأحيان احتجاجاً على النظام الاقطاعي الشرقي القائم، إلا أنها أخذت تتحول في كثير من الحالات إلى أداة في يد هذا النظام لعرقلة التطور وبقاء التخلف والتحجر سائدين.

وقد برز الدور السلبي للطرق الصوفية واضحاً للعيان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مع ظهور حركة النهضة العربية، إذ وقفت الطرق الصوفية في بلاد الشام ومابين النهرين في مواجهة مكشوفة مع حركة التنوير.

في تلك الفترة ـ في منتصف القرن التاسع عشر ـ أخذ الصراع يشتد بين القديم المهتم بتوافه الأمور والمعتقد بالخرافات والأساطير وبين الجديد الساعي إلى إحياء التراث وإلى الاقتباس من الحضارة البورجوازية الناهضة في أوروبا، ومع بداية تكون البورجوازية كطبقة وبفضل الاتصال بأوروبا الرأسمالية أخذت الافكار البورجوازية بالانتشار المحدود في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

ونتيجة لجملة عوامل داخلية وخارجية ظهرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين، إلى جانب الايديولوجية الصوفية ايديولوجية عصر النهضة أو التنوير ذات الأبعاد البورجوازية. وهذه الايديولوجية تشعبت إلى فرعين:

- حركة التجديد الاسلامي.
- التيار العلماني الليبرالي.

في هذه الأجواء بدأ تكوّن الجيل الأول من الأطباء، الذي برز من بين صفوفه شبلي شميل وصلاح الدين القاسمي وعبد الرحمن الشهبندر، الذين كانوا دعامة رئيسية من دعائم القوى التي وضعت أسس النهضة العربية في ذلك الزمن. وإلى جانب هؤلاء برز عدد من الأطباء لم يولوا اهتماماً للقضايا الفكرية شأن السابقين بل صرفوا جهودهم في الميدان السياسي البحت وشاركوا في الحركة القومية الناشئة إلى جانب السابقين. ويأتي في طليعة هؤلاء أحمد قدري وعزة الجندي وعيرهما.

ولكن حركة النهضة العربية، التي شارك فيها بنشاط عدد محدود من فئات المجتمع، ومنهم الأطباء، اصطدمت منذ قيامها بواقعتين بارزتين:

- الواقعة الأولى تكمن في تزامن نمو العلاقات الرأسمالية داخلياً مع الغزو الاستعماري، الذي عرقل هذه العلاقات عن طريق مشاريع الرأسمال الأجنبي ودمر عملية التطور الرأسمالي ذاتياً، بسبب سيطرته على السوق الداخلية واحضاعها لآلية تطوره في الاستثمار.
- الواقعة الثانية تجلت في بطء وتيرة تطور العلاقات الرأسمالية ـ الهشة أصلاً والتابعة للغرب الرأسمالي ـ وهيمنة العلاقات الاقطاعية، التي رسخت أقدامها بشكل جديد بفضل قانون الأراضي العثماني لعام ١٨٥٨.

فحركة النهضة العربية ظهرت في فترة الانتقال من شكل للاقطاعية العثمانية

(التيمـار، الالتـزام، المـالكانة) إلى شكل آخر عبّر عنه «قانون الأراضي» لعام ١٨٥٨ . وقد جعـل ذلـك القـانون تطور العلاقات الاقطاعية الجديدة في حضن نمو الرأسمالية الهامشية والتابعة للغرب الرأسمالي ممكناً بصياغة قواعد الملكية الاقطاعية الجديدة وفق مصطلحات اسلامية .

ادى انهيـار الـدولـة العثمـانيـة القـائمـة على مبـدأ احتكـار الخـلافة في بني عثمان واستغـلال شعـور المؤمنين الـديني ، إلى تحـريـر الجماهير الواسعة من كابوس الاستسلام والعبـوديـة للحكم العثمـاني ونظامه المتخلف . وقد ادى هذا الانهيار إلى مشاركة قطاعات هامـة من الشعب ، كانت تقف فيمـا مضى على الحيـاد أو تعـادي الحـركة القومية العربية . ولكن القضـاء على الـدولـة العثمانية وانتصار الحلفاء لم يؤد إلى الاستقلال العربي بل قاد إلى استبدال النير الاقطاعي العثماني بالنيرين الاستعماريين البريطاني والفرنسي .

ومـع هذا فإن زوال الحكم العثمـاني الاقطـاعي حرر قوى اجتمـاعيـة واسعة مضلله بشعـارات «الخـلافـة» العثمـانيـة ونشّط الحركة الجماهيرية ، التي أخذت تشارك في حركة الكفـاح ضد الاستعمـار . واتخـذ هذا الكفـاح في كثيـر من الأحيـان مظهـراً دينيـاً معـاديـاً للمستعمرين «الكفار» .

وهـذا الـدافـع كان واضحـاً لدى عدد من الأطبـاء الـذين شاركـوا ، بصـورة ظاهرة أو مستتـرة ، في تأييـد الكفـاح الـوطني المسلح . كمـا كان لهم دور بارز في النضـال الـوطني السيـاسي السلمي بعـد عام ١٩٢٧ . وقـد ذكـرنا أسماء بعض من شارك في النضال الوطني بفضل دوافع دينية أو قومية أو ثمرة اندماج الدافعين معاً . ومن هؤلاء عبد الرحمن الشهبندر وعبد الرحمن الكيالي وتوفيق الشيشكلي وغيرهم .

ونـلاحـظ أن بروز العـامـل الـديني (الاسـلامي) كدافـع للنضـال ضد الاحتـلال الاستعمـاري (الافـرنسي) لم يؤد إلى نمـو أفكـار الجـامعة الاسلامية بل إلى تراجعها بعد انهيـار دولـة الخـلافـة العثمـانيـة وانتعـاش الأفكـار القـوميـة ذات المحتـوى البـورجوازي والعلمـاني ، التي احتلت مكـانـاً بارزاً في الحيـاة السياسية . كما أخذت الأفكار الاشتراكية تشق طريقهـا (بـاسم الطبقـة العـاملة ، التي كانت في مرحلة التكوين) بفضل مجموعة من مثقفي الفئات الوسطى .

تميـزت مرحلة الاستقـلال الـوطني (بعد ١٩٤٦) باستمرار النضال الوطني وتصاعده

للدفاع عن الاستقلال واحتدام الصراع الاجتماعي وبروزه على سطح الأحداث من جهة أخرى. وفي هذه المرحلة استعادت التيارات الدينية انفاسها ولكنها بقيت من حيث القوة والتأثير وراء التيارات القومية، التي احتلت مكان الصدارة في تلك الفترة.

ومن منظار بحثنا فإن الجامعة السورية بدمشق اتسمت في هذه المرحلة بتخريج مجموعات من الأطباء البعثيين، الذين برزوا بصورة جلية في الستينات. كما تخرجت مجموعة أقل عدداً ذات اتجاه شيوعي أوماركسي. أما الأطباء ذوي الاتجاه الديني السلفي الاسلامي فلم يكونوا الكثرة، التي نشهدها هذه الأيام أي في الثمانينات والتسعينات. وكانت هذه المجموعة المتدينة غير منظمة إلا في حدود ضيقة في تنظيم الأخوان المسلمين.

بعد أن استنزف قانون الاصلاح الزراعي أغراضه ومرت مرحلة التأميمات بايجابياتها وسلبياتها بدأت مرحلة مايسمى بـ«الانفتاح»، التي تزامنت مع التهافت على أنماط الاستهلاك وازدياد شأن «البترودولار». وفي هذه الأثناء قويت شكيمة التيارات الدينية في السبعينات ومـاتلاها، مخلفة وراءها التيارات القومية والليبرالية والماركسية. ويعود نمو التيارات الدينية في السبعينات والثمانينات، وهو مايطلق عليه تعبير «الصحوة الدينية» إلى، عدد من العوامل التراثية والخارجية والداخلية.

سنستعرض فيما يلي أهم العوامل الاقتصادية - الاجتماعية، التي قادت في المشرق العرب إلى صعود التيارات الدينية وظهور تيارات جديدة متباينة الآراء والمشارب وحتى الأهداف الاجتماعية مركزين الضوء على العوامل المؤثرة في تكوين الأطباء ونشاطهم في الحقل العام. وهذه العوامل هي:

١ - استمرار بقايا العلاقات الاقطاعية في عدد من المناطق العربية. وبالقابل لاتزال الايديولوجيات ماقبل الرأسمالية تحتل مكاناً بارزاً في تفكير وسلوك الجماعات العربية. ولايشذ العدد الأكبر من الأطباء عن هذه الظاهرة.

٢ - وجود الأنماط الحرفية والفكر «الدكنجي» المولِّد لفئات ذات وعي اجتماعي متخلف. ويلاحظ أن قسماً لابأس به من خريجي كليات الطب هم ثمرة هذا الوعي.

٣ - أزمة التطور الرأسمالي العربي الهش التابع للسوق الرأسمالية العالمية الاحتكارية، والذي يقدم الثروة على أطباق من ذهب للمتسكعين والطفيليين ويحرمها عن الفئات

المنتجة. وقد أثّرت هذه الجائحة على عدد من الأطباء الأثرياء، الذين دخلوا ميدان التجارة والمضاربات والصفقات مهملين شؤون مهنتهم باحثين عن الربح السريع. وليس لدينا أرقام عن عدد هؤلاء أو نسبتهم ولكنهم موجودون وهم احدى ثمار الجائحات الطفيلية الملتهمة للأخضر واليابس.

٤ - أزمة التناقض بين قاعدة رأسمالية هشة وتابعة للغرب الاستعماري وبين غطائها الفكري الاقطاعي والحرفي مع مخلفاته الصوفية. ولا نستطيع فيما يتعلق بالأطباء، تقدير مدى هذا التناقض - وهو في الواقع توافق - بين الأخذ من الغرب المظاهر البراقة من «حضارته». والعودة إلى الماضي والتمسك بأهدابه وبأمور جاوزها الزمن وغير متوافقة مع التطور. وليس من السهل دراسة هذه الظاهرة لدى الأطباء ولكن وجودها البارز في المجتمع يجعلها تخيم بظلالها على مجموعات معينة من الأطباء. والملاحظ بصورة جلية التناقض الحاصل في أفكار وسلوك مجموعات من الأطباء تعتمد على أحدث منجزات العلوم الطبية وتعيش في أجواء الغيبيات وعوالم ما وراء الطبيعة.

٥ - ضعف تبلور البنية الطبقية الرأسمالية التي جاوز عمرها قرناً من الزمن، وعجزها عن القيام بما حققته البورجوازية الأوروبية في عصر شبابها من تكريس العقلانية والعلمانية والليبرالية والتصنيع. ومع ذلك فإن حركة النهضة العربية في أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين انجبت، كما رأينا، مجموعة من الأطباء اسهموا في دفع عجلة النهضة. أما الآن وبعد التقهقر الحاصل في الحركة العربية بعامة لانسمع، إلا ماندر، بأسماء أطباء لامعين يسهمون في الحقل العام أو الحياة السياسية. ومايتردد من أسماءهم بقايا حصيلة المرحلة السابعة مرحلة ماقبل تبلور أنماط الاستهلاك ومارافقها ونتج عنها من ظواهر.

٦ - تراجع عملية تكون طبقة عاملة برزت بعض سماتها في منتصف هذا القرن ثم مالبثت أن تراجعت أو اختفت (أي السمات) تحت وطأة عوامل كثيرة. وقد أدى عدم تبلور طبقة (أو طبقات) عاملة عربية واحتلالها مكاناً مرموقاً في العملية التاريخية إلى توجيه ضربة لفكر اليسار الماركسي، الذي أخذت بعض أجنحته تنتقد «النظرية» او تبحث عن تحليلات لتبرير هذه الظاهرة. وفي الوقت نفسه سعى عدد من مفكري اليسار

الماركسي لاكتشاف السبب بالرجوع إلى عصر النهضة العربية (ذي المشارب البورجوازية) لفهم عملية تطور المجتمعات العربية أو تعثرها والوقوف في وجه التيارات اللانهضوية، التي ترفض العقلانية والعلمانية والمعاصرة وكل ماله صلة بالتقدم والتطور.

وهذه الظاهرة دفعت اكثرية الأطباء ذوي التفكير الماركسي إلى «ترك» العمل السياسي أو الاهتمام بالأمور العامة والانغماس في العمل المهني والتقوقع وراء جدران البيت والعيادة وهمومهما.

٧ - تراجع (بل اختفاء) فئات كبيرة من البورجوازية الوطنية عن خطها السابق المتّسم بازدواجية تناهض الاستعمار ورأسماليته الغازية من جهة وتساومه من جهة أخرى. وإلى جانب خوف هذه البورجوازية من التأميم في أوائل الستينات وانكفائها فكرياً إلى الوراء بعيداً عن الليبرالية والعلمانية باتجاه التيارات الدينية، أخذت تشعر من جهة أخرى بأنها جزء من السوق الرأسمالية العالمية لايمكنها الاستقلال عنه وانشاء اقتصادها الوطني المستقل في ظروف هيمنة الشركات المتعددة الجنسية والعابرة للقارات وللجمهوريات والممالك والسلطنات. ويلاحظ أن قِيَم واخلاق البورجوازية الوطنية، وبخاصة الصناعية منها، القائمة على احترام العمل والجهد راحت تتغير بعد التأميمات والاصلاح الزراعي في الستينات باتجاه العمل الطفيلي والفكر المنغلق المتزمت، وكان لهذه الظاهرة، ولايزال، تأثيرها على الأطباء المتحدرين من هذه الفئة. والسائرين في طريق البرجزة.

٨ - تراجع أقسام واسعة من البورجوازية الصغيرة عن مواقعها السابقة (في الخمسينات وماقبلها) المفعمة بالمشاعر الوطنية والقومية حيث قامت هذه البورجوازية بدور بارز في حركة النضال الوطني والجماهيري. وبعد فشل «التجربة الاشتراكية»، التي كانت من صنع يديها، وهزيمة ١٩٦٧ أخذت بعض شرائح البورجوازية الصغية تُغيّر مواقعها، ليس فقط، الاقتصادية والسياسية، بل الفكرية باتجاه الانغلاق والتقوقع والابتعاد عن المشكلات الوطنية والقومية وحتى عدم الاكتراث بها. لقد جرت في صفوف العديد من شرائح البورجوازية الصغيرة عملية انتقال سريعة أحياناً، من اليسار باتجاه اليمين، ومن العلمانية الى نقيضها ومن العقلانية والفكر المنفتح إلى فكر غيبي

أو عثملي مملوكي أو فكر «بتروولاري» استهلاكي من نوع يتلاءم مع التقنية المستوردة.

هذه الظـواهـر السلبيـة التي غزت أقسام من البورجوازية الصغيرة كان لها أيضاً بصمـاتهـا الـواضحـة في مجمـوعات من الأطباء تحدرت من البورجوازية الصغيرة أو تأثرت بهذه السلبيات تأثر سائر الفئات الواقعة تحت ضربات أنماط الاستهلاك القادم من الغرب الاستعماري.

٩ ـ ظهـور بورجـوازيـة ـ أو بالأصـح فئـات ـ طفيليـة وبيـروقـراطيـة دات جنـاحين مدني وعسكـري تدعمت مواقعهـا بفضـل ماجنتـه من عوائـد النفـط ومن استنـزاف مجهود الجمـاهيـر المنتجـة. وقـد رافق ذلك اتساع الهوة بين الفقراء والاغنياء وتراجع اعداد ودور الفئات الوسطى.

١٠ ـ إن تراجع الفئات الوسطى وتقلص دوائرها الاجتماعية يؤدي إلى أمرين:

- الأول صعـود اعـداد قليلة منهـا نحـو الأعلى لتحتـل مركـزاً في دائرة العلاقات الطفيلية والبيروقراطية ونادراً ماتدخل دائرة عملية الانتاج الصناعي.
- الثاني الهبوط نحو الأسفل إلى دوائر العمل الطفيلي أو المهمش أو غير المنتج. بمعنى أن الفئـات الـوسطى التي تهبـط إلى الأدنى لاتتحـول في أكثـريتهـا إلى قوى منتجـة (عمـاليـة، فلاحيـة، حرفيـة، مثقفـة تبـدع فكـراً) بل تغـرق في الأعمـال غير المنتجة بمختلف أنواعها. ويتحول قسم منها إلى فئات رثة أو مهمشة.

هذه الظـواهـر مجتمعـة أو منفـردة «تـرعب» الفئـات الفقيـرة والمتـوسطـة «المستورة الحـال» من الأطبـاء التي ترى بأم أعينهـا كيف يغتني «الكبـار» أو أصحاب «الحظوظ» وهي لاتحصل إلا على مايسد الرمق.

كيف تعالج هذه الفئات الطبية (الفقيرة والمتوسطة الحال) أوضاعها المعاشية وخوفها من المستقبل ومن البطالة وقلة «الزبائن»، أي المرضى؟..... الاجابة على هذا السؤال بحـاجـة إلى دراسـة ميـدانيـة متأنية طويلة النفس. ولكن الملاحظ للوهلة الأولى أن هؤلاء الأطبـاء لايبحثـون ـ شأن غيـرهـم ـ عن حلول جمـاعيـة مشتـركة بل يركضون وراء الحلول الفردية وماتخلفه من نتائج.

وتستـوقفنـا هنـا، في خضم هذه الظـواهر، التي يظن البعض أننا نبالغ فيها، مواقف أكثـريـة نسـاء الأطباء اللواتي يلعبن دوراً سلبيا في أمرين: دفع أزواجهن للبحث عن الثروة بأيـة وسيلة و«الست» تريـد الـوجـاهـة والبـرجـزة والتـرف والمظاهر الفارغة، وهذا لايتم إلا بالثروة. والأمر الثاني الوقوف في وجه أزواجهنَّ إذا كانوا من الأطباء الانسانيين «المستنيرين العاملين في الحقل العام».

في هذه الأجـواء ظنت وتظن الفئـات الاجتمـاعيـة المتعـددة وبخـاصة الفئات ذات الـوعي الاجتمـاعي أو السيـاسي المتـدني أن طريق الخلاص هوفي الالتجاء إلى الدين أو العـودة إليـه. فالحنين العميق في العـودة إلى «المنـابـع الصـافيـة» للتعاليم الدينية هوأحد أشكال الاحتجاج على نمط الاستهلاك واستئثار أقلية باذخة طفيلية بالثروة وحرمان الأكثرية منهـا. وقـد أسهمت التغيرات الدولية الأخيرة وانهيار معسكر الاتحاد السوفياتي وقيام النظام الـدولي الجـديـد بصلفـه وعنجهيته وعدوانيته في دفع اعداد كبيرة ومن بينها مجموعات من المثقفين للاحتماء بالدين طريق النجاة من هذا «الجحيم الأرضي».

ثمـة خلاف بين دور كل من ثقـافـة المـاضي والثقـافـة المعاصرة في تكوين الأجيال العربية منـذ عصـر النهضة العربية إلى الوقت الحاضر. والملاحظ أن النصف الثاني من القرن العشـرين شهـد تغييـرات في ثقـافـة الجيـل في العالـم أجمع. فإلى جانب تعمق المعارف وتشعب الاختصاصات والاهتمام بدقائق الأمور واقتصار الفرد على التخصص في ميدان من ميـادين المعـرفـة نلاحظ انحساراً وجهالة في ثقافة معظم المثقفين فيما هوخارج عن نطاق عملهم واهتمـامـاتهم الفكـرية والعلمية. والأجيال العربية، الآن، تعاني بصورة عامة الفقر الثقافي والجهل المعرفي ويتجلى ذلك بوضوح في أوساط الأطباء. فثمة مفارقة واضحةبين امتـلاك الطبيب المختص ناصيـة العلوم الطبيـة وجهله بمعظم مايجـري حولـه وافتقاره إلى الأرضيـة الثقـافيـة الموسوعية، التي امتلكتها أكثرية الأجيال السابقة من الأطباء وغيرهـم من المثقفين، الذين برز منهم أعلام عظام شاركوا في الحياة السياسية والفكرية بأشكال متنوعة.

ولعل لأطباء اليوم عذرهـم، أو بعض العذر، فقبل ردح من الزمن لـم تكن همـوم الحياة ومشكـلاتهـا معقـدة كمـا هي اليـوم. وكانت أوقات الفراغ، التي يتمتع بها الطبيب، أطول بكثيـر من أوقـات الفـراغ الحـاليـة. وهـذا مما مكّن الطبيب من المطالعة والاتصال بالناس

وتعميق معارفه العامة. قديماً كان عمل أربع ساعات يومية يدر على الطبيب دخلاً يمكنه من تأمين حياة لائقة. أما الآن فهو بحاجة إلى ضعف المدة أو ثلاثة أمثالها للعيش بنفس المستوى السابق. ولهذا فإن الوقت المتوفر للمطالعة والاهتمام بالشؤون العامة انعدم أو تقلص إلى أضيق الحدود. وهذا يعني أن ثقافة الطبيب تتراجع طالما أن الكون يسير قدماً إلى الأمام.

إن الانحسار الثقافي العربي، الذي بدا واضحاً من بداية الربع الأخير من القرن العشرين يعود في إحدى أسبابه إلى الظواهر، التي ذكرناها قبل قليل، ويتبدى هذا الانحسار في ظواهر متعددة مايهمنا منها التالي:

- أوضاع التعليم ومشكلاته والضياع الذي يلف الأجيال الشابة بين الشد إلى الماضي دون تمييز بين جوانبه المشرقة والظلامية، أو السير وراء الحداثة دون تفريق بين قطاعاتها المستنيرة الانسانية وافرازات الأنظمة الرأسمالية الاحتكارية الامبريالية، التي تعيش أزمتها المتعددة الجوانب، ناهيك عن مفرزات الثورة التكنولوجية، الثورة الصناعية الثالثة.
- ضعف النشاطات العلمية بين الباحثين والمثقفين وضحالة ثقافة أكثرية المتعلمين ناهيك عن عامة الشعب. فالتخلف الفكري العام هو السمة السائدة الآن على الرغم من الواحات الفكرية المبعثرة والمحاطة برمال الجمود والتخلف والظلامية. فقد تلاشت الحوارات الفكرية التي عرفتها المجتمعات العربية في مطالع عصر النهضة. ويبدو وكأن العقم الفكري قدر أزلي لاخلاص منه. وهذا، على ما نعتقد، مخالف لسنة التطور فلا بد من نهضة تُجَدِّد الفكر العربي في اطار العقلانية والحداثة المستنيرة والهوية القومية المنفتحة والفكر الديني المستنير..

الفصل الخامس

الأطباء في الأحزاب السياسية (الايديولوجية)

الأحزاب السياسية الرئيسية، التي ظهرت مع فجر الاستقلال في سورية، والتي كانت لها نشاطات بارزة وواضحة في كلية الطب وغيرها من كليات الجامعة، هي بالتدريج حسب نشأتها الحزب الشيوعي (أوائل الثلاثينات) حزب البعث العربي الاشتراكي (أوائل الأربعينات) الاخوان المسلمين (منتصف الأربعينات). وقد كانت هذه الأحزاب تتنافس، بصورة سلمية، على كسب الطلاب إلى صفوفها. وعلى الرغم من منع الأحزاب بعد قيام الوحدة ١٩٥٨، فإن تواجد هذه الأحزاب بصورة سرية ومن ثمّ علنية أو نصف علنية استمر ردحاً من الزمن. ولكن النشاط الحزبي للطلاب الخريجين كان يأخذ بالتراجع بعد ترك الجامعة ودخول معترك الحياة اليومية والبحث عن لقمة العيش والحياة الهانئة المترفة. ونجد أن الطلاب الحزبيين (طلاب الطب) في الأحزاب الثلاثة انقسموا بعد تخرجهم إلى ثلاث مجموعات:

- فئة طلّقت العمل السياسي وانصرفت إلى مهنتها وتحسين أوضاعها والصعود في سلم الحراك الاجتماعي نحو الأعلى.
- فئة بقيت مرتبطة بالسياسة وتتابع تطوراتها ولها اتصالات حزبية واهية أو قوية تتفاوت قوة

خيوطها من دفع التبرعات إلى معالجة المرضى الذين يرسلهم الحزب مروراً بالحديث في السياسة دون أي التزام أوتضحية.

- فئة، وهي الأقلية بقيت مرتبطة بالحزب الذي انتسبت إليه وتختلف هنا درجة ارتباطها تبعاً لمعدن الأشخاص والجو السائد وصعود أو هبوط الحركة الوطنية والاجتماعية ودرجة الانفتاح على الديموقراطية أو التضييق عليها أوحجبها.

١ - الأطباء في الحزب الشيوعي

يسترعي الانتباه نشاط الحزب الشيوعي في صفوف طلاب الجامعة المؤلفة في أوائل الأربعينات قبل ١٩٤٦ من معهدي الطب والحقوق. وذكر الدكتور نبيه رشيدات أن مئة وخمسين طالباً جامعياً كانوا في منتصف الأربعينات منظمين في الحزب الشيوعي أو أصدقاء له. ولم يقتصر هذا العدد على السوريين بل ضم عدداً كبيراً من العراقيين والاردنيين واللبنانيين والفلسطينيين.

وقد نظم هؤلاء أنفسهم في إطار «عصبة الطلبة الديمقراطيين العرب»، التي أصدرت في أواخر نيسان (ابريل) ١٩٤٢ في دمشق بياناً «إلى الشعب العربي عن الموقف الذي يجب أن تقفه الشعوب العربية من الحرب الحاضرة» جاء فيه:

«وعصبة الطلاب الديمقراطيين العرب ترى في مقدمة واجباتها القومية أن تناضل بصراحة وجرأة ضد النازية... إن العرب يقفون ويجب أن يقفوا في صف الشعوب المناضلة ضد الجور الهتلري..» وقد وقّع البيان «عن المعهد الطبي العربي»: مصطفى عشا، جواد عبادي، رياض حوّلا، منصور داوود، الياس ورد، عبد الرحمن ترجمان(*).

---

* - من الطلاب الموقعين على البيان، عدا المعهد الطبي، المعاهد التالية: عن معهد الحقوق: أمجد الخاني، نسيب عازار، نصوح الغفري، هلال فرزلي، رشيد نيشلي.. عن دار المعلمين: عبد السلام كنعان، صبري الأشتر، قسطنطين بندقجي، نجاة قصاب حسن. عن المعاهد الثانوية، شفيق الصفدي، موفق الطباع، مصطفى أمين، راجع نص البيان والأسماء في مجلة «الطريق البيروتية في ١٠ حزيران ١٩٤٢، ص ٢٤.

ولنرَ ماحلّ بطلاب الطب الشيوعيين هؤلاء بعد تخرجهم وهم على مايبدو قادة الحزب الشيوعي في المعهد الطبي. سيرد ذكر حوّلا وورد وترجمان بعد قليل. أما مصطفى العشا وهو دمشقي فقد ترك العمل السياسي بعد تخرجه بقليل وكذلك الأمر بالنسبة لجواد عبادي. ولانعلم شيئاً عن منصور داوود.

كما أن عدد الطلاب الشيوعيين في كلية الطب في الخمسينات لم يكن قليلاً. ولم يبق من هؤلاء في صفوف الحزب إلا القليل ومنهم الدكتور أحمد فايز الفواز من الرقة، الذي احتل في السبعينات مركزاً قيادياً مرموقاً في احدى منظمات (أحزاب) الحزب الشيوعي المنقسم على نفسه.

ويلاحظ ندرة الشخصيات الطبية الشيوعية بعكس حزب البعث الذي برزت من صفوفه شخصيات طبية معروفة. ويعود سبب ندرة الأطباء البارزين، في رأينا، إلى العوامل التالية:

- اغراءات الحياة والطموح للصعود في السلم الاجتماعي ولايتم ذلك إلا بالركض وراء المادة (المال) والحصول عليها في أي طريق. وهذا السلوك لايتناسب مع الاخلاقية الشيوعية، التي تنادي بإلغاء استثمار الانسان للانسان وإلغاء الفوارق بين الطبقات. وبعض الأطباء الشيوعيين تحولوا، كغيرهم، إلى «تجار يضربون أبر». وهذه حالة تصح على مجموعة من الأطباء من مختلف الاتجاهات السياسية، وكذلك على غير المسيسين. وهذا لايعني مطلقاً ندرة الأطباء الانسانيين، الذين لم تكن المادة المؤثر الوحيد في عملهم وحياتهم.
- القمع السلطوي حدّ من نشاط الأطباء الشيوعيين أكثر من غيرهم لأن الدكتاتوريات كانت أول ماتبدأ باضطهاد الشيوعيين واعتقالهم أو قطع لقمة عيشهم. ولهذا فإن الكثيرين كانوا يبغون السلامة وراحة البال وبخاصة بعد تحسن أحوالهم المادية.
- كثير من طلاب الطب ـ وغيرهم ـ اتوا إلى الحزب الشيوعي بدافع وطني ونوازع انسانية تشوبها الرومنسية الثورية. وبعد دخول معظم هؤلاء الحياة العامة سرعان ماتتبخر هذه الدوافع تحت وطأة الحياة العامة وعوامل كثيرة متعددة.
- تأكيد الحزب الشيوعي على أنه حزب العمال والفلاحين وبالتالي فهو ليس حزب الأطباء

والفئـات الـوسيطـة الأخـرى، التي كان عليهـا أن تتخلى عن ايـديـولوجيتها لتنضم إلى الحزب الشيوعي.

- السيـاسـة التنظيميـة الصـارمـة التي اتبعتهـا قيادة الحزب الشيوعي في كثير من المراحل جعلت من بقاء الأطباء في الحزب أمراً صعباً.
- ولعـل عبـادة الفـرد والاعتماد على منجزات «وطن الاشتراكية الأول» أدت إلى الاعتماد على نوع من القـدر والإتكالية وحدّت من سُبل التفكير الحر العقلاني وضيقت حدود الإبداع. ولهذا ندر - حسب علمنا - أن أصدر طبيب شيوعي سوري كتاباً أو دراسة فكرية جادة.
- وكـانت ثالثـة الاثـافي الانقسـامـات التي أخذت تدب في صفوف الحزب الشيوعي في السبعينـات مع تراجـع الحـركة الوطنية العربية بشكل عام وخمود الروح النضالية ومن ثمّ تلاشي وميض النمـوذج الاشتـراكي في الثمـانينـات. ولهـذا نجـد الآن اعداداً كبيرة من الأطبـاء الشيـوعيين سابقـاً قد ساروا في طريقين «أو بالأصح انقسموا إلى قسمين: الأول ابتعـد عن الحـزب الشيـوعي والسيـاسـة وتقوقع في ذاته وأصبح أكثر اندفاعاً وراء المادة والكسب وتجميـع الثـروة. ويمكن القـول إن هؤلاء تنـاسـوا مُثُلهم وتنكـروا لمـاضيهم ومـانـادوا به في يوم من الأيـام. أمـا القسم الثـاني من الأطباء الشيوعيين السابقين فإنهم لايـزالـون يتمتعـون بصفـات انسـانيـة ويهتمـون بالشؤون العـامـة ويتحدثون بالسياسة ويتأثرون بما يجري حولهم وينفعلون بالأحداث وتحز في نفوسهم الانهيارات التي جرت في «المعسكـر الاشتـراكي» السـابق والتراجع في حركة التحرر العربية وعنجهية «النظام الدولي الجديد».

إلى جانب هؤلاء وأولئك لايزال ثمة أطباء شيوعيون يحتفظون بوهج الفكرة الانسانية التي اعتنقـوهـا وهم على استعـداد، وإن يكن بدرجـات متفاوتة، للتضحية في سبيل المثل العليـا، التي حلموا بها. والحـديث عن هؤلاء بحاجة إلى دراسة خاصة لايمكننا الدخول في تفاصيلها هنا.

وسنستعرض فيما يلي نشاط بعض الأطباء الذين عملوا في صفوف الحزب الشيوعي السوري على سبيل المثال لا الحصر وهم:

الدكتور نسيب الجندي

وهو أول طبيب شيوعي في سورية. ينتمي إلى أسرة عريقة في الثقافة قدمت أحد شهداء الحركة الوطنية العربية أيام الحرب العالمية الأولى الدكتور عزة الجندي المار ذكره.

ولد نسيب الجندي في حمص عام ١٩٠٧ وكان والده قاضياً شرعياً. تخرج الجندي من معهد الطب العربي في أوائل الثلاثينات طبيباً للاسنان. ولا نعلم متى انضم إلى الحزب الشيوعي السوري. ولكن المعروف أن عيادته، التي افتتحها في دمشق عام ١٩٣٦ - ١٩٣٧ كانت بمثابة مكتب للحزب الشيوعي. وعندما انتقل إلى حمص في أوائل الاربعينات تحولت عيادته أيضاً إلى مركز للحزب الشيوعي[١]. وكان له نشاط شيوعي بارز في حمص وأصبح عضواً في اللجنة المنطقية للمدينة. وانتخب عضواً عن حمص في مؤتمر الحزب الشيوعي السوري اللبناني المنعقد في بيروت (٣١ كانون الأول ١٩٤٣ - ٣ كانون الثاني ١٩٤٤)[٢]. ولكن الجندي لم يترك لنا أثراً مكتوباً إذ أن مقدرته على الكتابة والخطابة كانت محدودة ولهذا اقتصر نشاطه على العمل السياسي اليومي وحضور الحلقات الحزبية وقيادتها وكسب مؤيدين للحزب الشيوعي.

سجن الدكتور نسيب الجندي مرتين: الأولى في أوائل صيف ١٩٤١ عندما قامت حكومة فيشي الفرنسية الموالية لألمانيا الهتلرية باعتقال الشيوعيين وأنصارهم[٣]. والثانية عام ١٩٤٩ عندما قام الزعيم حسني الزعيم بانقلاب عسكري في آذار اطاح بالحكم الليبرالي وازاح رئيس الجمهورية شكري القوتلي. وفي الوقت نفسه شن الزعيم حملة اعتقالات واسعة ضد القوى المعارضة للانقلابات العسكرية. وقد شملت حملة الاعتقالات اعداداً كبيرة من الشيوعيين ومنهم الدكتور نسيب الجندي. لم يتمكن الجندي - شأن غيره - من الصمود في السجن فقدم لزبانية الدكتاتورية بياناً يتعهد فيه بعدم العمل في السياسة. وهذا مما أدى إلى فصله من الحزب الشيوعي مع جميع من وقعوا بيانات من هذا النوع. وهكذا انهت الدكتاتورية والسجن الحياة السياسية للدكتور نسيب الجندي، الذي عاش طبيباً عادياً معتكفاً عن العمل السياسي حتى وفاته في أوائل السبعينات.

الدكتور خالد البني

ولد في حمص وتخرج من المعهد الطبي العربي طبيباً للاسنان وافتتح عيادة في حمص وانتسب إلى الحزب الشيوعي. وكان رئيس فرقة كشفية تسمى بالعدنانية، لعب البني دوراً في كسب قسم من أعضائها إلى الحزب الشيوعي. شارك في المؤتمر الثاني للحزب الشيوعي في سورية ولبنان ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤ مندوباً عن حمص. وبعد اعتقاله أيام حسني الزعيم عام ١٩٤٩ ترك العمل السياسي(٤).

الدكتور عبد الرحمن ترجمان

طبيب شيوعي من حمص انتسب إلى الحزب في أواخر الثلاثينات وكان شيوعياً معروفاً ونشطاً وقد ورد اسمه في تقرير للشرطة مؤرخ في ٢٥ آب ١٩٣٩، إنه نظم في حمص بتاريخ ليلة ٣٠ و٣١ تموز ١٩٣٩ اجتماعاً من خمسة عشرة شخصاً تناولوا فيه الحديث عن العامل وضرورة مناصرته، ومصير البلاد السورية. ومن التقرير يتبين أن ترجمان كان طالباً في التجهيز. معنى ذلك أنه تخرج من كلية الطب في أواسط الاربعينات وافتتح عيادة في حمص. تعرض أيام حكومة فيشي(٥). ١٩٤٠ ـ ١٩٤١ إلى ضغوط من قبل السلطات الفرنسية. وبعد حملة الاعتقالات ضد الشيوعيين عام ١٩٤٩ ترك الحزب والسياسة(٦).

الدكتور رياض حوّلا

والده من طرابلس الشام وأمه من عائلة الجمالي في حمص. درس الطب في الجامعة السورية في أوائل الاربعينات وكان معروفاً بنشاطه الشيوعي في فترة الدراسة الجامعية وبزيارته لقرى دمشق لتطبيب الفلاحين والدعاية للحزب الشيوعي(٧). ونجد اسمه من الموقعين في نيسان ١٩٤٢ على بيان مدعو العرب إلى النضال بصراحة ضد النازية(٨).

افتتح بعد تخرجه في منتصف الاربعينات عيادة في حمص وكان معروفاً بنشاطه الشيوعي ثم انتقل إلى طرابلس ولم يسمع عنه شيء. ولا نعلم سبب تراجعه. ويقال أن للدكتور حولا بعض الكتابات، التي لم أستطع الحصول عليها.

الدكتور الياس ورد

ولد في انطاكية عام ١٩٢٣ وكان والده يعمل في مهنة الخياطة العربية ثم تحول إلى التجارة. تعلم في مدرسة الروم الأرثوذكس في انطاكية ونال شهادة السرتفيكا (الابتدائية) عام ١٩٣٤. تابع دراسته الثانوية في تجهيز انطاكية واتمها في ثانوية المأمون بحلب حيث نال البكالوريا صيف ١٩٤١. انتسب إلى معهد الطب العربي بدمشق عام ١٩٤١ وتخرج منه، من كلية الطب، عام ١٩٤٨. وبعد أن أنهى خدمة العلم افتتح في حلب أوائل عام ١٩٥٠ عيادة[٩].

تأثر ورد في مطلع حياته بكتاب «العرب والحرب الأهلية في أسبانيا» للشخصية الشيوعية خالد بكداش. وسرعان ما وجد نفسه منحازاً عاطفياً إلى جانب الجمهوريين الاسبان ضد الفرنكويين. وكان ورد من قراء جريدة «صوت الشعب» الشيوعية الصادرة في بيروت. ثم انتسب إلى الحزب الشيوعي وهو في انطاكية واصبح من قادة هذا الحزب في الجامعة السورية. ذكر ورد أن عدد طلاب معهد الطب عام ١٩٤٤ بلغ ٣٠٠ طالباً كان منهم خمسين طالباً شيوعياً أو متعاطفاً مع الحزب الشيوعي. وعدد كبير من هؤلاء كان من الطلاب العراقيين بالدرجة الأولى ثم الاردنيين واللبنانيين.

تحولت عيادة الدكتور إلياس ورد في حلب إلى مكتب للحزب الشيوعي غير المرخص له بالعمل رسمياً. ويلاحظ أن الدكتور ورد، الذي أصبح معروفاً في حلب كطبيب شيوعي لم يصعد إلى القيادة، لأنه، كما يقال، لايحب الوجاهات كما أن طبيعة عمله لاتسمح له بترك العيادة بصورة متواصلة والانغماس في العمل الحزبي. ومع ذلك رشح الدكتور ورد نفسه، عن الحزب الشيوعي، في انتخابات المجلس النيابي في خريف ١٩٥٣ ولكن النجاح لم يحالفه. ثم عاود الكرة وخاض المعركة الانتخابية في صيف

١٩٥٤ في قائمة الاتحاد الوطني (الشيوعية) المؤلفة من طبيب ومحام ومهندس(*).

في أعقاب الوحدة السورية المصرية قامت الأحزاب السورية بناء على طلب القيادة المصرية بحل نفسها فيما عدا الحزب الشيوعي. وكان هذا أحد الأسباب التي أدت إلى شن حملة اعتقالات واسعة شملت جميع الشيوعيين في سورية في مطلع عام ١٩٥٩. ومن الطبيعي أن يكون الطبيب الشيوعي ورد من نزلاء سجن المزة لمدة سنتين ونصف فقط، لاغير وبدون محاكمة ولا من يحزنون. وبعد اطلاق سراحه عاد إلى حلب وافتتح عيادته من جديد ولكنه وبسبب خوفه من الاعتقال أوائل عام ١٩٦٣ أغلق العيادة وهرب إلى بيروت حيث بقي فيها سنتين ونصف. بعدها رجع إلى حلب وافتتح عيادة مرة ثالثة واستمر يعمل بها حتى عام ١٩٨٢ حيث ترك العمل الطبي بسبب المرض الذي انهكه.

أيام الدراسة الجامعية في معهد الطب ترجم الياس ورد فصلاً من كتاب لينين «الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية» لالقائه في الحلقات الحزبية في الجامعة. ولكن هذه الترجمة لم تطبع. والمستغرب أن الياس ورد، الذي يجيد الفرنسية والمتحمس للفكر الاشتراكي لم يقم بترجمة أي كتاب أو التأليف في أي موضوع، رغم توفر المؤهلات لديه.

عندما سألت الدكتور ورد أثناء لقائي به في ١١/ ٢/ ١٩٩٤ عن رأيه في الأوضاع الحالية أجاب: «أنا في منتهى التفاؤل». . الماركسية اللينينية ايديولوجية لاتخبو بل هي في طريق القوة. التجربة المريرة درسٌ سوف تستفيد منه الأجيال القادمة. وسوف تنجلي الأوضاع الحالية عن شمس وضاءة. . انهيار الاتحاد السوفياتي سببه ركامٌ من الأخطاء. . . أنا متفائل بأن الفكر والعقل سينتصران . . . والمستقبل للفكر واليسار»

يعيش الدكتور إلياس ورد الآن في حلب حياة العزلة في بيته الذي اشتراه عام ١٩٦٧. فبعد أن ترك السياسة وانصرف إلى عمل العيادة تمكن من توفير ثمن البيت، الذي يسكنه الآن. وقبل هذا التاريخ عاش الدكتور ورد في بيت بالأجرة. وقال أنه الطبيب الوحيد في حلب المتخرج عام ١٩٤٨، الذي لايملك سيارة. والدكتور ورد عازب لم يتزوج

*** - هم الطبيب ورد والمحامي أحمد محفل والمهندس احسان بهاء الجابري. ويقول ورد أنه نال ثمانية آلاف صوت في حين نال المرشح الفائز في حلب ستة عشر ألف صوت.**

«بسبب الافلاس» حسب تعبيره. فقد استنفذ العمل السياسي جهده وأدى وضع العيادة في خدمة السياسة، أي التطبيب المجاني إلى بقائه «فقيراً نَسبياً» وأردف الدكتور ورد قائلاً: «أنا حرمت نفسي بنفسي. أنا احترقت في سبيل الحزب... أنا قنوع.... أنا اخلاقي مستقيمة»

الدكتور نبيه رشيدات

من مواليد ١٩٢٢ في اربد (الاردن). درس والده في مكتب عنبر بدمشق وأصبح، كما هي حال معظم خريجي ذلك المكتب، من موظفي الدولة العثمانية في بلاد الشام[١٠]. ثم استمر موظفاً كبيراً في امارة شرقي الاردن وأصبح في أوائل الخمسينات عضواً بمجلس الوصاية على عرش الملك حسين قبل بلوغه سن الثامنة عشر. حصل نبيه على المتريك (البكالوريا) من مدرسة السلط سنة ١٩٣٩ وتأثر هناك باستاذين تقدميين يحللان «حوادث التاريخ من منظور علمي».

انتسب نبيه إلى معهد الطب بدمشق عام ١٩٤١ وتخرج منه عام ١٩٤٨. ويقول أنه قرر دراسة الطب لتكون عوناً له في نضاله السياسي، في حين كان والده يرغب أن يدرس الحقوق.

عند التحاق الطالب نبيه رشيدات بمعهد الطب بدمشق كان متأثراً بعاملين:

- الحس الوطني والوعي السياسي الذي تميز به أبناء جيله من المثقفين.
- الحقد العميق على الاستعمارين البريطاني والفرنسي وعلى الصهيونية.

وفي دمشق أخذ يتردد على المجالس التي تدور فيها النقاشات اليومية حول تطور الحرب ومستقبل العرب. ولم يكن متعاطفاً مع انتصارات النازية إلا بسبب كرهه لعدوتها الاستعمار البريطاني والفرنسي. في حين أن نبيه كان يُسرْ ويطرب لانتصارات الجيش الأحمر السوفياتي ويحزن لانتصارات بريطانيا عدوة العرب. وحمل في نفسه شعوراً بالمرارة لفشل ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق ضد الانكليز. وقد أدى تعاطف طالب الطب نبيه مع الجيش الأحمر وعدم انحيازه، معنوياً، إلى المانيا الهتلرية إلى تأثره بالطلاب الشيوعيين

في الجامعة السورية، الذين بينوا له أن الحرب الحالية (الثانية) تختلف عن سابقتها (الحرب العالمية الأولى)، التي غدر فيها الحلفاء بالعرب. فإن اشتراك الاتحاد السوفياتي في الحرب لن يسمح للمستعمرين باقتسام السيطرة على العالم كما جرى في أعقاب الحرب العالمية الأولى. وهذه الفكرة ادخلت الطمأنينة إلى نفس نبيه رشيدات وسرعان ماوجد نفسه في صفوف منظمة الحزب الشيوعي السوري في الجامعة، التي كانت تعج بالنشاط السياسي والاجتماعي لمختلف التيارات. وهكذا دخل طالب الطب رشيدات الحزب الشيوعي من بوابة «النضال الوطني» وليس بسبب الواقع الطبقي. وهذه كانت حال معظم الطلاب والمثقفين من أبناء الطبقة الوسطى، الذين انتسبوا إلى الحزب الشيوعي في الاربعينات والخمسينات.

أواخر عام ١٩٤٨ افتتح نبيه رشيدات عيادة في قرية الصويلح غربي عمان. ولكنه سرعان ماعتقل من عيادته والقي به في مخفر باير على الحدود السعودية لمدة ثلاثة أشهر على أثر توقيعه مع تسعة أشخاص على بيان يطالب بمحاكمة المسؤولين عن كارثة فلسطين والغاء المعاهدة البريطانية مع الاردن وإقامة حكم ديموقراطي برلماني. بعدها فتح عيادة في الشونة ثم في عمان حيث عمل طبيباً للبلدية. عام ١٩٥١ أوفد إلى باريز ولندن في دورة طبية. وفي باريز وقع على عريضة تطالب الدول العربية بالتضامن مع مصر مما اغضب رئيس الوزراء أبو الهدى، وبعد رجوعه من أوروبا بأسبوع خطب في مظاهرة شيوعية في عمان تطالب بالافراج عن المعتقلين السياسيين وتعريب الجيش الاردني. فاعتقل في أواخر ١٩٥٢ لفترة قصيرة. فتح عيادة في عمان وبرز في انتخابات تشرين الأول ١٩٥٤ مؤيداً لمرشح الجبهة الوطنية الطبيب عبد الرحمن شقير. وقد رافق الانتخابات صدامات مع الشرطة على أثر خطابان لشقير ورشيدات مما أدى إلى اختفاء رشيدات لمدة سنة ثم التجأ إلى سورية ١٩٥٥. وقد عمل رئيساً لمستشفى السل بحلب لمدة سنة ونصف. وعلى أثر المد الوطني الجماهيري. وفي أعقاب سقوط حكومة سليمان النابلسي عاد إلى الاردن وألقى في اليوم الثاني لوصوله خطاباً نارياً في الجموع المحتشدة مما اضطره للاختفاء أربعين يوماً ثم العودة سراً مرة ثانية إلى دمشق. وهنا لم يستمر الطبيب نبيه رشيدات في مزاولة مهنته بل انغمس، بفعل الأحداث، في العمل السياسي. فاشترك في مهرجان الشبيبة في موسكو عام ١٩٥٧. ثم أوفد إلى الصين لانشاء اذاعة عربية في بكين. وهناك علم أنه حكم

عسكرياً لمدة ١٦ سنة، بتهمة الشيوعية يضاف إليها سنة ونصف لالقائه خطاباً في عمان، كما جُرد من الجنسية.

بقي رشيدات في الصين ثلاث سنوات ونصف ثم ألقى عصا التسيار في موسكو أواخر ١٩٦٠ حيث عمل في اذاعة موسكو سنة ونصف. وبعد انفصام عرى الوحدة عاد إلى دمشق أيام حكومة بشير العظمة، الذي وافق على تعينه في مركز مكافحة السل بحمص ولكن أجهزة الأمن بقيادة مطيع السمان رفضت تنفيذ قرار رئيس الوزراء العظمة. وقد اضطر إلى طلب النقود اللازمة له من أهله لفتح عيادة خاصة في ركن الدين لايزال يعمل بها إلى الآن (كانون الأول ١٩٩٣). بلغ عدد المرضى الذين يزورون العيادة يومياً من ٤٠ إلى ٥٠ مريضاً «نصفهم بلاش» أي بلا أجر. كما قدم المساعدة الطبية بين عامي ٦٦ - ٦٧ لمناضلي حركة فتح وغيرها من المنظمات. وكثيراً ما أغلق الطبيب نبيه رشيدات عيادته وانهمك في العمل السياسي. ألم يؤثر ذلك على عمل العيادة؟... الجواب نجده في الحياة البسيطة التي يعيشها نبيه رشيدات وفي عدم جنيه أي مردود يذكر من عيادته وهو طبيب منذ عام ١٩٤٨.

شارك الدكتور نبيه رشيدات في جميع مؤتمرات الحزب الشيوعي منذ عام ١٩٤٣ - ١٩٤٤، بالاضافة إلى المشاركة في تأسيس الحزب الشيوعي الاردني في أوائل الخمسينات. ووصل في السبعينات إلى اللجنة المركزية ثم إلى المكتب السياسي في تنظيم خالد بكداش، وترأس هيئة تحرير جريدة «نضال الشعب». وفي المؤتمر السابع لهذا الحزب أعلن عن عدم ترشيح نفسه لمناصب قيادية، وليس معنى ذلك عدم الاشتغال بالسياسة فهي تتدفق في عروقه وكأنه في سن الشباب.

يتمتع الدكتور نبيه رشيدات بموهبتين: الخطابة والكتابة. وقد استخدم الموهبة الأولى استخداماً جيداً وناجحاً في مناسبات وطنية واجتماعية كثيرة في الاردن وسورية. أما موهبة الكتابة فلم يستخدمها أو بالاصح لم يطورها لتبلغ منزلة رفيعة. فقد استنفذت مهنة الطب والعمل السياسي اليومي واذاعتا بكين وموسكو جزءاً كبيراً من خيرة سنواته في سني العطاء. وفي تقديرنا أن «الأعمال السياسية اليومية» وأسباب أخرى منها سياسة الجمود التي كانت سائدة في الحركة الشيوعية عرقلت عملية تطور الانتاج الفكري للدكتور نبيه

رشيدات(*). ودليلنا على ذلك مقالة له منشورة في مجلة الطريق البيروتية (عدد آذار ١٩٤٥) تحت عنوان «عالم الغد عالم الشعوب الديموقراطية الحرة». إن قارىء هذا المقال يستغرب لماذا لم يستمر رشيدات في انتاجه الفكري (الكتابة) مع توفر جميع مستلزمات الكتابة: ثقافة عميقة واسلوب جذاب ولغة اجنبية (انكليزية) جيدة ورغبة صادقة في دفع المجتمع وتطويره في معارج الرقي. جاء في الفقرة الأخيرة من المقال المذكور مايلي:

«ونحن العرب الذين حمل أجدادنا مشعل المدنية في حقبة طويلة من الزمن، والذين ناضلت شعوبنا في ربع القرن الأخير نضالاً عنيداً في كل قطر من أقطارنا في سبيل التحرر من الإستعباد والاستعمار، ننظر إلى عالم الغد بنفوس ملؤها الثقة والأمل بأن تتحقق أهدافنا القومية فنتحرر نهائياً من الاستعمار والجهل والفقر ونتخلص من الاقطاعية والبداوة ونكون أمة منسجمة قوية صحيحة تؤدي رسالتها من جديد في عالم المدنية والانسانية».

في حديثه إلى مجلة «صوت الوطن» في صيف ١٩٩٣ (العدد ٤٧ و٤٨) يجيب الدكتور نبيه رشيدات على سؤال المجلة: «كيف تنظر إلى مستقبل الشيوعية في البلدان العربية»، يجيب رشيدات إجابة طويلة نقتطف منها الجمل والفقرات التالية:

«إن الحوار الديمقراطي حول جميع هذه الأسئلة المطروحة هو ضروري ومفيد...»

«يجب العودة بها (النظرية الماركسية) إلى أصلها وهي انها منهج للتفكير».

«لايجوز الاعتماد على الماضي (يقصد الشيوعي) فقط والتغني به، وطبعاً لايجوز السماح بتحقير الماضي اطلاقاً، ولكن لابد من دراسة الماضي دراسة نقدية عميقة دون خداع للذات».

«باعتقادي أن وجود الحزب الشيوعي هو مطلب ضروري من مطالب النضال الوطني والاجتماعي..».

---

* - أثناء تنضيد هذا الكتاب قرأنا في جريدة الرأي الأردنية في ٢٢/ ١١/ ١٩٩٥ مقالاً للمفكر الاردني مؤنس الرزاز استعرض فيه محاضرة قدمها الدكتور نبيه رشيدات في عمان بتاريخ ١٥/ ١١/ ١٩٩٥، تحت عنوان: «الظروف والعوامل المُحفِّزة للوعي السياسي لجيل العشرينات في الاردن». وقد أشار الرزاز إلى أن محاضرة د. رشيدات «كشفت عن موهبة ابداعية بددتها السياسة...».

«إن انهيار الاتحاد السوفياتي، رغم الآلام الشديدة التي تركها لدى شعوبنا لفقدها سنداً كبير الأهمية لها إلا أن شعور الدفاع الذاتي لديها سوف يشتد ويقوى في الصراع ضد الهيمنة الامبريالية تحت المظلة الامريكية وضد الغزو الصهيوني، ومن جهة أخرى فإن الصراع الطبقي سيزداد حدة... فما من قوة تستطيع اخماد الحقد العميق على الاستعمار والصهيونية، وما من قوة تستطيع منع الشعوب من التطلع إلى الغد الأفضل الذي ستحققه الاشتراكية».

الدكتور سمير التقي

هو من الأطباء القلة في الحزب الشيوعي السوري ـ وكذلك في غيره من الحركات ـ الذين ينشرون دراسات أو مقالات تتناول المشكلات الراهنة دون اهمال مهنته كطبيب أو على حسابها. فهو يغذّ الخطى بنجاح في مضمار التعمق في اختصاصه الجراحي ويشق في الوقت نفسه طريقاً للعمل في حقل الثقافة السياسية.

ولد سمير التقي في حلب عام ١٩٥١[١١] في أسرة ذات جذور دينية اسلامية عميقة وتنظر في الوقت نفسه نظرة تنويرية منفتحة على الثقافة العصرية. حاز والد سمير على دكتوراه في الحقوق من فرنسا عام ١٩٣٦ وعمل في سلك القضاء وكان معروفاً بميوله العلمانية. والدة سمير عائشة سراج كانت أول من نزع في الثلاثينات الحجاب في حي الصقال بحلب بموافقة والدها الشيخ المتنور أحمد سراج. وقد شاركت عائشة سراج في النضال الوطني المتصاعد في الثلاثينات ضد الاستعمار الافرنسي، وقامت ذات مرة باحراق العلم الافرنسي أمام جموع المتظاهرين. والملفت للنظر أن الشيخ أحمد سراج رغب في إرسال ابنته عائشة إلى فرنسا لدراسة الصيدلة ولكن اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية في خريف ١٩٣٩ حال دون هذه الرغبة[*].

*** ـ هذه الواقعة تدل على وصول روح التنوير والنهضة إلى صفوف بعض الفئات المثقفة في الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين مع تصاعد الدعوة التي بدأها الشيخ محمد عبده وقاسم أمين لتحرير المرأة. والآن في الربع الأخير من القرن العشرين نرى العودة مرة ثانية**



دخـل سميـر المـدرسـة الابتـدائية في حلب وانتقل إلى دمشق مع والده، الذي عُين مستشـاراً في محكمـة النقض. وهنـا في دمشق انهى سمير دراسته الثانوية في معهد الحرية (الـلاييـك)، الـذي كان يدرس حتى أواخـر الستينات جميع المواد، ماعدا اللغة العربية، باللغة الافرنسية. وفي معهد اللاييك تأثر سمير بالأفكار الشيوعية بفضل استاذه الافرنسي في الـريـاضيـات. وسـرعـان ماأقـام صلة مع منظمـة الحزب الشيوعي عام ١٩٦٦ وعمره دون السادسة عشر، وانتسب إلى هذا الحزب في مرحلة الدراسة الثانوية.

بعـد أن نال سميـر التقي الشهـادة الثـانـويـة عام ١٩٦٨ سافـر لمـدة سنة (١٩٦٨ ـ ١٩٦٩) لدراسة الكومبيوتر في فرنسا. وبعد عودته انتسب إلى كلية الطب في جامعة حلب وأصبح مسؤولاً عن التنظيم الطلابي الشيوعي في الجامعة. عام ١٩٧٥ تخرج سمير التقي طبيباً والتحق بوزارة الصحة طبيباً موظفاً في مستشفياتها مما مكنه من الحصول على شهادة اختصـاص في الجـراحـة العـامة عام ١٩٧٨. وعلى أثرها أسس مستشفىً خاصاً في مدينة البـاب إلى الشـرق من حلب. وبعـد أن شارك في دورة في الجـراحـة التصنيعية Gherogie plastig أصبح رئيس شعبة الحروق في مستشفى الرازي الحكومي مدة من الزمن.

هذه التفـاصيـل المتعلقـة بالتأهيـل الطبي للدكتـور التقي هدفنـا من ذكرها تبيان أن الـدكتـور التقي استطـاع أن يجمـع بين العملين السياسي والطبي في آن. ومن أجل خدمة العمـل السيـاسي وحبـاً بالمعـرفة والارتقاء في مضمار المهنة التحق التقي في بداية ١٩٩٣ بمركز جراحة القلب في مستشفى المواساة في اطار خطة الدولة لفتح مركز مماثل في حلب، وبعـد أن ينهي الـدكتـور التقي تدريبـه في دمشق سيعـود إلى حلب للعمـل في اختصـاصه الجديد جراحة القلب.

يجيـد الـدكتـور التقي الكتـابـة باللغـة العـربية ويتقن اللغتين الافرنسية والانكليزية ويتكلم الالمـانيـة ويلم بالـروسيـة وهذا أمر نادر المثال بالنسبة للأطباء الشباب. وقد هيأت

← **إلى الحجـاب بأشكـال ونمـاذج و«مـوديـلات» متعـددة تنسجم مع المستـوى الحضـاري والفكري والأجواء السائدة لمرتدية الحجاب عن قناعة أو تمشياً مع «هذا الزمن». ونلاحظ ظاهرة لها وجودها في الأسر السنية المتنورة المنفتحة تتمثل في خروج الأم وبناتها الكبار، اللواتي نشأن قبـل السبعينـات، سفـوراً في حين ترتـدي الأخت الصغـرى، التي نشأت في الثمانينات، الحجاب. وهذا الأمر بحاجة إلى دراسة خاصة مستفيضة لسنا الآن بصددها.**

الخلفية الثقافية التي اكتسبها التقي في سنوات الدراسة واجادة لغتين اجنبيتين بالاضافة إلى شغفه بالمطالعة إلى تقدمه في ميداني الطب والثقافة جامعا بينهما بصورة فريدة. ومع أن العمل السياسي طغى في المرحلة الأولى من حياة التقي على العمل الطبي، إلا أن الأخير يحتل إلى جانب العمل الثقافي السياسي المرحلة الأولى وتراجع العمل السياسي إلى المرحلة الثانية أو الثالثة.

فسمير التقي انغمس في العمل السياسي في سني الدراسة الجامعية والسنوات الأولى بعد تخرجه من كلية الطب فقد كان سكرتير منظمة الحزب الشيوعي في جامعة حلب وعضو اللجنة المنطقية للحزب المدكور ثم انتخب في المؤتمر السادس للحزب الشيوعي (١٩٨) عضواً في اللجنة المركزية.

كتب التقي عدة مقالات سياسية صحفية في جريدة الحزب «نصال الشعب» دون الاشارة إلى اسمه. كما نشر مقالاً في السفير البيروتية ودراسة في الطريق البيروتية. ولكن انتاجه الفكر نشره في مجلة «دراسات اشتراكية» الدمشقية، المجلة النظرية التي يصدرها الحزب الشيوعي وتباع باليد. ومن يقرأ مفالات الدكتور سمير التقي يلاحظ اطلاعه على الثقافة الغربية والاعتماد عليها في الكتابة وتأثره بنشأته في بيئة متدنية واطلاعه على جوانب من التراث ونستعرض فيما يلي أهم النتاج الفكري السياسي للدكتور سمير التقي المنشور في دراسات اشتراكية وهي:

- «الديمقراطية والتنمية وبنية الدولة الحديثة» (نيسان ١٩٨٩) عالج فيه حملة قضايا منها: جدور الديمقراطية في تراثنا.. السلطة - المجتمع بين الديمقراطية والاستبداد في الدولة الحديثة الرأسمالية التابعة... شروط تكون الدولة الرأسمالية الطرفية.. أصل (منشأ) العنف في الدولة الحديثة النامية
- أسهم الدكتور التقي مع نخبة من المثقفين الحلبيين في تنظيم ندوة حول «الحياة الثقافية في مدينة حلب بين الماضي والحاضر» نُشرت في مجلة دراسات اشتراكية في عدد خاص عن حلب تحت عنوان. «حولية حلب ١٩٨٩» ويستوقفنا في هذه الندوة بعض المحاور مثل. ماهو سبب انقطاع دور المثقفين الأوائل ومشروعهم.. مامفهوم الأصالة الثقافية.. دور المثقفين.. الشخصية الحلبية: النُبل، المحولة، القساوة، الطيبة المظهرية والدأب.
- اصدرت «دراسات اشتراكية محوراً خاصاً بمناسبة الذكرى ٢٠٠ للثورة الفرنسية (٨ آب ١٩٨٩)». وقد شارك التقي في كتابة موضوع بعنوان: «العقلانية والماركسية والعصر» ويرى التقي «أنه في كل لحظة انفصل فيها الماركسيون (والماركسية في شكلها الدارج) عن جذورهم العقلانية الانتقادية، عن

جذورهم الديمقراطية الجدلية، كان الماركسيون ينفون ماركسيتهم ويسحبون منها روحها، ليتخثروا في عكر عقائدي أصم». وبعد أن استعرض تقي عقلانية الماركسية وقضايا العصر ختم مقاله قائلًا أن «الماركسية ليست ملكاً للغرب وحده، وهي بالتالي مطالبة بأن تسعى للاغتناء بكل الاضافات والمساهمات التي تحققت في تراث كل شعوب الأرض.....».

نظمت مجلة «دراسات اشتراكية» ندوة عن التراث ونشرتها في خريف ١٩٩٠ وهنا أسهم التقي أيضاً بدراسة تحت عنوان: بين دارة الصفر والنمو المطلق» ولنقرأ الفقرة الأخيرة: «التراث ليس للماضي بل وبكل بساطة للمستقبل إنه سيبقى أبداً يتغير لصالح وحسب الغاية التي يتم استحضاره من أجلها. ومن خلال تصورنا للمستقبل ينعقد الحاضر ويستحضر الماضي وهيهات أن ينقلب التراث إلى لباس لايديولوجيا. فالتراث كما الحياة أوسع من أن يُسع في أي جلباب».

تحت عنوان. «الاغتراب بين عقلانية ابن عربي وصوفية الماركسية» نشر التقي مقالاً في دراسات اشتراكية (أيار ١٩٩١) جمع فيه بين عرض لمفهوم الاغتراب في التاريخ الاسلامي منتهياً بابن عربي ومقارنته مع نظرة ماركس إلى هذه القضية.

في آب ١٩٩١ نشر التقي مقالاً تحت عنوان: «ان تكون أمة واحدة» ودلك بمناسبة انعقاد المؤتمر السابع للحزب الشيوعي السوري وفي معرض الرد على «انحرافات منهجية كبيرة» في الماركسية «اساءت إلى سمعة قيمتها المعرفية وإلى قدرتها على اكتساب المزيد من القوة عبر التجدد لمنهج عقلاني مفتوح».

«الديمقراطية، التنمية الوطنية، القضية القومية»، عنوان مقال مطول نشره التقي في آذار ١٩٩٢ تناول فيه ثنائية الديمقراطية والدكتاتورية وعوامل ضعف القاعدة المادية للديمقراطية في بلدان العالم الثالث. والخيار الديمقراطي الدي يدعو إليه الدكتور سمير التقي يكمن في «التحالف الشعبي الواسع ضد الكومبرادور وضد الطفيلية والبيروقراطية». وهدا الخيار الديمقراطي «يمتد من البورجوازية المحلية المنتجة إلى الطبقة العاملة». وحسب رأي التقي إن النضال من أجل الديمقراطية يكتسب بعدين:

الأول داخلي يكمن في لجم القوى التقليدية والعشائرية، إلى جانب فضح الفئات البيروقراطية والطفيلية عن طريق كشف أساليب استقلالها وتصرفاتها. والثاني قومي يكمن في فضح الشبكة الكومبرادورية الداخلية المرتبطة بالشركات الرأسمالية الاستعمارية، والتي تحصل على عمولات وأرباح خيالية دون حسيب أو رقيب

٢ ـ الأطباء في حزب البعث العربي الاشتراكي

نشأ حزب البعث العربي في أوائل الأربعينات وانتشر في البدء في صفوف الطلاب الثانونيين والجامعيين. وهذا مما أدى إلى كثرة الأطباء البعثيين المنتشرين في معظم المحافظات[١٢].

والملفت للنظر أن طبيباً هو الدكتور مدحت البيطار كان أحد المؤسسين للحزب[١٣]. ولد الدكتور مدحت البيطار في دمشق وكان في صباه أحد قادة تنظيم القمصان الحديدية التابع للكتلة الوطنية بين عامي ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ : ونجد توقيعه مع الأعضاء المؤسسين على عدد من بيانات البعث العربي[١٤]. كما وقّع مدحت البيطار بعض البيانات باسمه منفرداً. وكانت صلاته حسنة مع رئيس الوزراء جميل مردم بك. ولانعلم سبب قيام مدحت البيطار بافتتاح عيادة في قرية نوى (حوران) بعيداً عن دمشق[١٥]. والملاحظ أن نشاط الدكتور مدحت البيطار السياسي توقف بعد فترة قصيرة من الزمن. ولانجد اسمه بين الأعضاء القياديين في المؤتمر التأسيسي لحزب البعث العربي المنعقد في دمشق في ٧ نيسان ١٩٤٧. ولكننا نجد في الوقت نفسه طبيباً آخر ينتخب في القيادة الرباعية هو الدكتور وهيب الغانم، الذي أفردنا له دراسة خاصة.

خضع الأطباء البعثيون كغيرهم للظاهرة التي تحدثنا عنهم. فمنهم من ترك العمل السياسي ونسي أو تناسى ماضيه، ومنهم من وقف في الوسط مولياً اهتمامه الرئيسي لعيادته وعمله يتحدث في السياسة في أوقات فراغه ودون نشاط ملحوظ، أما البقية الباقية فقد خاضت غمار المعترك السياسي في مختلف الظروف. وداخل هذه المجموعة الأخيرة يمكن تمييز ثلاث فئات:

- فئة اقتصر نشاطها السياسي على المنطقة، التي تعمل بها، وشخصياتها غير معروفة على مستوى البلاد.
- فئة قامت، بالاضافة إلى العمل السياسي، بنشاط فكري أو أدبي ابدعت آثاراً مكتوبة. ويأتي في طليعة هذه الفئة جمال الأتاسي وسامي الجندي وسنتحدث عنهما، مع وهيب الغانم في فصل خاص.

- فئة دفعتها الظروف أو هي اندفعت نحوها ودخلت حلبة السياسة من بابها العريض وامست معروفة في أيامها على مستوى البلاد. فوصلت إلى المجالس النيابية واحتلت مواقع هامة في القيادات الحزبية وتبوأت المناصب الوزارية ووصلت إلى رئاسة الدولة. هذه الفئة لم تبدع نتاجاً فكرياً منشوراً. والخطب السياسية أو الرسمية التي القتها ارتبطت بالمنصب اكثر من ارتباطها بشخصية المتحدث. نذكر من هؤلاء نور الدين الأتاسي، يوسف زعين، ابراهيم ماخوس، حبيب حداد، عبد الخالق النقشبندي وغيرهم...

سنتحدث بالتفصيل في فصل «مشاهير الأطباء» عن كل جمال الأتاسي وسامي الجندي ووهيب الغانم. ولم تسعفنا الظروف والامكانات من اللقاء بعدد من الأطباء البعثيين البارزين من أمثال فيصل الركبي نائب حماه في برلمان (١٩٥٤ ـ ١٩٥٨) وأحمد بدر الدين وغيرهم ممن نجهل نشاطهم المكتوب. ونقدم فيما يلي مسيرة حياة أو نتاج أربعة أطباء بعثيين متنوعي النشاط وهم:

١ ـ عبد العزيز عثمان (١٩٢٤ ـ ١٩٩٦)

ولد عام ١٩٢٤ في حماه في عائلة تمتهن تجارة الاغنام. درس مختلف المراحل في حماة ونال البكالوريا الثانية عام ١٩٤٦. ثم انتسب في ايلول ١٩٤٦ إلى كلية الطب ـ فرع طب الأسنان ـ في الجامعة السورية وتخرج منها عام ١٩٥١. وعلى الأثر التحق بخدمة العلم (الجندية الاجبارية) وبعدها افتتح عام ١٩٥٣ عيادة لمداواة الأسنان في حماة، وكان في الوقت نفسه طبيباً (موظفاً) في مديرية صحة حماة[١٦].

انتسب عام ١٩٣٧ إلى «حزب الشباب» وهو تجمع للشباب المثقف المتحدر من الفئات الوسطى في حماة أسسه مدرس التارخ عثمان الحوراني. وكان عبد العزيز تلميذاً للحوراني ومتأثراً به. ولم يترك عبد العزيز عثمان تنظيم «حزب الشباب» وكان من المساهمين في تحول هذا الحزب عام ١٩٤٩ إلى الحزب العربي الاشتراكي، الذي أسهم عبد العزيز عثمان في قيامه وحضوره مؤتمره التأسيسي بدمشق. وبعد توحيد حزبي «العربي الاشتراكي» و«البعث العربي» في حزب البعث العربي الاشتراكي استمر الدكتور عبد العزيز عثمان عضواً نشيطاً في حماة، ودخل لهذا السبب سجن المزة في أواخر أيام الشيشكلي

لمـدة أربعـة أشهر. وبعدها أسهم في الحقل الاجتماعي والسياسي والقى عدة محاضرات في مقـر الحـزب حول القضيـة العـربية والعدالة الاجتماعية وكيفية تحقيقها وعلاقة الانسان بالمجتمـع . ولـه محـاضـرة طريفـة بعنـوان «النُبل» ، الذي لايكتسبه الانسان إلا عن طريق العمل والكفاح .

عندما تمت الوحدة بين مصر وسورية عام ١٩٥٨ كان الدكتور عبد العزيز عثمان أميناً لفرع حزب البعث في حماة . ولم يكن راضياً مع أكثرية رفاقه على حلّ حزب البعث العربي الاشتـراكي ، كغيـره ، تلبيـة لرغبـة عبد الناصر وشروطه من أجل قيام الوحدة . وبعد الجفاء واستقالة الوزراء البعثيين نقلت المباحث الدكتور عبد العزيز عثمان بصفته موظفاً في وزارة الصحـة ، وبسبب نشـاطـه السيـاسي ، من حماة إلى الرقة . فافتتح عيادة في الرقة وبقي في عمله هنـاك حتى «الانفصـال» في ايلول ١٩٦١ . وفي انتخـابـات المجلس النيـابي رشـح الدكتور عبد العزيز عثمان نفسه في قائمة أكرم الحوراني ، التي نجحت بكاملها . وتفرغ في حينها للعمل السياسي ولم يعمل في مهنته .

بعـد ٨ آذار ١٩٦٣ عاد إلى حماة وافتتح عيادة فيها من جديد وشارك كما ترأس أحياناً نشاط «الاشتراكيين العرب» في حماة ، وتعرض للملاحقة فتوارى عن الأنظار فترة ثم التجأ إلى بيروت وأقام فيها ردحاً من الزمن . وبعدها عاد إلى حماة وعمل طبيباً في عيادته دون أن يترك السياسة ، بل استمر يمارسها وفق الظروف الملائمة .

عام ١٩٧٠ أصبح الدكتور عبد العزيز عثمان عضواً في مجلس الشعب المعين لمدة عامين ، قام خلالهـا بنقـل عيـادتـه من حمـاة إلى دمشق . وفي عام ١٩٧٢ اصبح عضواً في اللجنـة المـركـزيـة للجبهـة الـوطنيـة التقـدميـة بصفته عضواً في المكتب السياسي لحركة الاشتـراكيين العـرب وممثـلاً لهذه الحركة في الجبهة مع الضابط السابق والحموي المنبت عبـد الغني قنـوت . ولايزال الدكتور عبد العزيز عثمان منذ ذلك التاريخ (١٩٧٣) وحتى يوم اللقاء في ٥/ ٢/ ١٩٩٤ عضواً في اللجنة المركزية للجبهة . ولم يمارس مهنة طب الأسنان منذ تاريخ ١٩٧٢ .

اهتمت مجمـوعـة الشباب من أقران عبد العزيز عثمان المتحدرة من الفئات الوسطى بقـراءة كتب الأدب والتـاريـخ الاسـلامي الصادرة عن النهضويين المصريين من أمثال : طه حسين والمـازني والعقـاد . استهـوت عبـد العزيز عثمان ، كغيره ، كتب أحمد أمين وحسنين

هيكل. كما كانت مجلات الرسالة والثقافة والمقتطف متداولة بين أبناء جيل الأربعينات.

مع بداية انتشار الماركسية في سورية والمشرق العربي في أواخر الأربعينات والخمسينات اهتم قسم من اقران عبد العزيز عثمان بقراءة المترجم من «الكتب الشيوعية» إلى اللغة العربية. وكثيراً ما تبنى هؤلاء بعض الأفكار الواردة في الكتب المترجمة ونشروها بين الناس، دون الاشارة إلى مصدرها، وبخاصة ماله علاقة بالاشتراكية.

وقد ارجع الدكتور عبد العزيز عثمان محدودية انتشار الشيوعية إلى سببين: الشيوعية غريبة آتية من الخارج، وهي في نظر الناس ملحدة، فالدين لعب دوراً في ذلك.

يقسم الدكتور عبد العزيز عثمان حياته إلى مرحلتين متباعدتين عن بعضهما البعض. وكأن ثمة جداراً يفصل بين ماضيه الجميل الذي يبكيه، وبين حاضره الذي يعيش فيه برفاه. وذكر الدكتور عثمان أنه منذ فترة طويلة وهو لائذ بالصمت لايحب الحديث عن الماضي ويرفض الخوض في الأيام الخوالي مع الباحثين الذين يزورونه للاستفسار عن قضايا تهمهم. وهذه هي المرة الأولى منذ فترة طويلة يجيب على الأسئلة التي طرحتها (في لقاء ٥/ ٢/ ١٩٩٤) مستفسراً: لا أعلم هل هذا (أي الانفتاح في الحديث) لصالحي أم لصالحك....

٢ ـ الدكتور منيف الرزاز (١٩١٩ ـ ١٩٨٤)

هو من الأطباء الذين لعبوا دوراً في الحياة السياسية في كل من الأردن وسورية والعراق نظراً لاعتلائه قمة المناصب الحزبية البعثية في مراحل متعددة.

ولد منيف الرزاز في دمشق عام ١٩١٩. هاجر إلى عمان عام ١٩٢١ مع والديه، إذ أن والده الدكتور البيطري سليم الرزاز أصبح مسؤولاً عن طبابة الخيول في القوات العسكرية في الأردن.

تلقى الرزاز علومه الثانوية في مدرسة السلط في أوائل الثلاثينات وهي المدرسة الوحيدة في الأردن آنذاك. ثم سعى إلى بيروت لدراسة الطب في الجامعة الامريكية. ولكنه انقطع عن الدراسة بسبب وفاة والده فعاد إلى الأردن وعمل معلماً لمدة سنتين. ثم استأنف تحصيله في القاهرة وتخرج طبيباً في أواخر الأربعينات[١٧].

افتتح الدكتور منيف الرزاز عيادة في عمان وأصبح من الوجوه البارزة في حزب البعث العربي، ورشح نفسه باسم الحزب في انتخابات ١٩٥٢ دون أن يحالفه النجاح. اعتقل الرزاز في الأردن عام ١٩٥٧ على أثر المظاهرات العارمة التي شارك في قيادتها، وبقي في السجن مدة طويلة.

عام ١٩٦٥ انتخب أميناً عاماً للقيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي بدلاً من ميشيل عفلق وأقام في دمشق مركز القيادة وبعد انقلاب ٢٣ شباط ١٩٦٦ في دمشق اختفى الرزاز مدة من الزمن في دمشق - قضى بعضها في بيت صديقه الدكتور عبد الرحمن شقير - ثم غادرها خفية إلى بيروت فاليونان.

عاد الرزاز إلى الأردن عام ١٩٦٧ واعاد فتح عيادته إلى أن انتخب في بغداد عام ١٩٧٧ أميناً عاماً مساعداً في القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي فانتقل إلى بغداد وأقام فيها حتى وافته المنية عام ١٩٨٤.

كتب الدكتور منيف الرزاز في مواضيع قومية شتى أولى اهتماماً خاصاً للأمور النظرية المرتبطة بالقضية القومية وأهم ماصدر له:

١ - «معالم الحياة العربية الجديدة» صدرت الطبعة الأولى عن دار العلم للملايين في بيروت عام ١٩٥٣، في الوقت نفسه صدرت طبعة موازية في القاهرة، عام ١٩٥٣ عن دار مصر، واعيد طبع هذا الكتاب عدة مرات.

٢ - «تطور معنى القومية»، دار العلم للملايين بيروت، الطبعة الأولى شباط ١٩٦٠. وهذا الكتاب مجموع محاضرتين ألقاهما الرزاز عام ١٩٥٧ في الكويت بدعوة من وزارة المعارف. وقد أعيد طبع هذا الكتاب في بيروت عدة مرات. آخر طبعة اطلعت عليها هي السادسة والصادرة عام ١٩٧٤.

٣ - «الحرية ومشكلتها في البلدان المتخلفة». الطبعة الأولى بيروت دار العلم للملايين ١٩٦٥. صدر في عدة طبعات أخرى عن دار المتوسط في بيروت عام ١٩٨٠.

٤ - «التجربة المرة» يتحدث فيه عن تجربته في السلطة عندما كان أميناً عاماً لحزب البعث العربي الاشتراكي بدمشق وجرى الانقلاب (ضد القيادة القومية ورأس الدولة أمين الحافظ) في ٢٣ شباط ١٩٦٦. ويذكر الدكتور عبد الرحمن شقير صديق الرزاز في مذكراته أنه نصح الرزاز بعدم قبول منصب الأمين العام للقيادة القومية لأنه سيكون مجرد واجهة لاغير ...

٥ - «الوحده العربية هل لها من سبيل» بيروت ١٩٧٩.

٦ - «أحاديث في العمل الفدائي» الطبعة الأولى عام ١٩٧٠ صادرة عن دار الطليعة في بيروت

٧ - «السبيل إلى تحرير فلسطين». بيروت ١٩٧٩.
٨ - «فلسفة الحركة القومية العربية. الخلفية الفلسفية»، طبعة منقحة صادرة عن المؤسسة العربية للدراسات في بيروت عام ١٩٧٨.
٩ - «فلسفة الحركة القومية العربية: التحدي الاستعماري» الطبعة الثانية صادرة في بيروت عن المؤسسة العربية للدراسات عام ١٩٧٩.

لقد حاول الدكتور منيف الرزاز - المحسوب فيما مضى على اليمين - أن يطور في كتابيه حول فلسفة الحركة القومية العربية أسلوباً جديداً بالنسبة له وهو المزاوجة بين الفكر القومي والمنهج الماركسي مما اعتبر تطوراً جذرياً في فكره النظري. إلا أنه لم يتمكن من متابعة كتابة الاجزاء الأخرى بسبب الظروف التي مر بها..

٣ - الدكتور أسعد الأسطواني

ولد في دمشق عام ١٩٢١ من عائلة دمشقية معروفة أحتل عدد وافر من افرادها مناصب هامة في الإدارة العثمانية، وهذا مما مكنهم من تملك الأرض في ريف دمشق. وقد شمل قانون الاصلاح الزراعي لعام ١٩٦٤ عدداً من أفراد هذه الأسرة، كما هو الحال لعدد من الأسر الدمشقية المرموقة.

درس أسعد الاسطواني في مدرسة الفرير الفرنسية بدمشق. وهذا مما أهله لاتقان اللغة الفرنسية والاطلاع على الثقافة الأوروبية. بعد نيله شهادة البكالوريا عام ١٩٤١، انتسب إلى كلية الطب في الحامعة السورية وتخرج منها عام١٩٤٩. وسرعان ما شد الرحال عام ١٩٤٩ إلى فرنسا لمتابعة دراسته الطبية، وعاد إلى الوطن عام ١٩٥٢ مختصاً في طب الأطفال، وافتتح عيادة في حي الشهداء بدمشق.

انتسب طالب الطب أسعد الاسطواني عام ١٩٤١ إلى حركة الاحياء العربي، التي تحولت فيما بعد إلى حركة البعث العربي. وقد انضم إلى هذه الحركة من طلاب كلية الطب كل من:

فيصل الركبي (حماة)، أديب أصفري (أدلب)، عبد الخالق مرعشلي (حلب)، سعيد سيد درويش (دمشق)، محمود سعدى (دير عطية)، موسى أسعد رزق (صيدنايا). وقد

اشتـد ساعـد هؤلاء بانضمـام التيـار الآخر للبعث (مجموعة زكي الأرسوزي) عام ١٩٤٣، وهم جمال الأتاسي (حمص)، وهيب الغانم (انطاكية)، سامي الجندي (السلمية). ويذكر الدكتور اسطواني عدداً آخر ممن انضم إلى البعث وهم: نصوح القطب (دمشق)، أبو الخير الخطيب (دمشق)، زهـدي باخـو (حلب)، أحمـد بدر الـدين (دمشق، وقـد أصبـح وزيـراً للمواصلات لفترة من الزمن بعد ٨ آذار). وغيرهم. وعدد من هؤلاء لم يبق في حزب البعث إلا لفترة وجيزة بعد تخرجه من الجامعة.

يذكـر الـدكتـور الاسطواني أنه كان في المؤتمر التأسيسي لحزب البعث العربي عام ١٩٤٩ من أنصار اضافة كلمة الاشتراكية إلى اسم الحزب. ولكن معارضة عدد من النافذين في المؤتمـر أدت إلى عدم اقتـران اسم الحـزب بكلمـة اشتـراكية. واستمر الأمر على هذه الحال إلى يوم توحيد «البعث العربي» مع «العربي الاشتراكي» فأصبح اسم الحزب «البعث العربي الاشتراكي».

كان الدكتور أسعد الاسطواني من أعضاء الحزب المعروفين وهذا ما أهله أن يصبح عام ١٩٥٧ رئيسـاً لفـرع الحزب في دمشق. وبعد أن حلّ الحزب نفسه مع قيام الوحدة بين سوريـة ومصر، سافـر الـدكتـور اسطواني إلى الكويت للعمل فيها إلى أوائل ١٩٦٤. ومع عودتـه جرى تعيين عدد جديـد من السفـراء في عواصم الدول العربية والأجنبية، ممن لهم تاريـخ معـروف في حزب البعث. وكـان للأطبـاء نصيب في هذا التعيين. فقـد تم تعيين الـدكتـور مدحت البيطـار سفيـراً في العـربيـة السعودية والدكتور أديب الأصفري سفيراً في أنقرة والدكتور أسعد الاسطواني سفيراً في عمان. وبقي الدكتور اسطواني في هذا المنصب حتى عام ١٩٧٠. اعتـزل الـدكتـور اسطـواني العمل الحزبي، وأشرف عام ١٩٧٢ على مديرية الابحـاث والتخطيـط في وزارة الصحـة حتى عام ١٩٨٦. بعـدهـا تفـرغ لتحقيق وتقـديم مخطوط جد والده محمد سعيد الاسطواني كما سيمر معنا.

الـدكتـور أسعـد الاسطـواني «كـاتب ومحاضر ومؤلف في المجالات الطبية والاجتماعية والتـاريخيـة» كمـا أنـه عضـو بارز ومؤسس في جمعيـات «تنظيم الأسرة السورية» «أصدقاء دمشق»، «الدفاع عن حقوق الإنسان»، «النادي العربي».

لم نستطـع الـوصـول إلى مقـالات الـدكتـور الاسطـواني المتنـاثـرة في المجـلات

والجـرائـد، ونقتصـر هنا على تناول مقالة له عن دمشق وأثرين هامين هما: مشروع مذكراته وتحقيق ونشر كتاب جد والده.

المقـالـة أو بالأصـح البحث نشر في مجلة «التراث العربي» عام ١٩٩٤ تحت عنوان «دمشق على أبواب القرن العشرين» ومما تناوله فيه: مؤامرات الغرباء ونشوء الفكر القومي في القـرن التـاسـع عشر، بوادر الوعي القومي، مراحل تطور الوعي القومي في بلاد الشام. وننقـل فيمـا يلي فقـرة من هذه المقالة: «دمشق تعلمت من التاريخ ماتعلمته المدن العربية العـريقـة الأخـرى، فجميعها أخذت من التاريخ العقل والحكمة والتبصر. ولذلك فإن فكر دمشق متصل بكل ماله صلة بالعروبة والاسلام ومطبوع بابداع التحرر متعلق بأسباب السماء تعلقه بالذي يجري على الأرض».

الأثـر الأول والهـام للدكتـور اسطـواني هو ماكتبه من مذكرات لم تكتمل. وقد اطلعنا الـدكتـور الاسطـواني على مذكـراتـه، التي لاتزال مخطوطاً وتتضمن الفصول التالية: أول عهـدي في السيـاسـة، الجـذور والنشأة، البيئـة والعـادات، النضـال الـدامي في سبيـل الاستقـلال، الاستقـلال المبتور والجمهورية الثانية (يقصد حكومة الكتلة الوطنية ١٩٣٦ - ١٩٣٩ برئاسة هاشم الأتاسي)، السنوات الأولى من الحرب، الاستقلال الصوري والنضال في سبيل الاستقلال الناجز، ذكرياتي في باريز...

هذه الفصول من الذكريات التي لم تكتمل تقدم لدارسي التاريخ في منتصف القرن العشـرين صوراً حيـة وشيّقـة عن أجـواء تلك الأيـام. وسننقل بعض ما كتبه الدكتور الاسطواني عن أجواء الأربعينات وكيف كان يفكر «شباب البعث» في تلك الأيام، أيام التأسيس، التي تشوبها الرومانسية بمختلف أنواعها. فتحت عنوان: «كيف كنا في السنوات الأولى من نشوء البعث العربي»، كتب الدكتور الاسطواني:

«كنـا صوفيين في طروحـاتنـا، وكنا لانعترف بالسياسة ومناوراتها لأننا اعتبرنا بأن فكرة البعث سوف تزول اذا اعتمدت الأساليب السياسية.

ولم نكن نعترف بالهزيمة، ولم نشعر أبداً بالذنب، ولم يكن هناك مايترك الحسرة في قلوبنا، لاننا لم نفعل شيئاً يجعلنا لانعتز ولا نفخر بما كنا نقوم به، ولأننا حتى عندما تحتدم مناقشاتنا وننطلق في مظاهراتنا ونوزع منشوراتنا، لم نفقد احترام الغير.

وكـان أعـز مانملك هي هذه الصـوفيـة التي تميّـزنـا بهـا والتي تجـاهلهـا أصـدقاؤ نا

السياسيون قبل خصومنا. . . كان السؤال الذي يدور على السنتنا خلال تلك السنوات من صعودنا، كيف ننشر فكرتنا الجديدة بين الناس؟ . . . كان علينا ان نصنع من جديد رأياً عاماً صديقاً للحقيقة الساطعة الصادقة، ان نصنع رأياً عاماً شعبياً لايكون زائفاً. وكنا نعاني من قلة القراءة لجريدتنا (البعث)، . . . فإذا كنا نُعاني من قلة الإقبال على الجريدة، فلقد حافظنا على نقائها وصفائها. . . وكنا نعيش في زمن قاسٍ وجحود، فكثيراً ماكان الناس يقولون لنا تجاه عدم انتشار جريدتنا: هل لديكم كل هذا الوقت كي تهدروه وكل هذا المال؟ وكنا نجيب كل هؤلاء: ليس لدينا الوقت، ولم يعد لدينا المال، فلم يبق سوى حياتنا لنفقدها. . . ».

هذه الأجواء التي رافقت نشوء «البعث العربي»، والتي وصفها بصدق ووجدانية الدكتور الاسطواني وقمنا بقطف فقرات منها، تعكس الواقع الحي لجزء من الشباب المثقف المفعم بالروح القومية والممتلىء حماساً وحيوية وأملاً بالمستقبل العربي الزاهر. وبما أن مجموعة كبيرة من هذا الشباب تحدرت من الفئات الوسطى المنعمة ـ حسب معايير ذلك الزمن ـ فإن أساليب النضال آنذاك كانت تحرمها من جزء من «حياتها الهانئة»، وهذا ما أشار إليه الدكتور الاسطواني مبيناً ماكنا أكدنا عليه من تخلي قسم من طلاب كلية الطب، ومن مختلف التيارات السياسية، عن المنهج السياسي النضالي، الذي ساروا عليه أثناء المرحلة الجامعية. ولنقرأ ما كتبه الدكتور الاسطواني:

«وهكذا بين حياة هانئة بورجوازية المضمون والملامح، وبين حياة طلابية في جميع جوانبها الدراسية والسياسية تعود لنا من خلالها انسانيتنا، كنا نتأهب لنوال شهاداتنا الجامعية. وكان من البديهي أن أكثر الطلاب حماساً، وحتى الملتزمين، كانوا يتخلون أحياناً عن منطلقاتهم القومية وينصرفون إلى مهنتهم ومشاغلهم الخاصة. ومع ذلك كان هنالك شيء أقوى مني يدفعني للإلتزام بالقضايا القومية. وعلى الرغم من إيماني الصادق بمبادىء الحزب، كنت أتساءل دوماً في ذلك الحين: كيف يمكنني التوفيق بين نزعتي البورجوازية الصغيرة في متابعة المشاريع الشخصية في الاختصاص والعمل المهني، وبين الالتزام بقضايا الجماهير؟ وفي كل مرة كانت فيها احدى النزعتين تحاول التغلب على الأخرى، كانت الثانية تنافسها باستمرار. ولقد شعرت بعدئذ أن ليس هنالك تعارض حقيقي بين الأمرين، طالما أن هذا الالتزام يفترض بعض التضحيات على المستوى الشخصي،

وطالما أن السبيل الأقوم لتحقيق الأهداف القومية هو مشاركة الجماهير همومها اليومية وتوعيتها والسير بها نحو مرحلة ديمقراطية تستطيع من خلالها النضال من أجل تحقيق هذه الأهداف».

الأثر الثاني الهام للدكتور أسعد الاسطواني هو تحقيق ونشر يوميات جد والده الشيخ محمد سعيد الاسطواني قاضي الديار الشامية. وقد اختار الدكتور أسعد لهذه اليوميات العنوان التالي: «مشاهد وأحداث دمشقية في منتصف القرن التاسع عشر ١٢٥٦هـ - ١٢٧٧هـ ١٨٤٠ م - ١٨٦١ م».

الاهداء الذي تصدر الصفحة الأولى والمكتوب في أوائل ١٩٩٤ يعبّر عن الاتجاه الفكري للمحقق وهو الآتي:

«إلى أرواح الشهداء الذين استشهدوا في سبيل احياء الأمة العربية وبناء وحدتها في القرنين التاسع عشر والعشرين.. إلى جميع المؤمنين بقدرة العرب على الصمود واجتياز الصعاب لتحقيق حرية الإنسان العربي... إلى الأجيال العربية الناشئة عسى أن يجدوا فيما رآه ومارسه السلف الدروس والعبر في مشوارهم الوطني والقومي».

وضع الدكتور الاسطواني لليوميات دراسة وافية سار فيها على منهج محققي المخطوطات. فقدم للمكتبة العربية عملاً جاداً علمياً لايقل جودة عن عمل المختصين بتحقيق المخطوطات، مما يدل على الميول الفكرية السياسية والتاريخية الكامنة في ثياب الطبيب. وليس هدفنا هنا تقييم عمل الدكتور الاسطواني، بل البرهنة والتذكير أن بعض الأطباء يجيدون انتاج الأعمال الإبداعية إجادتهم لمهنتهم.

مايهمنا هنا هو الاشارة إلى أن الدكتور الاسطواني لم يُسْقِط - كما كتب - آراءه الشخصية ومعتقداته السياسية على محتوى الوقائع التي تبرزها الوثائق. ولكنه بالمقابل لم يتوانى عن الإدلاء برأيه والكشف عما أسماه «الالتزام القومي» في تحليل بعض الوقائع.

يشير الدكتور أسعد في الصفحة ٦٣ أن محمد سعيد الاسطواني افتتح يومياته سنة ١٢٥٦هـ - ١٨٤٠ م بالتأريخ لمغادرة القائد المصري ابراهيم باشا دمشق ناعتاً إياه بالبطل الكبير. ويعلق الدكتور أسعد قائلاً: «وكان وصفه إياه بالبطل تعبيراً صادقاً عن قناعته بأن القائد المصري الذي استهدف إنشاء دولة عصرية قد ذهب ضحية المطامع الأجنبية».

وخـلافـاً للتيـارات الدينية (الاسلاموية)، التي تسعى جاهدة، وبخاصة بعد تصاعد المـد الـديني في الـربـع الأخير من هذا القرن، إلى «أسلمة» الدولة العثمانية، والقول انها دولة اسلامية وكل من يقف ضدها فهو مناوىء للاسلام. . . على نقيض هذا الرأي الجارف في هذه الأيـام، يرى الـدكتـور أسعـد الاسطواني أن الجيش المصري حرّر بلاد الشام عام ١٨٣٢. وان «الحكم المصري مابين عامي ١٨٣٢ ـ ١٨٤١ أرسى أسس اصلاحات هامة من حيث تنظيمه لأجهزة الدولة ونشره للتعليم الحديث وتطبيقه للمساواة بين الطوائف المتعايشة».

٤ ـ الدكتور علاء الدين عابدين

يتميـز حزب البعث في المـرحلة الـراهنـة بانضـواء اعـداد من الأطبـاء تحت لوائـه، بعضهم يحتل مراكز هامة في أجهزة وزارة الصحة. كما وصل بعض الأطباء إلى مراكز قيادية في الحـزب فأحـد الأطبـاء كان أميناً لفرع الحزب في محافظة السويداء. والدكتور محسن الخيّـر، الـذي احتـل منصب أمين سر العـلاقـات الخـارجيـة لمجلس الشعب في احـدى الدورات، هو الآن (صيف ١٩٩٥) أمين فرع الحزب في محافظة اللاذقية. ويحتل الدكتور علاء الدين عابدين مكان الصدارة في استمرارية تسنمه لمنصب رئيس فرع دمشق منذ عام ١٩٧٩ وحتى الآن (صيف ١٩٩٥). وبحكم كثـافـة العمـل الحـزبي فإن هؤلاء الأطبـاء متفرغون لهذا العمل واحداثه اليومية.

الـدكتـور علاء الـدين عابـدين هو نمـوذج للأطباء الحزبيين، الذين أغلقوا عياداتهم وانغمسوا في العمل الحزبي.

ولـد علاء الـدين عابـدين بدمشق عام ١٩٣٤ والـده الـدكتور سهيل عابدين خريج المعهـد الطبي العـربي بدمشق عام ١٩٢٨. وعائلة عابدين من العوائل المشهورة بتعمقها في علوم الـدين واحتـلالهـا منصب الافتـاء في دمشق ردحاً من الزمن. وكان للشيخ علاء الدين عابدين دور في تأسيس المكتبة الظاهرية في دمشق. فقد شكا رجل الدين المستنير الشيخ طاهر الجزائري إلى رئيس الجمعية الخيرية الشيخ علاء الدين، حفيد العلامة ابن عابدين ضيـاع كتب الـوقف. فأخـذ الشيخـان في جمـع الكتب الـوقفية في مدة ولاية مدحت باشا

(١٨٧٨). وبعد تولي حمدي باشا ولاية سورية، حوّل الجمعية الخيرية إلى مجلس معارف، وأناط رئاسته إلى العلامة محمود أفندي حمزة مفتي دمشق، الذي قام بالاشتراك مع الشيخ علاء الدين عابدين، والشيخ سليم العطار، والشيخ محمد المنيني بتقديم طلب في ١٥ شباط ١٢٥٠ هـ إلى الوالي حمدي باشا لجمع الكتب الوقفية. وقد تضمن الطلب «إن الكتب الموقوفة هي لاستفادة العموم. وقد حُصرت بأيدي المتولين، وحُرم الناس من مطالعتها. فالواجب أن تجمع الكتب والرسائل الموقوفة الكائنة تحت أيدي المتولين، ووضعها في خزانة مخصوصة، عمرت وأنشئت في تربة الملك الظاهر (بيبرس)، لتصير المنفعة عمومية، ولايحرم أحد من الاستفادة والمطالعة، ويتأسس بذلك دار كتب عمومية». فصدر أمر الوالي بتأسيس جمعية الكتب العمومية، وان تكون تحت نظارة المشايخ مقدمي الطلب. وعندما جرى جمع ماتفرق من المخطوطات من عشرة أماكن (مدارس) لقي الشيخ طاهر الجزائري ـ كما كتب محمد كرد علي ـ ممن يستحلون أكل الأوقاف مقاومة وأي مقاومة.

ونعود مرة ثانية إلى علاء الدين عابدين. فقد نال شهادة الدراسة الثانوية عام ١٩٥٤. ثم انتسب إلى كلية الحقوق ولكنه هجرها بعد مدة وسافر إلى تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٥٨ لدراسة الطب على نفقة والده. تخرج هناك طبيباً عام ١٩٦٤، وحصل على شهادة الاختصاص في الأمراض الباطنية عام ١٩٦٨. وعلى الأثر عاد إلى الوطن وافتتح في دمشق عيادة أغلقها عام ١٩٧٩ ليتفرغ للعمل الحزبي كرئيس لفرع دمشق لحزب البعث العربي الاشتراكي.

انتسب علاء الدين عابدين إلى حزب البعث العربي عام ١٩٤٩ وهو في الصف الثامن. وتسنم أثناء دراسته الطب، وبعد رجوعه إلى الوطن عدة مناصب حزبية، إلى أن استقر به المقام رئيساً لفرع دمشق في عام ١٩٧٩.

في لقاء مع الدكتور عابدين في مكتبه بتاريخ ١٢/ ٥/ ١٩٩٥ طرحنا عليه سؤالين حول رأيه في انهيار الاتحاد السوفياتي وصعود التيارات الدينية في الوطن العربي.

يرى الدكتور عابدين أن كل حضارة تصعد ثم تهبط. والتاريخ يحتوي أمثلة كثيرة في هذا المجال و«الدنيا لايمكن أن تقف لفترة طويلة على رجل واحدة. والطبيعة لايمكن أن تستمر بشكل واحد ولابد من دور مستقبلي لأوروبا والصين واليابان».

ويرى الدكتور عابدين أن ثمة علاقة حميمة بين الاسلام والعروبة . وهو ضد التطرف والتعصب ومع شعار «الدين لله والوطن للجميع» . والدين أخلاق ، حسب تعبيره .

التيارات الدينية المتطرفة ـ في رأي عابدين ـ قامت في البلدان التي أفلست فيها الأنظمة . أما في سورية ـ يقول الدكتور عابدين ـ فقد «قدمنا للشعب الكثير ولهذا فقد أيَّدنا الشعب ، وفشل الارهاب والتطرف الديني» .

٣ ـ الأطباء في الاخوان المسلمين والتيار السلفي عامة

مع بزوغ عصر النهضة ظهر في داخله تياران رئيسيان :

التيار العلماني الليبرالي ، الذي انبثق عنه التيار القومي ومن ثم التيار الاشتراكي .

التيار الديني الاصلاحي التجديدي المناهض للصوفية وطرقها وايديولوجيتها والراغب في السير بالاسلام في معارج التقدم والرقي والأخذ من الغرب ما يخدم هذا الغرض . ونفضل أن نطلق على هذا التيار اسم «سلفية عصر النهضة» تميزاً له عن سلفية المرحلة الراهنة المتسمة بطغيان الايديولوجيات الاستهلاكية وكثرة الفئات الرثة المهمشة وهيمنة البورجوازيات الطفيلية والبيروقراطية وتراجع المشاعر الوطنية والقومية لصالح العصبيات العشائرية والطائفية والعائلية وماشابهها في عصر انهيار «المعسكر الاشتراكي» وهيمنة النظام الدولي الجديد .

وبين سلفية عصر النهضة وسلفية المرحلة الراهنة ثمة تيارات سلفية كثيرة تتراوح مواقعها بين الانفتاح على «الآخر» أو الانغلاق والتعالي على «الآخر» والاحتماء بالماضي . وفي خضم الأمواج المتصارعة ظهر اتجاه يدعو إلى «أسلمة» العلوم ومنها الطب ، ليغدو طباً اسلامياً . وتأسيساً على ذلك انعقد المؤتمر العالمي الأول للطب الاسلامي في الكويت ٦/ ١٠/ ربيع الأول ١٤٠١ هـ ـ ١٢/ ١٦ يناير ١٩٨١ م . وصدر عن المؤتمر الدستور الاسلامي للمهنة الطبية(*) .

---

* ـ إن هدف هذا الدستور كما جاء في المقدمة هو : ألّا تنبو علوم الانسان عمّا أراده لها خالق الإنسان من إعمار لهذا الكوكب الذي نعيش عليه في غير تخريب ولا طغيان» ويلاحظ أن ←

لم نتمكن من الـوصـول إلى أعمـال جميع الأطباء السوريين ذوي الاتجاه الاسلامي لسببين : قلة انتـاج هؤلاء وهجـرة النـاشطين منهم إلى خارج البـلاد وغـالبـاً ما يقيمون في السعودية . وعلى الرغم من ذلك فإن الأطباء الثلاثة الذين سنعرضُ نتاجهم ، بالاضافة إلى أطبـاء متـدينين ذكـرنـاهم في فصل مشاهير الأطباء ، يقدمون نماذج عن كيفية معالجة التيار الـديني الاسـلامي للمشكـلات ، التي رأوهـا حاسمـة مثل : الجنس والاختلاط والحجاب والخمر والوجود والعودة بالمسلمين إلى دينهم وتطبيق الشريعة الاسلامية والحديث عن الفقر والتخلف في العالم الاسلامي .

وفيما يلي عرض لكتابات ثلاثة من أطباء التيار السلفي :

١ ـ الدكتور محمد فائز المط

ولـد عام ١٩١١ في دمشق وتلقى علومـه الابتـدائيـة والثـانـوية في دار العلم والتربية وتجهيز حماة ثم انتسب إلى الجامعة السورية وتخرج طبيباً منها وبعد مدة عُين عام ١٩٣٨ استاذاً للتشريح في المعهد الطبي وهو اخصائي بمعالجة الرأس والعنق والعين وقد عمل في المستشفى العربي المعروف بدمشق[١٨] .

ورد في كتـاب «من هـم في العـالـم العـربي» المطبوع عام ١٩٥٧ أن المط «لاينتمي لأي حزب» . ولكن ذلـك لايعني عدم اهتمـام المـط بالشأن العـام ، فقد أصدر، إلى جانب بعض الكتب الطبية ، عدة كتب دينية تبين رسوخ أقدام المط في ميدان العلوم الدينية وصرفه وقتاً طويلاً من عمره لجمع مادة تلك الكتب .

أصدر الدكتور محمد فائز المط في دمشق كتاباً دينياً مؤلفاً من ٤٤٧ صفحة بعنوان : «قبس من نور محمد صلى الله عليه وسلم» . الطبعة الأولى يعتقد أنها صدرت عام ١٩٦٨

← قسم الطبيب الـوارد في الـدستـور الاسـلامي للمهنة الطبية لايختلف في جوهره عن القسم التاريخي المعروف مع اضافات أهمها الفقرة التالية : «وأن تكون حياتي مصداق إيماني في سرّي وعلانيتي ، نقية ممّا يشينها تجاه الله ورسوله والمؤمنين» .

لأن مقدمة الكتاب مؤرخة في ٢ كانون الأول ١٩٦٧ . أما الطبعة الثانية التي اعتمدنا عليها هنا فصادرة عام ١٩٨٤ عن دار الكتب العربية بدمشق .

جمع المط في هذا الكتاب ٢١٣٤ حديثاً نبوياً عالجت مواضيع دينية ودنيوية شتى . وتظهر أهداف المط من جمع هذه الأحاديث في مقدمة الكتاب المؤرخة كما ذكرنا في ٢ كانون الأول ١٩٦٧ والتي جاء فيها : « . . . أما اليوم قد أصابت المسلمين غفلة عن دينهم وجهل به وبعد عنه حتى أصبحوا لايعلمون منه إلا القليل . . . (و) أصبح من الضروري أن يعود المسلمون إلى هذه الكتب التي حوت التعاليم التي تنير ظلماتهم . . . ولاسبيل إلى ذلك إلا بأن يهب المسلمون إلى تعلم دينهم وأن يطلع عليه غير المسلم فيرى فيه المثل الأعلى الذي تُقصّر عن الايتان بمثله عقول البشر» .

كتاب آخر للدكتور المط صدر في طبعته الأولى عام ١٩٨٤ عن مؤسسة الرسالة ببيروت تحت عنوان : «من كنوز الاسلام» . مقدمة هذا الكتاب ترجع أسباب تراجع المسلمين إلى ابتعادهم عن الدين واهتمامهم بالماديات فقط دون الروحانيات . ولنقرأ ماكتبه المط في هذا الشأن :

« . . . هكذا نشأ أجدادنا تعلموا من رسول الله . . . فنشأ المجتمع المثالي الذي ملك العالم وملأه عدلاً وعلماً وخلقاً . . . ثم دارت دورة الزمن ، فطغت المادة وأصبح الناس لاهمّ لهم إلا الجسد ، وإشباع الحواس ، واتباع الشهوات ، وأصبحت علاقتهم بربهم علاقة مادية بحتة يتعلمون شيئاً يسيراً من الفقه ويقومون بأداء ظاهر العبادة . . . مشغولة عقوله بدنياهم ، ففقدوا الاتصال بربهم ، ولذة الايمان به وابتعدوا عن دينهم . . وأكثر من ذلك ، فقد أصبح قسم كبير منهم يرون أن دينهم عائق عن تقدمهم وعثرة في سبيل حضارتهم . . . . ولو عقلوا لعلموا أن الحضارة والتقدم نبعا من الاسلام» .

واضح من هذا الكتاب أن الدكتور المط ذو ونزعة صوفية عميقة فهو يرى أن «الصوفي الحقيقي ارتقى بعلمه وعمله واخلاصه ، فرفع حجاب الدنيا وشهواتها عن قلبه فرأت روحه ربه ، فأنس به وأحبه بكل جوارحه . . . هذه الفئة القليلة من الناس زالت ولم يبق منها اليوم إلا القليل النادر. فإن كان من الصعب أن نكون مثلهم فمن الضروري أن نعرف تاريخهم وحياتهم فنتعلم علمهم» .

وهذا الكتاب ـ يقول المط ـ خلاصة من أقوال وأفعال هذه الفئة الصالحة مع أقوال

بعض حكماء العصر، عملت في جمعها السنين الطوال، أقدمها آملاً أن تكون عوناً على ايجاد حياة جديدة فيها صفاء الروح وعمل الجسد وكسب السعادة والأمن والسلام.

الكتاب الثالث للدكتور فائز المط صدر عام ١٩٩٠ في عمان تحت عنوان: «من معجزات الاسلام» تناول فيه أموراً دينية كثيرة أهمها: مدرسة الاسلام، معجزات الاسلام العلمية، الانسان تربيته عقيدته، اخلاق المرأة والأسرة، التكاليف (العبادة والموت في الاسلام)، المعجزات الفنية، المعجزات الطبية، نبوءات الاسلام.

وخلاصة ما رمى الدكتور المط من تأليف كتابه هو البرهنة على أنه في أيام تطبيق شريعة الاسلام «تحطمت عروش الظلم والبغي والاستعباد وعمّ السلام والأمن والرخاء حتى لم يبق في دولة الاسلام فقير يأخذ الصدقات فوزعت الأموال على غير المسلمين واعتقت به رقاب العبيد واطعمت الطيور والحيوانات واغلقت المحاكم».

ويمض المط مختتماً كتابه بالدعاء إلى الله تعالى «ان يعيد المسلمين إلى دينهم الحنيف فيقودوا البشرية إلى مافيه الخير يخرجونها من الظلمات إلى النور وماذلك على الله بعزيز».

٢ ـ الدكتور حسن هويدي

ولد في دير الزور عام ١٩٢٥ وتخرج من جامعة دمشق وافتتح عيادة في دير الزور وكان أحد قادة الاخوان المسلمين ثم المرشد العام لهم. صدر له وهو في مقتبل العمر قصة صغيرة للأطفال بعنوان «صدق وعدل» نشرتها دار الأرقم(*) في حلب عام ١٩٤٤. كما قام الهويدي بنشر مقالات دينية في مجلة حضارة الإسلام.

عام ١٩٧٨ صدر لحسن هويدي في بيروت كتاب بعنوان «الوجود الحق» ويسميه هويدي «كتاب المثقف المؤمن» ويتضمن المواضيع التالية: الوجود، الرد على الربيين (اللاادرية)، السببية، لابد لكل حادث من محدث، بطلان القول بقدم العالم، بطلان

---

* ـ أول مركز للاخوان المسلمين تأسس في حلب عام ١٩٣٥.

المادية الجدلية، الخالق الأول، الاقرار بوجود الخالق أمر بدهي، يستحيل أن يكون العدم أصلاً للوجود، سبل الضلال وهي الجهل والهوى والكبر والعناد والخوف.

وننقل عن الغلاف الخارجي للكتاب المقطع التالي الذي يعرف بالكتاب فهو «يبحث في إثبات وجود الخالق، وفساد القول بقدم العالم، والطبيعة ومفهومها، وبيان صفات الخالق ومغايرتها لصفات المخلوق، بأسلوب علمي رصين يعتمد على البراهين المنطقية الواضحة، بالإضافة إلى أدلة القرآن الكريم عن النشأة الأولى واحياء الموتى والبعث والحساب وحتمية الثواب والعقاب. كما يبيّن الكتاب سبل الضلال والغوائل التي تصرف الانسان عن الحق، والفرق بين منازل المؤمنين ومنازل الكافرين».

الكتاب الثاني للدكتور حسن هويدي صدر قبل «الوجود الحق» في عام ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ م بعنوان «محاذير الاختلاط» كتبه وهويعمل في عيادته في دير الزور ورد فيه «على افتراءات» مقال للشيخ أحمد حسن الباقوري(*) في العدد ١٦٢ من مجلة العربي. ويقول هويدي أن الباقوري جاء في مقاله «بغرائب يدعي أنه يستقيها من أصول الدين، وماهي من الدين» ويتلخص مقال الباقوري حسب ما أورده هويدي «بدعوتة المرأة إلى مجالس الرجال وحضورها المآدب المختلطة وتربية الرجال على طلب حسن الأحدوثة عند النساء». ويقول هويدي أن افتراءات الباقوري «هي من الوضوح بحيث لاتحتاج إلى رد أومراء ولكن جهل الأكثرية بدينهم اليوم وتكاثر أصحاب الأهواء الواعين إلى هذه البدعة والمزينين لهذه النحلة جعلا من الواجب إيضاح الأمر للناس دفعاً للخطأ والالتباس». ويمضي هويدي قائلاً: «ونحن نقدم هذا الرد على الافتراء على الاسلام مؤكدين حرصه الرفيع على رفع شأن المرأة واحترام كيانها لحفظ كيان المجتمع وثبات أسسه».

قدم الشيخ الباقوري لمقاله ـ حسب عرض هويدي ـ بحديثين نبويين روى معناهما دون إيراد نصيهما:

اصطحاب الزوجة إلى المآدب يطلقها الباقوري دون تقييد، ويقيدها هويدي «لما يتخلل ذلك من المحادثات والابتسامات وتبادل النظرات وغلبة الهوى»..

استقبال الزوجة الضيوف واشرافها بنفسها على تكريمهم لايرى فيها الباقوري غضاضة،

---

* ـ الشيخ أحمد حسن الباقوري وزير الأوقاف في مصر أيام عبد الناصر.

في حين أن هويدي يقول «ليس ثمة استقبال ولاإشراف على التكريم سوى طهي الطعام وتقريبه» .

- عدم الحؤول بين المرأة وبين مجالس الرجال أمر مشروع في رأي الباقوري . ويقول هويدي معارضاً : إن اختلاط المرأة بمجالس الرجال لم يرد به نص من كتاب ولا سنة .
- ويرد هويدي على رأي الباقوري من أن حضور المرأة مجالس الرجال يؤ دبها في سلوكها وكلامها ، قائلاً : «فيالله وللاسلام من فريّة يستحي منها العامة بله العلماء» .

وخلاصة القول أن الدكتور حسن هويدي يعارض اختلاط النساء بالرجال ويتحدث عن «مآسي الاختلاط» . «فإما الحرج أوركوب المعصية» . وهويدعوفي الوقت نفسه إلى الحجاب لأنه يطهر قلوب الرجال والنساء .

وأخيراً يسوق هويدي نصيحة أخيرة للشيخ الباقوري طالباً منه الرجوع عن آرائه ويقول له : «أيها الشيخ إنك ستموت وتعرض على الله وسيسألك عما دعوت إليه الناس . انقذ نفسك ولا تجاذف في دنياك» .

يستوقفنا في موقف الدكتور حسن هويدي من المرأة والحجاب والاختلاط الأمر التالي : الحجاب قليل الانتشار في وادي الفرات ولاتتعدى حدوده المدن وبخاصة دير الزور. أما التجمعات السكانية الزراعية - الرعوية في أراضي الزور والحاوي والبوادي فلا تعرف الحجاب . والاختلاط أمر مفروغ منه تحتمه طبيعة العمل الزراعي والرعوي وتفرضه ظروف السكن الريفي . فالنساء في وادي الفرات ، كما هو الحال في سائر الأرياف ، لاتوجد حواجز تمنعهن من الاختلاط بالرجال بحكم طبيعة العمل والسكن .

ويرى بعضهم أن موقف هويدي هوانعكاس لوضع المرأة غير المنتجة في المدن ، وهو استمرار للحياة الاجتماعية أيام المماليك والعثمانيين وماسبقها من عصور تراجع الحضارة العربية الاسلامية بعد انتشار تجارة الرقيق الأبيض والجواري وظهور تقاليد «الحرملك» .

وكان أحرى بالدكتور هويدي أن يسعى للتبشير بآرائه بين نساء أرياف الفرات قبل أن يطلب التوبة من الشيخ أحمد حسن الباقوري . وكيف سيوفق الدكتور هويدي بين عمل المرأة في الحقل وفي نشاطات تربية المواشي وبين حجبها عن الرجال؟ . . ومن أين سيتوفر للفلاح ، والراعي العادي امكانية بناء دار واسعة الأولى للرجال والثانية للحريم؟ . . .

- ثمة موقفان متباينان انطلقا من مدينة دير الزور: موقف الدكتور حسن هويدي الداعي إلى

الحجاب وعزلة المرأة والشك فيها وفي الرجل وكأنهما ذئاب كاسرة وبين موقف الباحث الديري (من دير الزور) عبد القادر عياش في كتابه «الاسرة في وادي الفرات» المطبوع في دير الزور بلا تاريخ ويرجح أن الطبع تمّ في الستينات. والعياش توفي في أوائل السبعينات.

سننقل مقاطع من كتاب العياش لنرى طوباوية واستحالة دعوة الهويدي في مقاومة «الاختلاط»، اختلاط الرجال بالنساء والعمل سوية في ظروف المجتمع الريفي الفراتي في منتصف القرن العشرين، كتب عياش:

«وليس لكثير من الأسر الريفية أرض تبني عليها بيوتاً من حجر ولذلك تقيم تحت بيوت من الشعر، حيث، لاتعليم ولا رعاية صحية ولا أمن. . ولا من يحزنون. . . وإذا لم يستطع العريس أن يملك بيت شعر، حفر في الأرض حفرة مستطيلة وسقفها بالعيدان والقش والطين لايواء زوجته وأولادهما. هذه الحفرة تسمى دبدابة أو دابة. واحياناً تشاركه نعجته أو نعاجه هذا المأوى. . . ».

لا شك أن هذه الصورة تغيرت الآن وأصبح بإمكان أكثرية الشبان من الفلاحين بناء غرفة أوغرفتين من الأسمنت. وعلى الرغم من ذلك فإن هذه الغرف الاسمنتية لاتوفر الظروف الملزمة لحجب المرأة عن الأنظار. . . .

وقد أدى توسع الاستثمار الزراعي الرأسمالي وتوسع «المشاريع الزراعية»، التي قامت على زراعة القطن وغيره إلى تشديد وتيرة استثمار الاسرة الريفية (الفلاحية ـ البدوية) الفراتية وبخاصة المرأة، التي كان لها ولايزال دور هام في عملية التعشيب وجني القطن وغيره من الأعمال وحول هذا الموضوع كتب عياش:

«تعوّل المرأة المتزوجة في الأسرة الريفية بمعيشتها على كدها الشخصي بما تقوم به من الأعمال الريفية من لقاط واحتشاش الحشيش وبيعه وتربية الدواجن وبيع البيض والفراخ الزائدة وتربية الماشية القليلة وصنع الجبن والزبدة وبيعها في سوق القصبة أو المدينة. . إن وظيفة المرأة الريفية أن تؤمن النسل وتخدم الرجال وتشبع غرائزهم الجنسية. . يبيعها وليُّها باسم الزواج لمن يدفع ثمناً أكبر باسم المهر «السياق» دون أن تؤخذ موافقتها. . . وفي المدينة، يقول عياش «إن سيادة طبائع البداوة في السكان لاتزال راسخة، والزواج يتم في المدينة بدافع الجنس والمنفعة».

حول هذا الـوضـع المتخلف للنسـاء والاستعبـاد الجاثم فوق رؤ وسهن والمتمثل في الرجل (الزوج) والمالك الرأسمالي الزراعي والتاجر وبورجوازية المدينة الطفيلية يؤكد عبد القادر عياش في كتابه «الأسرة في وادي الفرات» ان الحل هو تحرير المرأة وانعتاقها من تلك العبوديات والانتقال بها من التخلف إلى التقدم.

هذان موقفـان متبـاينـان ـ نبعـا من ديـر الـزور ـ حول المـوقف من المـرأة والتطـرق لمشكـلاتهـا، موقف هويـدي السلفي، الـذي لايتعـرض لحـالـة المـرأة الاقتصـاديـة ـ الاجتمـاعيـة، ومـوقف عيـاش النهضـوي التنـويـري، الـذي يصف الـوضـع الاقتصـادي الاجتماعي للمرأة داعياً إلى تحريرها وانعتاقها من العبودية . . .

٣ ـ الدكتور نبيل الطويل

ولـد في الـلاذقية عام ١٩٢٧ وعاش يتيماً في كنف والدته ولكنه أتمَّ دراسة الطب في الجـامعـة الامريكية في بيروت وحصل على دبلوم اختصاص بحفظ الصحة وطب المناطق الحارة من انكلترا، وماجستير اختصاص في ادارة الخدمات الصحية من الولايات المتحدة الامريكية.

لانعلم مدة عمله الطبي في الـلاذقيـة قبـل انتخابه، ممثلاً لتيار الاخوان المسلمين، نائبـاً عن الـلاذقية في المجلس النيابي (برلمان الانفصال) ١٩٦١ ـ ١٩٦٢. ثم تقلد وزارة الصحة ممثلاً لتيار الاخوان في وزارة خالد العظم (٧/ ٩/ ١٩٦٢ ـ ٨/ ٣/ ١٩٦٣) ويبدو أنه اضطر على أثر نجاح حركة ٨ آذار ١٩٦٣ ومجيء القوى الوحدوية وبالتالي حزب البعث إلى السلطـة إلى مغـادرة البـلاد والعمـل ـ نظن بمسـاعـدة السعودية ـ بهيئة الأمم المتحدة متنقلاً بين أرياف افريقيا وجنوب شرقي آسيا كخبير رئيسي بمكافحة الملاريا وامراض الطفيليات.

بعـد أن اكتسب نبيـل الطـويـل خبـرة من خلال جولاتـه، كخبير في هيئة الأمم، في بلدان العـالـم الثـالـث شرع يؤلـف ويعـرب كتبـاً عدة «عملاً بتوجيه الرسول من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منا» وبفضل انتاجه الفكري أصبح نبيل الطويل من ألمع أطباء تيار الاسلام السيـاسي وأكثـرهم انتـاجـاً ومعرفة بأحوال البلاد الاسلامية. فهو كما وصفته احدى الكتب

«الطبيب الأديب» ، الـذي «يقـدم دراسـة اجتمـاعية اقتصادية ثقافية لمجتمعات المسلمين التي شاهدها» .

وتتناول كتب الدكتور نبيل الطويل ـ تأليفاً وتعريباً ـ أمرين رئيسيين :

- البـرهنـة على مصـداقيـة الفكـر الـديني اعتمـاداً على معطيـات العلوم الطبية والأزمات الاخلاقية ، التي تعصف بعالم الغرب .
- الاهتمـام بفقـراء المسلمين والعمـل على تغيير واقعهم المرير دون الغوص في الأسباب الحقيقية والعوامل العميقة للحرمان والتخلف في ديار المسلمين .

أول كتاب ـ بين أيدينا ـ للدكتور نبيل صبحي الطويل صدر عام ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ في بيـروت عن مؤسسـة الـرسالة بعنوان : «الأمراض الجنسية» ، وهو ـ كما عرفه المؤلف ـ بحث طبي اجتماعي مبسط في الأمراض التي قد تنجم عن الاتصالات الجنسية المختلفة بين الـرجـل والمـرأة ، ومـدى تأثير هذه الأمراض على الجسم والعقل والنسل واخلاق الفرد والمجتمـع . وتصـدرت صفحـة الغـلاف الـداخليـة الآيـة القرآنية : «ولاتقربوا الزنا إنه كان فاحشـة وسـاء سبيـلا» . وقام الطويل بإهداء الكتاب «إلى كل مؤمن خلوق يسعى للمجتمع الفاضل حيث الحق . . . والقوة . . . والحرية» .

كتب الطـويـل في المقـدمـة أن سيـلاً جارفاً من الكتب الجنسية اغرق أسواق العالم العـربي وهي إمـا كتب رخيصـة تافهـة تدغـدغ غرائـز المـراهقين وتحـرق أعصاب الشباب والفتيات ، أو كتب تدعو بصراحة ومنهجية!!! للفوضى الجنسية الاباحية الاجتماعية .

وكتـاب الطـويـل ماهـو إلا دراسـة للأمـراض العضـويـة والمجتمعيـة التي تنتج عن الاتصـالات الجنسيـة . . . الاتصـالات التي لايحصنها وازع القيم ولاتهذبها وتقننها تعاليم الدين الصحيح . ويذكر الطويل أنه نشر قبيل اثنتي عشرة سنة من تاريخ كتابه هذا (١٩٧١) أي أواخـر الخمسينـات كتيبـاً في موضـوع «الـزنا والأمراض الجنسية» ، إلا أنه لم يكن وافياً بالغرض فقام بتأليف كتابه هذا ، الذي تناول فيه الأمراض الزهرية ، في وقت لم يكن مرض الايدز قد عرف عالمياً .

وفي ختـام كتـابـه يسأل الطـويـل : ماهـو العـلاج؟ . . . وننقـل هنا إجابته الحرفية : « . . . . إن مشكلة الـزنـا في هذا العصـر المـائـع والمجتمـع المضطرب والقيم الاخلاقية المتـدهـورة والصـراع المادي المستحكم ، ليست سهلة الحل إذا عولجت على أساس أنها

عارض منفصل عن بقية أوجه الحياة. . . والاسلام كفيل بحل مشكلة الزنا في المجتمعات المسلمة. . . عندما تكون له السيادة فيها، أما الترقيع الاجتماعي الجزئي فليس من أسلوب الإسلام ولامن منهجه».

بعد الجنس ومضار الزنا ألّف الطويل كتاباً في «الخمر والإدمان الكحولي» صدرت طبعته الأولى في بيروت عام ١٩٨٠ والطبعة الثانية عام ١٩٨٥. ثم قام الطويل بإصدار كتيب حول الموضوع نفسه عام ١٩٨٩ في مكة المكرمة. وهوملخص معدل لمحاضرة القاها الطويل في المؤتمر الخامس للطب الاسلامي الذي عقد في القاهرة ٢/ ٣/ نوفمبر ١٩٨٨.

إن الانتاج العالمي للخمر ازداد بنسبة خمسين في المئة مابين عامي ١٩٦٧ و١٩٨٠. والعالم الاسلامي وشبابه بالذات معرض لآفات وباء ادمان الخمر. ويرى الطويل أن عملية «التغريب ـ Westrnization» والعَلْمَنَه والتفلّت من الضوابط الاخلاقية الشرعية زادت من انتشار عادة شرب الخمر في مجتعات المسلمين، مهملاً الأسباب الأخرى والأهم للإدمان وساعياً لتوجيه نار انتقاده على الحداثة، التي يسميها التغريب، والعلمنة. وثمة وجهات نظر متباينة حول هذه الأمور وإتمام الحداثة والعلمنة كاسباب للإدمان أمر مستغرب!!! ويعتقد الطويل أن إيقاف هذا الطوفان لايتم «إلا بالعودة للسلوكيات الاسلامية». ويهدف كتيب الطويل إلى التوعية والتذكرة والتبصير بداء الخمر ومشكلاتها في عالم اليوم «والحل الاسلامي لها بالوقاية والاجتناب الكامل لهذا الرجس».

والعلاج، كما كتب الطويل، هو«الاسلام فقط، هوبكل بساطة، المؤهل الوحيد لقطع دابر هذا الوباء فهويحرم تعاطي الخمر والخمر في كل مسكر».

ومن التدابير التي يدعو الطويل لاتخاذها التالية:

- التوقف عن انتاج المشروبات الكحولية محلياً في عالمنا المسلم وإيقاف استيرادها.
- التربية الاسلامية.
- إزالة كل دعوة أودعاية مغرية بتناول المخدرات.
- ايقاف مد عملية التغريب بالتوجه الصحيح والبرامج التعليمية النابعة من ديننا وتراثنا ومصلحتنا.

لم تقتصر كتابات الطويل على الخمر والزنا وما تسببه من مشكلات أو كوارث بل

تعـدتهـا إلى بحث جوانب من الـواقـع الاقتصادي الاجتماعي من المنظار الديني للطويل. فقـد لفت نظـره استمـرار غيـاب المضمـون الاجتمـاعي، بمفهـومـه العام، عن المواضيع الـدعـويـة في أكثـر أدبيـات الاسلاميين وأغلب أعمالهم الميدانية. وعلى الرغم من صدور بعض الكتب القيمة ـ كما وصفها الطويل ـ التي عالجت العدالة الاجتماعية وحقوق العمال ومكافحة الظلم والاستبداد والفساد في الاطار الاسلامي، إلا أن الكثير من توجيه الموجهين لايزال ينصب على تفاصيل الشعائر التعبدية ولايركز بقوة على مبدأ مكافحة الظلم ومجاهدة الظالمين قلباً ولساناً ويداً.

ولهـذا قام الـدكتـور نبيل الطويل بإعداد دراسة تحت عنوان: «الحرمان والتخلف في ديـار المسلمين» نشـرتهـا عام ١٩٨٤ في الـدوحة (قطر) رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في دولة قطر في سلسلة «كتاب الأمة» الفصلية. واعيدت طباعة الكتاب بعد عام في مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٥.

من محتـويـات هذا الكتـاب: الفقـر، تراكم الـديـون الخارجية على كثير من الدول المسلمة، التركيب السكاني الديمغرافي للمجتمعات الفقيرة، بعض الأمراض الخطيرة في ديار المسلمين، الأولويات في العمل الصحي....

ويرى الطويل أن «التخلف المادي الذي يخيم على المجتمعات المسلمة هو نتيجة طبيعيـة للتخلف الفكـري» ولهـذا كمـا يقـول «نحن بحاجة إلى إيمان عميق واخلاص في العمـل» من أجـل «كسـر طوق التخلف الـذي يحيـط بنا». والتنمية في المفهوم الاسلامي للطـويـل «تستهدف الانسان أولاً وأخيراً فهي ليست تنمية غربية (رأسمالية أوماركسية)، بل تنمية اسلامية الأسلوب والغاية».

حول هذا الأسلوب لبلوغ التنميـة يغـرق الطويل في البلاغة الانشائية والجمل الرنانة دون أن يقـدم آراء محسوسة ملموسة واقعية، ومع ذلك نجد الطويل يوجه نقداً لطيفاً لأولئك الأقـوام الـذين يوجهـون جهـودهـم المـاليـة لدعم جاليـات مسلمة في الغرب أكثرها مكتف مادياً، و«لايستفيد من الأموال المصروفة إلا قليل من المرتزقة الذين يعيشون على الاسلام ولايعيشـونـه» والأولى «الدفاع عن كرامة المسلمين المحرومين وحمايتهم من الغزو الأجنبي في عقر دارهم» و«تركيز الدعوة على عشرات ملايين المسلمين المرضى والجياع في افريقيا وآسيا».

أمـا ملايين بل مليـارات الـدولارات التي يودعهـا أغنياء العرب المسلمين في البنوك الأوروبيـة والأمـريكيـة فلا يتعـرض لهـا الطويل، والأسباب معروفة والطويل يتجنب كشف العلاقة الاستغلالية بين شركات النفط الكبرى الأجنبية وأمراء النفط وملوكه من المسلمين، الـذين يطلق عليهم «ذوي القـربى من أولي الأمـر». أن ثمـة اسـدال للستـار على الأسباب الحقيقيـة للتخلف وحجب الحقيقـة عن أعين المسلمين الفقـراء، الـذين يسعى الطـويـل لانقـاذهم، مكتفيـاً بسـرد الأسبـاب السطحيـة والظواهر الهامشية للتخلف والحرمان والفقر ومبتعداً عن الغوص في الأسباب العميقة الكامنة في استغلال «المسلمين الفقراء» وغيرهم من قبـل الحلف بين طبقـة رأسمـالية احتكارية في الغرب وفئات حاكمة في «ديار الاسلام» وكلا الطرفين يتقاسمان الغنائم ولايصل إلى «المحرومين» إلا الفتات.

ومـع ذلـك علينـا ألا نظلم الطـويـل وجهـوده فهـو بدفـاعه عن فقراء المسلمين يلقي الأضواء على جوانب من الحقيقة، لانجدها في كتب الشعائر التعبدية ـ حسب تعبيره. وهو يعلن حرباً على الظلم السائد بأنواعه في ديار المسلمين يمارسه الأجنبي في استباحة أرض المسلمين، وذوي القربى من أولي الأمر والسعة. وهو يرى أن المجتمعات الاسلامية فاقدة للحصـانـة الاسـلاميـة وواقعـة بين حجـري رحى تطحنها طحناً: حجر الجهل والانحراف والخـرافـة والاذلال على يد السلطـة ومظـالمهـا من جهـة.. وحجر الفقر والمرض والجوع والعطش... التي تكـرسهـا كلهـا... السلطة إياها في سبيل أهوائها وأهواء من جاؤ وا بها إلى سدّة الحكم.

من أجـل وعي هذا الـواقـع التعيس قام الـدكتـور نبيل الطويل بتأليف كتاب بعنوان: «الغذاء والماء في عالم المسلمين الفقراء». نشرته مؤسسة الرسالة في بيروت عام ١٩٨٨. ولم يكن هدف الطويل من وراء كتابه وعي الواقع فحسب بل العمل على تغييره. والطويل يريـد عن طريق «نظـام الاسـلام كمـا أُنزل على قلب محمد بن عبد الله» إزالة التناقض بين الوساخة والأمراض والآلام التي يعاني منها فقراء المسلمين وبين المال والخبرة والمصادر الكافية.

هذا هو الخـط الفكـري للطبيب نبيـل الطـويل، الداعي إلى نظام إسلامي متكامل، سار عليه في بقية كتبه المؤلفة وهي عدا ماذكرنا: «أحاديث في الصحة»، «الطب بين التأمين والتأميم»، «التدخين وسرطان الرئة والأمراض الأخرى»، «الأسلحة الجرثومية والكيماوية».

حواشي الفصل الخامس

١ ـ حول حياة الجندي ونشاطه اعتمدنا على مقابلتين أجريناهما مع شخصيتين شيوعيتين حمصيتين يعرفان الجندي وعملا معه في السياسة وهما: الاستاذ ظهير عبد الصمد (مقابلة في دمشق بتاريخ ٢٥/ ٣/ ١٩٩٤)، والمحامي موريس صليبي (مقابلة بتاريخ ٢/ ٣/ ١٩٩٤).

٢ ـ جريدة «نضال الشعب» العدد ٨٧ في ٣/ ٨/ ١٩٩٣، ص ٥.

٣ ـ ذكر نجاة قصاب حسن في كتابه: «جيل الشجاعة حتى عام ١٩٤٥»، دمشق ١٩٩٤، ص ٤٨٤ إنه سجن سوية مع الدكتور نسيب الجندي عام ١٩٤١. وكانت عائلة زوجة الجندي من آل الساطي ترسل له الأطعمة الممتازة. وكان الجندي كريماً شهماً يطعم رفاقه في السجن من زاده.

٤ ـ مقابلة مع ظهير وموريس انظر الحاشية رقم ١.

٥ ـ التقرير موجود في مديرية الوثائق التاريخية. اضبارة الانتداب.

٦ ـ مقابلة مع ظهير وموريس انظر الحاشية رقم ١.

٧ ـ مقابلة مع الدكتور نبيه رشيدات في ١٠/ ٩/ ١٩٩٣

٨ ـ «الطريق» البيروتية في ١ حزيران ١٩٤٢، ص ٢٤.

٩ ـ جميع المعلومات الواردة عن الدكتور الياس ورد مستخلصة من لقاء معه في بيته بحلب بتاريخ ١١/ ٢/ ١٩٩٤.

١٠ ـ استقينـا معلومـاتنا عن د. رشيدات من مقابلتين أجريناهما معه الأولى بتاريخ ٤/ ١/ ١٩٧٤، والثانية بتاريخ ٢٠/ ١٢/ ١٩٩٣. والنصوص المأخوذة من كتاباته أشير إلى مصدرها في ثنايا النص.

١١ ـ أخـذنـا المعلومـات الخاصة عن الدكتور سمير التقي من مقابلة أجريناها معه بدمشق بتاريخ ١٥/ ٤/ ١٩٩٤. أما مصادر نتاجه الفكري فقد اشرنا إليه في النص.

١٢ ـ حول تاريـخ حزب البعث العـربي الاشتـراكي راجـع: «المنـاضل» المجلة الداخلية لحـزب البعث العـربي الاشتراكي، الحلقات المنشورة اعتباراً من العدد ٢٤٦ كانون الثاني ـ شباط ١٩٩١ تحت عنوان صفحات من تاريخ الحزب. ودندشلي مصطفى: «حزب البعث العرب الاشتراكي ١٩٤٠ ـ ١٩٦٣. بيروت ١٩٧٩.

١٣ ـ المصـدر السـابق. وللدكتـور مدحت البيطار شريط مسجل بصوته محفوظ في القيادة القومية. انظر «المناضل» العدد ٢٦ ص ٣٥.

١٤ ـ المصدر نفسه.

١٥ ـ «من هم في العالم العربي» دمشق ١٩٥٧، مادة بيطار.

١٦ ـ المعلومات عن الدكتور عثمان مأخوذة من مقابلتين معه في مكتبه في القيادة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية بتاريخ ٢٧/ ١١/ ١٩٩٣ و٤/ ١٢/ ١٩٩٣.

١٧ ـ ذكر هذه المعلومات الدكتور عبد الرحمن شقير في مذكراته التي سترد فيما بعد.

١٨ ـ «من هم في العالم العربي» دمشق ١٩٥٧ ص ٧٧.

الفصـل الســادس

مشاهير الأطباء في مرحلة مابعد الاستقلال

لن نتعرض في هذا الفصل للأطباء المبدعين فكرياً في مرحلتي النهضة السابقتين . مرحلة الحكم الاقطاعي العثماني والكفاح ضد الاستبداد والتحجر ومرحلة النضال الوطني ضد الانتداب الفرنسي . كما لن نتطرق إلى من تناولناهم بالبحث في معرض الحديث عن الأطبـاء والأحـزاب السيـاسيـة ، إذ أن بعضهم أبدع نتاجاً فكرياً أشرنا إليه في موضعه . ومن الطبيعي ألا يجـري البحث هنـا عن الأطبـاء الـذين ألفـوا أو ترجمـوا كتباً طبيـة لطـلاب الجامعات ، فليس هذا الأمر من أغراض هذه الدراسة .

سنستعرض في هذا الفصل أشهر الأطباء ، الذين أبدعوا نتاجاً فكرياً (سياسياً) أو أدبياً في المرحلة ، التي يسميها البعض ، المرحلة الثالثة للنهضة ، وهي مرحلة مابعد الاستقلال السياسي الفعلي أو الشكلي . ويُطلق على بعض سنوات هذه المرحلة اسم «الثورة» ، التي تجـاوزت النهضـة إلى مرحلة أرقى . ولكن هذه «الثـورة» سرعـان ما تفتتت تحت ضربـات أمـواج العـوامـل الـداخلية والخـارجيـة المتعددة ، مما أوصلنا إلى المرحلة الراهنة ، التي تراجعت فيها العقلانية وعاد إلى الساحة الفكر الجامد المتزمت والمنغلق .

الشيخ الطبيب محمد أبو اليسر عابدين (١٨٨٧ - ١٩٨١)

المفتي العام للجمهورية السورية (١٩٥٤ - ١٩٦١)، رئيس المجلس الاسلامي الأعلى (١٩٥٥) مدرس الأحكام الشرعية والقانونية في معهد الحقوق، استاذ النحو العالي في كلية الشريعة بعد تأسيسها (١٩٥٥)، طبيب (١٩٢٨) ومختص في الأمراض الداخلية . . . ينتهي نسبه - حسب رواية أعلام دمشق - إلى الحسن السبط والسيد عبد الغني أخو السيد محمد أمين فقيه الحنفية وصاحب الحاشية الشهيرة المعروفة بحاشية ابن عابدين.

ولد محمد أبو اليسر عابدين في دمشق عام ١٣٠٧ هـ ١٨٨٧ م، وهو ابن الشيخ محمد أبو الخير عابدين مفتي دمشق سابقاً. تلقى تعليمه في المدارس الابتدائية والاعدادية وفق المنهاج العثماني آنذاك. أخذ عن والده وعن الشيخ سليم سمارة الدمشقي وعن الشيخ أمين سويد الدمشقي وعن المحدث الأكبر الشيخ محمد بدر الدين الحسني واستجازهم فأجازوه جميعاً. كما نال الإجازة من جده السيد أحمد بالطريقة النقشبندية المجددية وبالطريقة الخلوتية المهدية الكلاوية. عام ١٩١٤ عُيّن مدرساً عاماً وإماماً وخطيباً، ثم عُيّن عام ١٩٢٠ قاضياً للبقاع. ولكنه سرعان ما استقال من وظيفة القضاء ليلتحق عام ١٩٢٢ بالمعهد الطبي بدمشق، وتخرج طبيباً عام ١٩٢٧. وهكذا قرن أبو اليسر عابدين بين دراسته على الأشياخ وبين دراسته النظامية في المدارس الكونية، وبلغ الذروة مع تخرجه طبيباً نال على أثرها درجة التعادل (الكولكيوم) الفرنسية، وأخذ يزاول مهنة الطب في عيادته في حي سوق ساروجة مسقط رأسه[1]. والملفت للنظر هو جمع الشيخ أبو اليسر عابدين للعلوم الدينية والطبية وممارسته لهما في آن واحد. وكان من النادر في ذلك الزمن أن يتكلم شيخ اللغة الفرنسية إلى جانب العربية والتركية والفارسية، كما هو حال الشيخ الطبيب أبي اليسر عابدين.

أثناء دراسته للطب عُيّن أبو اليسر عابدين أستاذاً لتدريس الاحكام الشرعية في معهد الحقوق بالجامعة السورية واستمر في هذا المنصب حتى أحيل على التقاعد في عهد حسني الزعيم ١٩٤٩. ولكنه استمر في تقديم الاستشارات الحقوقية واعطاء الدروس

لطلاب العلم الديني بالإضافة إلى مزاولته لمهنة الطب في عيادته. وبعد ذلك عُيّن في ١٢ حزيـران ١٩٥٤ في منصب المفتي العـام للجمهـوريـة السورية، واستمر في هذا المنصب إلى أيام الوحدة فاستقال أو أقيل لأنه لم يكن على وفاق مع بعض رجالات الحكم آنذاك ثم عاد إلى منصبـه سنـة ١٩٦٣ . وقد خلّف أثنـاء ولايته للافتاء فتاوى نادرة. كما انتخب عام ١٩٥٥ رئيسـاً للمجلس الإسـلامي في دورة ذلـك العام. زار العديد من الدول واطلع على مختلف أوجه نشاطاتها وثقافاتها مثل الاتحاد السوفياتي ويوغوسلافيا والصين الشعبية. كما وطـد ـ كمـا كتب ابنـه عزيـز ـ صداقات عمرية قامت على تبني الدعوة إلى الحق والأخلاق وحسن المعـاملة مع رجـال الـدين المسيحي الـذين يكنون له كل محبة واحترام، وشاركهم مناسباتهم وأفراحهم وأحزانهم[٢].

ترك الشيـخ الطبيب أبـو اليسـر عابدين مجموعة من المؤلفات طبع بعضها في حياته وبقي الآخر مخطوطاً، إلى أن قام ورثته بنشرها مؤخراً. وسنستعرض أهم مؤلفاته وهي :

١ ـ «المحـاضـرات في أصـول الفقه الإسلامي»، إملاء الاستاد الفقيه الحكيم الشيخ أبي اليسر عابدين على طلاب المعهـد الحقـوقي بدمشق، كل نسخـة لاتحـوي ختم المؤلف تعد مختلسة، طبع سنة ١٣٤٧ هـ وسنة ١٩٢٨ م، المطبعة البطريركية الأرثوذكسية بدمشق.

وضع الشيخ أبو اليسر مقدمة لكتابه نقتطف منه الفقرات التالية: «باسم سبحانه.. من المعلوم أن علم الأصول علم لايُدرك غوره إلا المجدون. وكانت مؤلفاته صعبة المنال على غير البارع فيه. ولقد عانيت تدريسه في معهد الحقوق بدمشق أياماً طوالاً فرأيتهم يستصعبون فهم ماألقيه عليهم من العبارات الفقهية الأصولية، حتى اضطررت لمجاراتهم حرصاً على افادتهم.. ولقد بذلت الهمة في جعـل مسـائله وأمثلتـه من المسـائـل المـدنيـة أو الحقوق الشخصية حسب الإمكان زيادة في تقريبه للافهام وإن كان رأي البعض إبقاء ماكان على ماكان... ولكن ضرورة الإفهام أوجبت تغيير بعض الأمثلة والإتيان ببعضها من الفنون من غير جمود على القديم مع ابقاء القواعد المقررة...».

٢ ـ «دروس مختصـرة في أحكـام الـزواج» القـاهـا الأستاذ الدكتور الشيخ أبي اليسر عابدين على طلاب المعهـد الحقـوقي العـربي بدمشق. ١٣٥٦ ـ ١٣٥٧ ـ ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ . طبـع في مطبعـة الجامعة السورية. ثم صدر الكتاب في طبعة ثانية عام١٩٤٧ .

ومن الأمور التي تناولها الشيخ الطبيب: تعريف الزواج، شروط انعقاد النكاح، نكاح المتعة، موانع النكاح ومحرماته، الرضاع، المصاهرة، أبواب المهر، أنواع الطلاق....

٣ ـ وثمـة ثلاثـة كتب جامعيـة صدرت للدكتـور أبي اليسـر عابـدين وهي: «دروس في أحكـام الـوصايا» (١٩٤١)، «كتاب النكاح» (١٩٤٦)، «دروس الفرائض» (١٩٤٣).

٤ ـ «أغاليط المؤرخين» ـ دمشق دار العروبة ١٩٧٢ . تناول الشيخ الدكتور أبو اليسر العصرين الراشدي وأوائـل الأمـوي ورمى من وراء تأليف تصليح أغـلاط المؤرخين . والمقـدمـة توضـح لنـا أهـداف المؤلف . فلنقرأ منها الفقرة التالية :

«أما بعد فإن علم التاريخ مرغوب لدى العلماء والجهال ، لاحتوائه على غرائب الأمور وشواهد الأحـوال ، وكنت راغبـاً فيـه وراغبـاً عن الجمع فيه لأن التاريخ لا يستر عورة الرجال ، ولكن شاقني له ماتعاقب علينا من الدول بقليل من المهل ، فرأت بلادنا مالايرى بأجيال من المستعمرين الذين قتلوا كبـاريـا الأبطـال ، وأيضـاً ماشـاهـدته من الميل مع الأهواء من مؤرخي عصرنا بلا افتراء وطرح أهلية الـروايـة من غيـر اعتنـاء ، ومجـاراتهم لحـاكم الأرض دون حاكم السمـاء ، فتـرى الكاتب يرم اليوم وينقض بالغـد ، لمـا يعتـريـه من الجـزر والمد . . . وأيضاً ماشاهدته من اغلاط المؤرخين ، القدماء والمعاصرين . . اكتفي بانتقاد وتصحيح ماصحّ عندي خطؤه بيقين من كلام المؤرخين» .

يستوقفنا في كتاب «أغاليط المؤرخين» فصل شيق تحت عنوان : «في سبب تغرق المسلمين وتأخرهم» .

يرى الشيـخ الـدكتـور أبـو اليسـر عابـدين ان سبب تأخـر المسلمين وتفـرقهم يعود إلى أمرين أساسيين نتج عنهما أمر ثالث . السبب الأول هو «الغلو بالدين والورع المبين لدرجة الوقوف مع أوامره ونـواهيه كما كان بزمن المشرع الأعظم صلى الله عليه وسلم وخليفتيه الإمامين الطاهرين» والسبب الثاني يعود إلى «المتساهل فيه (في الدين ـ ع . ح .) المستمر حتى وصل إلى نبذه بالكلية» . ويرى الـشيـخ عابـديـن أن الـسبب الثـاني غلب الأول «ووصـل إلى حد الكفـر والضـلال والفسق والاضمحـلال» . أمـا السبب الثـالث فهـو «حب الـريـاسـة الذي قضى على السببين الأولين بتوالي الـزمـان» . ولكن «الـدواء» ـ في رأي الشيخ أبي اليسر ـ «لاينفع مع استمرار أسباب الداء» . «ولا أمل بالاصلاح إلا أن يأتي المجدد الأكبر عيسى عليه السلام» .

٥ ـ «قطـوف دانية من شجرة الحِكَمْ العالية» جمع الطبيب الشيخ محمد أبو اليسر عابدين رحمه الله . هذا الكتـاب عثـر عليـه ابن أبي اليسر مخطوطاً وقام بنشره عام ١٩٨٣ . انتقى الشيخ أبو اليسر الحِكَمْ مما قرأه «في بطـون الـدفـاتـر أوسمـح به الفكر الفاتر . لأن الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها» .

والحكمـة ـ في رأي الشيـخ الطبيب ـ «لهـا لفـظ ومعنى ، وظـاهـر وباطن . فاللفظ للعامة ، والمعنى للخاصة ، والظاهر للعالمين ، والباطن للعارفين . إذ الحكمة الباطنة نعمة الله عز وجل . . » .

٦ ـ «حكـايـا الصـوفية» دار البشائر ١٩٩٣ . هدا الكتاب كان على أوراق وقصاصات متفرقة جمعها ثلاثة من محبي الشيخ ونسقوها ووضعوا لها مقدمة أوضحوا فيها أن الشيخ أبو اليسر احتار من كتب التفسير والتـاريـخ والتـراجم والطبقـات أحاديث وأخباراً تروّج النفوس وتؤنسها بأخبار كبار الأولياء الصالحين والعلمـاء المخلصين ممن نذروا لله نفـوسـه وانهكـوا في سبيله مُهَجَهم وأجسادهم ، فحرت الحكمة على ألسنتهم فتتبع الناس سيرهم وأخبارهم ، وتأثروا بسلوكهم .

ويقـول واضعـو المقـدمة إن «ماجاء من حكايا الصالحين مخالفاً لظاهر الشرع وتعاليمه فرأي

المؤلف (الشيخ أبو اليسر عابدين) فيه واضح وصريح، ومنهجه فيه صحيح، قد بيّنه في فتواه لأحد سائليه عن هذا الأمر فقال[٣]: «إن السادة الصوفية أرباب الأحوال المرضية يقولون على حَسب واردهم بمُوهم الأقوال، فما وافق الشريعة أُخذ، وماخالفها رُدَّ ونُبذ، لضعف إرادتهم، ولأنهم متَّبعون لامُشرِّعون»..

وقد حوى هذا الكتاب من خلال حكاياته جميع معاني التصوف من زهد في الدنيا، وتوكُّل على الله، ورغبة في الطاعة، وجبر على الحرمان. والح الشيخ أبو اليسر على قضية «حسن الظن بكرامة الأولياء» وتفسير كلامهم، التي يراها بعضهم مخالفة لظاهر الشرع.

٧ - «الإيجاز في آيات الإعجاز» للطبيب الشيخ محمد أبي اليسر عابدين رحمه الله. تحقيق الشيخ محمد كريم راجح المطبوع في عام ١٩٩٣. تناول الشيخ أبو اليسر في هذا الكتاب عظمة الإعجاز في القرآن، وقام بتعريف التفسير والتأويل والاختلاف في ذلك. وفصول الكتاب تتضمن مواضيع متعددة منها: أحوال الآخرة، الإخبار بالغيب، ذكر الأمم السابقة، آيات التهديد للأمم العاصية، آيات الأحكام الشرعية، مكارم الأخلاق، احتمال الآيات لمعان متعددة....

٨ - «الأعداد من القرآن والحديث والأخبار». هذا الكتاب نشره ورثة المؤلف عام ١٩٩٤ وقام بإعداده ووضع مقدمته ثلاثة من محبي الشيخ. جاء في كلمة المعدين: «... وبعد، فإن للعدد خاصية مميزة، وسراً خفياً قد لاندري كنهة والله سبحانه وتعالى ذكره في كتابه الكريم جلياً واضحاً في أكثر من آية... فلا غرو أن نجد كثيراً من العلماء قد ذكروا العدد في مؤلفاتهم وبنوا عليه حقائق كثيرة، واكتشفوا فيه أسراراً غريبة».

رتب الشيخ أبو اليسر كتابه على عنوانات الأعداد هجائياً، إذ جعل التسعة قبل الخمسة لأنها تبدأ بحرف التاء وهكذا.. وعلى الرغم من أن الجامع لهذا الكتاب هو العدد غير أننا نجد الشيخ أبي اليسر قد اغناه بكل فن وعلم. فمن التفسير إلى الحديث إلى التراجم والتاريخ مروراً بأقوال أئمة الدين وفقهاء الأمة. وبراه معرجاً على بساتين الأدب، جامعاً مها ماطاب تمره، ودنا قطافه، ذاكراً أخبار الخلفاء مؤرخاً وفيّات بعض الأعيان. ويختم معدّو الكتاب[٤] مقدمتهم بالقول: «إن كتاب العدد طريف في بابه حلو في منهاجه غني في مادته».

يمثل الشيخ الطبيب أبو اليسر عابدين تياراً دينياً منفتحاً هو - في بعض جوانبه - امتداد لتيار التنوير الديني، الذي أرسى أسسه جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده في عصر النهضة العربية أواخر القرن التاسع عشر. ويلاحظ قارىء كتابات الشيخ عابدين ابتعاده عن التزمت والجمود والانغلاق وانفتاح على «الآخر». وتعكس كتاباته وخطه الفكري الأجواء الوطنية المنفتحة في الأربعينات والخمسينات.

الدكتور بشير العظمة (١٩١٠ ـ ١٩٩٢)

ولد بشير العظمة في دمشق حي القيمرية وسكانه من التجار والحرفيين والفقراء. ولم تكن لوالد بشير مهنة أو مورد رزق فقد كان يعيش في كنف أبيه ويتابع حلقات شيوخ الطريقة النقشبندية المنتشرة في دمشق آنذاك، والتي كانت أشبه بأحزاب لسكان ذلك الزمن(*).

انهى تعليمه الابتدائي عام ١٩٢١ وتابع دراسته في مكتب عنبر حيث نال شهادة البكالوريا. انتسب بعدها إلى معهد الطب العربي بدمشق عام ١٩٢٨ ونال شهادة الطب عام ١٩٣٢ ونجح طبيباً مقيماً في المستشفى الوطني لمدة سنتين. بعدها أمضى تسعة أشهر في فرنسا للتدريب على مكافحة السل. وبعد عودته إلى دمشق افتتح عام ١٩٣٥ عيادة واستمر يمارس مهنة الطب حتى عام ١٩٥٨ دون أن يكون له أية مشاركة تذكر في الحياة السياسية الصاخبة في سورية في تلك الفترة. ويعترف العظمة، بجرأة لانجدها عند الآخرين، من أنه لم يشارك في سنوات الدراسة في المظاهرات الطلابية الوطنية الا ماندر. وبشير العظمة يمثل، كما كتب عن نفسه، جيلاً من أبناء «الطبقة الوسطى» التي اجتازت تخوم هذه «الطبقة» لتتربع في مجالس «الطبقات العليا» وتعيش عيشتها منسلخة عن جذورها السابقة ومبتعدة عن أي نشاط عام مهتمة بأمورها الشخصية ورفاهها دون الالتفات إلى حياة البؤس، التي تعيشها الطبقات الدنيا.

فالطالب بشير العظمة المنطوي على نفسه تابع حياته وهو طبيب (١٩٣٥ ـ ١٩٥٨) منعزلاً، إلى حد كبير، عن الحياة السياسية دون أن يهمل مراقبتها. هذا الطالب المنطوي على نفسه والطبيب المهتم بعيادته وشؤونه دخل «بالصدفة» بوابة العمل السياسي ثم دخل التاريخ من أبوابه العريضة بفضل مذكراته، وهذا من نوادر التاريخ.

أعلنت الوحدة بين سورية ومصر في ٢٢ شباط ١٩٥٨ وكان بشير العظمة شأنه شأن الأكثرية الساحقة من الشعب العربي السوري متحمساً للوحدة وشارك، كما يقول في مذكراته، «في تزوير الاستفتاء على الدستور وانتخاب جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية العربية المتحدة، لتبلغ نسبة القائلين نعم ٩٩,٩٨٪ بأن أدليت بصوتي في عدة صناديق. . . .».

يروي العظمة في مذكراته كيف جرى تعينه وزيراً مركزياً للصحة والحياة الرتبية المملة، التي قضاها في القاهرة وهويتسلم هذا المنصب الشكلي إلى أن استقال في منتصف آب ١٩٦٠. وكانت احدى دوافع الاستقالة الاحتفاظ «بالبقية من الكرامة» والعودة إلى قواعده المتواضعة أي العودة إلى ممارسة مهنته كطبيب.

وصل العظمة إلى دمشق قادماً من القاهرة في ٢٠ آب ١٩٦٠ والأجواء في دمشق كما يذكر «توتر وترقب وقصص وفضائح». وكأن «القدر» كان يهيء للطبيب الشامي (الدمشقي) والوزير المستقيل منصباً آخر لم يسع إليه كما هو الحال في المنصب الوزاري. جاء في مذكرات العظمة (ص ٢١٩):

«زارني بعد أيام (من وصوله إلى دمشق - ع. ح.) بعض الزملاء الأطباء يدعمون ترشيحي لنقابة الأطباء السوريين فوافقت. وتطوع عدد منهم في نشاط محموم لضمان التأييد، خاصة بعدأن برزت الأجهزة، وقد رشحت اثنين من الأطباء، (و) توفير الدعم لهما على الرغم من (أي عن طريق) تهديدات هاتفية، وأخبار عن قرب اعتقالي قبل المعركة الانتخابية، وخاصة بعد وصول برقية من نائب الرئيس (عبد الحكيم عامر) يطلب من رئاسة المجلس التنفيذي أن تحول دون انتخابي نقيباً، وأن المعركة سياسية ووراءها الانفصاليون الرجعيون. (على الرغم من ذلك) نجحت في الانتخابات وتفرّغت للعمل النقابي».

وهكذا انتخب بشير العظمة عام ١٩٦١ نقيباً لأطباء سورية وأسس المجلة الطبية العربية وشغل رئاسة تحريرها ثم أصبح مشرفاً علمياً عليها حتى عام ١٩٧٦.

بعد انفصام عرى الوحدة، في ٢٨ أيلول ١٩٦١، بانقلاب عسكري قام به ضباط مشمولون برعاية النظام، تألفت وزارة برئاسة مأمون الكزبري عكست اتجاهات الغرف الصناعية والتجارية والقوى السياسية التقليدية. وتداعت القوى المختلفة لاجتماع وتوقيع بيان يؤيد خطوة الانفصال وإقامة نظام ديمقراطي. وكان الدكتور بشير العظمة نقيب أطباء دمشق من موقعي هذا البيان. وتحت ضغط أصدقاء ومعارف العظمة رشح نفسه لانتخابات المجلس التأسيسي في تشرين الثاني ١٩٦١ دون أن يحالفه النجاح. ويقول في مذكراته أنه لم يقم بأي نشاط انتخابي وكان مسروراً عندما علم في تاني يوم للانتخابات أنه تخلف عن آخر الناجحين بألف صوت.

انتخب المجلس التأسيسي، المؤلف بأكثريته من أعضاء حزب الشعب وكتل التجار

والعلمـاء (المشـايخ) وشيوخ العشائر، ناظم القدسي رئيساً للجمهورية. هذا المجلس قام بتعـديـل قانـون الاصـلاح الـزراعي، الموضوع أيام الوحدة، لصالح كبار الملاك، والغى التأميم عن المصارف والشركات الصناعية، وهذا مما أدى إلى تحركات اجتماعية وسياسية عميقة الجذور وأحدث اضطراباً وبلبلة في القيادات السياسية والعسكرية، التي تحدد عملياً المسار السياسي. وبعد أخذ ورد تقرر تشكيل وزارة مهادنة للتيار الناصري تضم ممثلين عن الأحـزاب والكتـل السيـاسيـة المعتـدلة واختير بشير العظمة دون علمه لرئاسة الوزارة، التي ضمت الأحزاب السياسية المتواجدة على الساحة العلنية مع عدد من الفنيين.

سعت حكـومـة الدكتور بشير العظمة للتخفيف من حدة الهجمات السابقة لقوى كبار المـلاك والـرأسمـاليين على اجـراءات التأميم والاصـلاح الزراعي الموضوعة أيام الوحدة. ولكن وزارة العظمـة بسبب الغليـان الاجتمـاعي والسيـاسي لم تعش أكثر من خمسة أشهر واستقال العظمة في ١٣/ ٩/ ١٩٦٢ وهو فرح بخلاصه من هذا العبء.

تألفت وزارة خالد العظم في يوم استقالة العظمة، الذي عُيّن فيها نائباً لرئيس مجلس الـوزراء. وكـان وجـوده في الوزارة كما كتب في مذكراته يعني «استمرار سياسة المهادنة بين المتنـاحـرين داخليـاً وعربياً». ولكنه سرعان ما استقال من منصبه في منتصف كانون الثاني ١٩٦٣، حيث انتهت الحياة السياسية للطبيب بشير العظمة.

إن هذه «الصـدف» التي نقلت الطبيب بشيـر العظمـة، العـازف عن المنـاصب السيـاسيـة، إلى سدة الـوزارة لم تكن في رأينـا محض صدفـة، بل هي في نهـاية المطاف مخاض الأفكار التي كانت تعج في رؤوس أجيال النضال ضد الاحتلال الأجنبي وما أعقبه من استقلال. وهذه «الصدف» هي من جهة ثانية مؤشر على خطة القيادات السياسية (أيام الـوحـدة والانفصـال) على اختيار شخصية مرموقة سهلة الانقياد، حسب تقديرهم، ترضي تياراً واسعاً. ولكن العظمة سرعان ماكان يترك الميدان منسحباً في الوقت المناسب قبل أن تصيبه رشقات أسلحة القوى المتصارعة.

عاش بشير العظمة بعد استقالته من الوزارة في أوائل عام ١٩٦٣ انساناً عادياً بلغ سن الكهـولـة وأخـذ يستعـد لاستقبال الشيخوخة. وفي هذه الفترة تبلورت في ذهنه قضية كتابته مذكراته المتميّزة بنكهة خاصة ونظرة نقدية ثاقبة وشجاعة قل أن نجدها في مذكرات الآخرين.

والواقع أن مذكرات بشير العظمة المطبوعة في كانون الثاني ١٩٩١، والتي اختارلها عنواناً «جيل الهزيمة بين الوحدة والانفصال» ذات قيمة تاريخية تساعد على فهم أحد الأسباب الجوهرية لفشل المشروع النهضوي العربي في القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشرين. فالعظمة كما كتب (ص ٢٥٥) عن نفسه يمثل «عيّنة عشوائية لشريحة واسعة من أبناء النصف الأول من القرن الحالي. وقد واجه هذا الجيل من دون استعداد تحديات مصيرية...».

لقد كان العظمة جرئياً وشجاعاً في كشف بعض سلبيات مجتمع المدينة (القرية)، مجتمع ماقبل تغلغل العلاقات الرأسمالية تغلغلاً عميق الجذور في أوصال المجتمع. وهذا الموقف النقدي الجريء دفع البعض لمهاجمة المذكرات بحجة أنها نشرت غسيلنا الوسخ، كما وصف البعض الآخر المذكرات بأنها بالغت في تصوير السلبيات. وقد سار على هذا المنوال الدكتور محمد جمعة في مذكراته بعنوان «الطاحون» المنشورة صيف عام ١٩٩٤، كما سنرى.

انتقد العظمة بعضٌ من أهله ونفر من أصحابه، لأنه تعرض في مذكراته إلى أمور كان الأفضل - حسب رأيهم أن يسكت عنها ويتجاهلها، وأن يكتفي باختيار الجوانب المضيئة المشرقة ليتحدث عنها في هذه المذكرات. فليس من المستحسن الحديث عن فقر الأسرة ومشكلاتها الداخلية. ومن الأمور التي استُقْطِعت في مذكرات العظمة حديثه عن الشذوذ الجنسي واللواط في مجتمع المدينة في أواخر القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين[٦].

وقد رصد نصر الدين البحرة ردود الفعل هذه على مذكرات العظمة حيث قيل يومئذ: «لا يليق برجل كانت له تلك المكانة العلمية والطبية والسياسية... أن يكتب مثل هذه الأشياء.. فقد كان عليه أن يصطفي وأن يختار ماهو جميل ومبهج نيّر»[٧].

ويرد نصر الدين البحرة على هؤلاء قائلاً: «إذن والحال هذه، ما الذي كان سيميز هذه المذكرات. وماذا كان سيبقى لها من أهمية؟ إنها ستكون في أفضل أحوالها أشبه بالتقارير الرسمية، أو النشرات والوثائق التي تتضمنها الجريدة الرسمية»[٨].

إن احدى مآثر مذكرات بشير العظمة - ومن بعده مذكرات محمد جمعة - انها تتحدث عن المشكلات الداخلية للعائلة ذات الطابع العام، وتلقي الأضواء على جوانب من حياة

المجتمع بهدف الكشف عن تناقضات الظواهر الاجتماعية المتعددة والمتنوعة، بسلبياتها وايجابياتها، لمرامي انسانية غايتها ان تتجنب المجتمعات الحالية مهاوي الردى، التي وقعت فيها المجتمعات السابقة. وهذا الهدف يبدو واضحاً في الفصل الأخير من مذكرات العظمة.

ففي خضم هذا الكشف النقدي لبعض شرائح المجتمع العربي المديني في ظل العلاقات ماقبل الرأسمالية، وبالأحرى علاقات ماقبل تعمق الانتشار الرأسمالي عقد بشير العظمة، وهو على أبواب الرحيل، فصلاً عاشراً وأخيراً في مذكراته تحت عنوان: «أبواب أمل» سجل فيه مايؤمن به من آراء وأفكار غايتها الاسهام في «البحث النزيه عن خلاص للانسان العربي المحكوم بالبقاء والضياع في نفق مظلم مسدود».. والمواضيع التي عالجها العظمة في هذا الفصل هي:

- العقلانية.
- السلطة كقوة ضاغطة داخلية أو خارجية المصدر تعطل الموقف العقلاني.
- الايمان وهو السلطة الحقيقية التي تقابل العقل المنطلق...
- الحرية والديمقراطية ونقيضها أنظمة الحكم الفردية في عالم التخلف....
- الجمود الفكري والسلوكي..

وأخيراً يتساءل العظمة عن أسباب «اختراق هذا العالم العربي بيسر وسهولة في مسلسل الهزائم والتحديات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية». وبعد استعراضه لأحداث تاريخية كثيرة يرى العظمة أن «الانسان الممسوخ المخصي» هو «نتاج عهود مديدة من الظلم والاضطهاد» والخلاص «من النفق المظلم المسدود لايتم إلا بتنشئة أجيال جديدة».

بتاريخ ٢٢ حزيران ١٩٩٢ جرى في مكتبة الأسد حفل تأبين المرحوم الأستاذ الدكتور بشير العظمة. تكلم في الحفل عدد من الأطباء والسيدة ريمة كرد علي زوج الفقيد. وقد استرعت الانتباه كلمة عريف الحفل الاستاذ الدكتور برهان العابد. كانت كلمته مختصرة جريئة شجاعة، لخصت في العمق وبفقرات معدودات طموح أعلام النهضة العربية ومنطلقاتهم ودور القوى المناوئة للتطور في كبح جماح النهوض. **فلنقرأ بإمعان كلمة الدكتور العابد**(٩):

أيها السادة والأصدقاء :

ينتمي فقيدنا الراحل الأستاذ بشير العظمة إلى جيل العقد الثاني من عمر كلية الطب، هذا الجيل الذي أريد له أن ينشأ في ظلال التبعية التقليدية المحافظة، المتقيدة بالأعراف الممتزجة بالغيبيات.

لقد أحس أستاذنا منذ البداية بالغربة الفكرية في هذه البيئة وشعر بثورة داخلية وتمردٍ عفوي على الرتابة السلوكية التي سادت في مجتمع يتحكم بالعقل واليد واللسان، فتفاعلت في نفسه قيم الكرامة والحق والحرية وأخذ يحلم بمجتمع متطور يسوده الإنطلاق عوضاً عن الجمود ويسوسه العقل بديلاً عن تقاليد السلف الصالح.

لقد آمن بشير العظمة بقيم غريبة على جيله ورفض الإمتثالية التي أرغم على العيش في كنفها، ونظر حوله فلم ير إلا القمع والزجر والعصا وسائل لتربية الإنسان والتعامل معه فاستنكر ظلم البيت والمدرسة والمجتمع والحاكم.

لقد كان أستاذنا مبشراً من نوع جديد يبشر باحترام كرامة الإنسان وبالتخلص من الغرور الشخصي والعائلي والقومي وبالعقلانية سبيلاً لبناء المستقبل بوساطة الفكر النير والساعد المفتول.

لقد كان نقده الذاتي الجريء صورة وأمثولة لما يجب أن تقوم به أمتنا بأكملها، آباؤها ومربوها وحكامها، فتفتش عن أماكن الداء في جسمها وتشخص أمراضها وتصف العلاج لها.

يجب أن يعترف كل من يريد الخير لأمته كما اعترف بشير العظمة بأننا نطرب لسماع المديح ولو كان رياء، وتشنف آذاننا صيغ المبالغات والتهويل وتعشق المجاملة ولاتعترف بالواقع الذي يفقأ العين.

أما العيوب والمثالب والعلل التي تقف حائلاً دون تطورنا فإننا نعمل على سترها وإنكارها وتركها تتفاعل في كياننا إلى أن تؤدي بنا إلى المهالك والمصائب والعقم والتصحر الفكري.

هذا بعض ماكان يجول في فكر صديقنا الذي نجتمع لنحيي ذكراه. وهذا ماقصه علينا في قصته الذاتية لا حباً بالنقد وغراماً بنشر العيوب بل لأنه كان يحلم بمجتمع ناهض

تحكمه العقلانية ويسود فيه الحوار وتدعمه الحداثة والديمقراطية الحقيقية. مجتمع حرية الإنسان وسيادة القانون وتحكم العلم وتقديس الحق وعدل السلطان.

أيها السادة الأصدقاء:

لو كان التفكير العقلاني يمنع الموت.

ولو كان تقديس الحرية والإيمان بكرامة الإنسان تمنع الموت.

ولو كان التواضع ونظافة اليد ونقاء الضمير تمنع الموت.

ولو كان الصدق والجرأة في قول الحق تمنع الموت.

ولو كان مقت الظلم والظالمين يمنع الموت.

لكان بشير العظمة بيننا اليوم.

شكراً لكم على مشاركتكم ورحم الله فقيدنا وجعل جنة الخلد مثواه.

الدكتور جمال الأتاسي

جمال الأتاسي هو أحد مشاهير الأطباء الذين أسهموا في صياغة المشروع النهضوي العربي. الطبيب الأول هو شبلي شميل المتوفى ١٩١٧، الذي برز في أواخر القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين صارخاً الجهد لنشر نظرية النشوء والارتقاء وداعياً إلى الاشتراكية ومشاركاً في الحركة العربية المناهضة للطغيان العثماني.

والطبيب الثاني عبد الرحمن الشهبندر (١٨٧٩ - ١٩٤٠)، الذي سقط في معركة الدفاع عن سياسته ومبادئه وأفكاره النهضوية في حزيران ١٩٤٠. طرح الشهبندر أفكاراً تنويرية جريئة ورفع علم النضال ضد الاحتلال الاستعماري الفرنسي وتشرد وكتب في الصحف والمجلات وكان خطيباً لايجارى..

والطبيب الثالث جمال الأتاسي، الذي عاش في النصف الثاني من القرن العشرين المرحلة الثالثة من حركة النهضة بشكلها الجديد بعد نيل الاستقلال السياسي... معارك معقدة للتحرر من التخلف والتبعية، السعي لتحقيق العدالة الاجتماعية، العمل للوحدة القومية، الوقوف في وجه العدوان الصهيوني... ثم الانكفاء والتراجع...

بعد وفاة شبلي شميل بخمس سنوات وفي السنة التي اعتقل فيه الشهبندر وسجن في

جزيـرة أرواد بسبب نضـالـه الـوطني ولد جمال الأتاسي في حمص في نيسان عام ١٩٢٢ . وكـان من اليسيـر على والـده ، الذي ملك قدراً من الأراضي أن ينفق على تعليم ابنه ، الذي نال شهـادة البكـالوريا الأولى في حمص ثم انتقل إلى دمشق وحصل على البكالوريا الثانية في صيف عام ١٩٣٩ . انتسب الأتـاسي إلى كليـة الطب في الجـامعة اليسوعية في بيروت ولكنـه لم ينسجم مع الـدراسـة فيهـا ، فعاد بعد عام إلى دمشق والتحق بمعهد الطب فيها ، وانهى دراستـه عام ١٩٤٧ . ثم شدَّ الـرحـال إلى فرنسا للتخصص وعاد عام ١٩٥٠ بعد نيل شهادة في الطب النفسي .

شدّت الحـركـة الـوطنيـة الجمـاهيرية المتصاعدة في سورية في منتصف الثلاثينات الطـالب جمـال الأتـاسي إلى العمـل العـام والانغماس في غمرة النضال الوطني . فالجيل الطـلاب في مرحلة النضـال ضد الانتـداب وفي العهـود الأولى التي أعقبت الاستقلال كان يشعر، كما ذكر الاتاسي ، أن له دوراً وأهدافاً وطنية وقومية تتمثل في النضال ضد الاحتلال الاجنبي وتحقيق الـوحـدة العربية . وفي الوقت نفسه أخذت الفئات الأكثر وعياً من الطلاب تخطـو خطـوات متقـدمـة إلى الأمـام باتجـاه الأهداف الاجتماعية (الطبقية) المتداخلة مع الأهداف الوطنية .

كانت تحـركـات الكتلة الوطنية وعصبة العمل القومي الناشطتين في حمص تستحوذ على تفكير أكثرية الطلاب . ولكن الأتاسي لم يسر باتجاه هذين التجمعين أو باتجاه الحزب الشيـوعي النـاشيء بل سرعان ما تأثر في تجهيز دمشق بأساتذته ميشيل عفلق وصلاح البيطار الـداعين إلى «الاحيـاء العـربي» أو البعث فيمـا بعـد . ثم التقى الأتاسي بزكي الأرسوزي ، الذي تحلق حوله عدد من الطلاب ، وشكل تجمعاً فكرياً سياسياً ذا أهداف قومية واضحة لم يكن الأتاسي بعيداً عنها .

في نيسان ١٩٤١ كان الأتاسي في عداد المتطوعين لمناصرة العراق أثناء حركة رشيد عالي الكيـلاني . وبعـد عودتـه أسهم في تأسيس «الـرابطة العربية» ، التي ضمت بالاضافة إلى الطـلاب السـوريين عدداً من الطـلاب العـرب الـدارسين في الجامعة السورية . وكان الأتـاسي من نشطـاء الحركة الطلابية ذات التوجه البعثي . وقد استحوذ التحرك البعثي على القسط الأوفى من حياته ونشاطه آنذاك . وشرع يكتب في أبواب من جريدة البعث الصادرة عام ١٩٤٦ وأحياناً يتولى كتابة افتتاحيتها اذا غاب «الكبار» . وفي المؤتمر التأسيسي لحزب

البعث العربي في نيسان ١٩٤٧ كان الأتاسي على رأس اللجنة التحضيرية التي أوكل إليها تنسيق وصياغة الوثائق التي قدمت للمؤتمر. ويقول الأتاسي أنه شارك في المؤتمر ولكنه كان قلقاً فكرياً ولم يقطع في موقف نهائي.

ويلاحظ أن جمال الأتاسي المتوقد حماساً قومياً لم يكن شوفينياً متعصباً تعصباً أعمى لقوميته أومنغلقاً تجاه الحضارات الأخرى، فهو من الداعين في كل مناسبة إلى الانفتاح على معطيات الفكر الانساني، ونلمس بداية هذا التوجه منذ وصوله إلى باريز عام ١٩٤٧ للتخصص. فقد كتب في مخطوطه:

«وصلت باريز أي مدينة النور كما يقولون وكانت جدرانها مسودة قبل أن يبيضها عهد ديغول. وواجهت صدمة الغرب والثقافة الغربية في باريز فما انكفأت بل انفتحت لها بكل عقلي بل وبقلبي أيضاً وأردت أن أعرف وأردت أن أتعلم..».

وعلى الرغم من ادراك الأتاسي «للظلم التاريخي الذي لحق بأمتنا والتواطؤ العالمي ضد أمتنا وعدم فهم الغرب لقضيتنا فإنه لم ينغلق ضد الغرب بصورة مطلقة كما جرى ويجري للكثيرين بل سعى فيما بعد لترجمة، مايتفق مع أهدافه، من الانتاج الفكري الانساني الغربي من أجل دفع الأمة وتطويرها بالثقافة. فقد تابع عن كثب المذاهب الفكرية والايديولوجيات المزدهرة بعد الحرب العالمية الثانية مثل الماركسية الأرثوذكسية و«المنحرفين عنها»، والوجودية على اختلاف مذاهبها، وكتب الأتاسي في مخطوطه يقول:

«ولقد انشدَّ اهتمامي منذ ذلك الحين إلى كتابات جان بول سارتر ومواقفه، حتى السياسية منها، وتتبعت باهتمام محاولته ذلك العام (١٩٤٨) مع عدد من المثقفين «الثوريين» غير الشيوعيين، إقامة حركة سياسية جديدة باسم «التجمع الديمقراطي الثوري»، الذي تطلع إلى أن يعبر عما سمي وقتها بالطريق الثالث، أي غير الطريق الرأسمالي الليبرالي وغير الطريق الاشتراكي الشيوعي، ولكنه مالبث أن انفرط عقده».

وفي تلك الفترة نشر الأتاسي مقالاً مطولاً في جريدة البعث اليومية عام ١٩٥٠ تحت عنوان «اشتراكية اخلاقية»، كما كتب في مخطوطه، متأثراً فيه بكتابات هنري دومان «الماركسي الاصلاحي المنشق».

عندما عاد جمال الأتاسي إلى الوطن، بعد التخصص، كانت سورية عام ١٩٥٢ مسرحاً لصعود دكتاتورية أديب الشيشكلي فاختار الإقامة في حماة وبدأ يمارس مهنة الطب

فيها حيث انشأ مع زميلين له أحدهما البعثي فيصل الركبي مستشفى الأهلي الخاص بعد أن استعصى عليه ايجاد مجال لممارسة اختصاصه في دمشق. ومنذ ذلك الحين استمر الأتاسي يمارس الطب والسياسة في آن واحد. ولنقرأ ماكتبه في مخطوطه: «وبقيت موزعاً بعد هذا وطيلة حياتي بين مهنتي واختصاصي وبين ماتفرضه علي التزاماتي السياسية والايديولوجية وكان دأبي على عملي المهني الحر سنداً لي في ممارسة حريتي على صعيد الالتزام السياسي».

عام ١٩٥٦، وعندما كان البعثي وهيب الغانم وزيراً للصحة، انتقل الطبيب جمال الأتاسي إلى دمشق للعمل في مشفى دمشق (المجتهد) الحكومي. ومنذ مطلع ذلك العام أسهم في الاعداد لإعادة صدور جريدة البعث بشكل أسبوعي متولياً جانب التوجيه الفكري. وهنا سعى الأتاسي مع عدد من رفاقه لدفع الحزب بالاتجاه الاشتراكي متأثراً بالفكر اليساري الفرنسي غير الشيوعي. حول هذا الموضوع كتب الأتاسي في مخطوطه:

«ولقد ركزت اهتمامي في ثلاثة تيارات فكرية وايديولوجية تقول بالتقدم والتغيير والثورة. وكان لمجلة ايسبري الفرنسية التي تعبر عن منهج مونييه الانساني أومايسمى بالشخصانية خطوة أولى، وكذلك لاتجاه سارتر الوجودي وكُتّاب مجلة الأزمنة الحديثة، وبعدهما للتيارات الماركسية المستقلة عن المذهب الرسمي السوفياتي، وأردت لفكرنا القومي أن ينفتح للتفاعل مع روح العصر والتيارات الحديثة».

كما كتب الأتاسي الكثير في جريدة البعث عن نتائج المؤتمر العشرين تحت عنوان كبير «المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفياتي يحدد وجهة نظر الشيوعية ومصيرها في العالم». وقبل الأتاسي سار على المنهج نفسه نائب حماة البعثي عبد الكريم زهور، الذي دعا مثل الأتاسي إلى قيام تحالف بين القوى التقدمية العربية على نهج اشتراكي ديمقراطي عربي موحد، وفي هذا المجال التقى الأتاسي وزهور مع مفكرين ماركسيين خرجا أو (أُخرجا) من الحزب الشيوعي السوري وهما الياس مرقص وياسين الحافظ.

وبفصل النشاط الفكري للطبيب جمال الأتاسي أصبح عضواً بارزاً ومعروفاً وتسلم مناصب حزبية بعثية قيادية رفيعة المستوى حتى حلّ الحزب نفسه في شباط ١٩٥٩ على أثر قيام الوحدة بين سورية ومصر.

عاش الأتاسي، كما كتب، عام الوحدة وقيام الجمهورية العربية المتحدة بكل وجوده

ووجدانه وفكره. وبعد قرار حل الحزب «وبانتظار ماسيأتي» كتب الأتاسي: «جمعت أمري مع شلة من رفاقي، على رأسهم عبد الكريم زهور، ان نحمل فكر البعث والدعوة كمجموعة ثقافية - سياسية غير حزبية ومستقلة، بعد أن ابتعدنا عن مناصب الحكم، انزلنا يافطة الحزب وشعاراته عن الجريدة واحتفظنا بكلمة البعث، الاسم المرخّص له، وجعلنا من مجموعتنا هيئة تحرير وتمويل وادارة لها وحاولنا الاستمرار». ولكن الأتاسي ومجموعته لم يستطيعوا الاستمرار إلا أشهر معدودات.

بعد ذلك اختير الأتاسي من قبل سلطات الجمهورية العربية المتحدة رئيساً لتحرير جريدة الجماهير، في نيسان ١٩٥٩. وقد شنت هذه الجريدة، شأن غيرها، هجمات صاعقة ضد الشيوعيين وعبد الكريم قاسم. وشارك في الكتابة وفي النقد اللاذع على الحزب الشيوعي السوري شيوعيون سابقون من ذلك الحزب. ولكن الجريدة لم تعمر طويلاً، فالأجهزة أبدت ملاحظات بل استياء على مقالات الجريدة في النقد وكشف ماهو موجود أكثر مما هو مقبول. وفي مناخ تصاعد الحملة ضد اليسار، بحجة الحزبية، جرت ملاحقة الحزب الشيوعي أولاً والتضييق على البعثيين ثانياً. وهكذا صدر قرار الأجهزة بإغلاق جريدة الجماهير. وقبل اغلاق الجريدة بقليل كتب الأتاسي افتتاحية معبرة وذات مغزى تحت عنوان: «الصمت موقف». وإذا كان الصمت مقبولاً من قبل شخص من وزن الأتاسي فإن الأمر يختلف بالنسبة للآخرين. وكثيراً ماأجبرتهم الأجهزة أو دفعتهم للتطبيل والتزمير وإلا فمصيرهم معروف...

أصيب دعاة الوحدة بخيبة أمل كانت أحد عوامل انتصار الحركة، التي أعلنت فصل سورية عن مصر دون مقاومة تذكر. لم يؤيد الأتاسي الانفصال وكتب في الصحف واصفاً المقاومة الشعبية التي تصاعدت وتيرتها أيام الانفصال.

في ٨ آذار عام ١٩٦٤ دخل جمال الأتاسي الوزارة المشكلة بعد ازاحة «حكم الانفصال» وزيراً للاعلام، وعضواً في مجلس قيادة الثورة. ولكنه سرعان ما استقال في ١٨ نيسان ١٩٦٣ بعد يوم واحد من توقيع ميثاق ١٧ نيسان بين سورية ومصر والعراق. وهكذا ترك الأتاسي حزب البعث واختار السير مع الحركة الناصرية، التي ضمت في ذلك الحين جماهير غفيرة.

على الرغم من اندفاع الأتاسي باتجاه الناصرية ومشاركته مشاركة نشيطة في قيادتها

وتأسيسه للاتحاد الاشتراكي العربي عام ١٩٦٤ فإنه لم يجتمع بعبد الناصر الا مرة واحدة في آب ١٩٦٩ بعد قضاء الأتاسي سبعة أشهر في السجن عام ١٩٦٨ . كان شاغل عبد الناصر الأساسي آنذاك «إدارة حركة التحرير وإزالة آثار العدوان». وهذا يستلزم تجميع سائر القوى لبلوغ هذا الهدف. ولهذا «ضغط» عبد الناصر في ذلك اللقاء على الأتاسي كي تتخذ الحركة الناصرية في سورية موقفاً مهادناً للحكم في سورية .

تعاون الأتاسي بصفته أميناً عاماً للاتحاد الاشتراكي العربي في سورية مع الرئيس حافظ الأسد ودخل الجبهة الوطنية التقدمية ولكنه سرعان ماانسحب منها إلى المعارضة في ربيع عام ١٩٧٣ .

وبعد أن قامت حرب تشرين عام ١٩٧٣ وتلاحقت أحداثها وأحداث مابعد الحرب أخذ الاتاسي يتتبعها «بالكتابة واتخاذ المواقف وكتب في نشرات حزبية (للاتحاد الاشتراكي العربي) تسع مقالات متلاحقة تحت عنوان: حرب تشرين والمستقبل العربي». ويلفت النظر تساؤ ل الأتاسي في احدى هذه المقالات: «هل كانت تلك الاندفاعة الشعبية القومية مع تلك الحرب، آخر طلقة في مدفع حركة الشعوب».

ويذكر الأتاسي في مخطوطه أسباب هذه الردة والانكفاء والتراجع في حركة الشعوب. ويرى أن السنوات الأخيرة لم تكن سنوات عجاف بالنسبة للجميع فهي سنوات سمان بالنسبة للطبقات الجديدة «ولكنها عجاف بالنسبة للشعوب ـ وحركة الشعوب وبالنسبة للأمة وقضية وحدة الأمة». ولكن هذه النظرة التشاؤ مية لدى الأتاسي وغيره بسبب توالي حركات السقوط تتخللها بوادر الأمل. وهذا واضح من جملة الأتاسي التالية: «ولكنني وأنا أتلمس بوادر حركة وعي يتعمم للمآلات التي وصلنا إليها والمخاطر المحدقة، لعل خيارات الشعوب تتجدد حركتها وهي تطالب بالديمقراطية وتطالب بمواجهة التحديات وعدم الاستسلام».

ثم نقرأ في نهاية المخطوط الفقرة التالية: «إن العمر الذي بلغته يعفيني من التطلع كثيراً إلى بعيد، فلقد قلنا الكثير في الماضي عن الأهداف الكبرى والشاملة والبعيدة، فأنا اليوم اتطلع للرمي في الأهداف القريبة المنال، وماتصنعه اليوم تلقاه الأمة غداً».

كان جمال الأتاسي في طليعة الأطباء، الذين جمعوا بين مهنة الطب والعمل في الشؤ ون العامة والحيوية للأمة. وهو من الذين اشتغلوا بالسياسة دون ترك مهنة الطب، وله

نتـاج ليس بالقليـل في ميـدان الفكـر السيـاسي ، كمـا نقـل إلى العـربيـة كثيراً من تجارب الحضارة الأوروبية مختاراً المواضيع ، التي تحقق أغراضه السياسية والفكرية . وهذا النتاج المتنـوع والغـزيـر لجمـال الأتـاسي كان حصيلة ثقـافتـه الموسوعية وتجاربه الغنية وهاجس التحرر والتطوير وتجاوز التخلف والخلاص من التبعية .

وسنستعرض فيما يلي أهم ما أصدره جمال الأتاسي من تأليف أو ترجمة :

١ - «تـاريـخ الاشتراكية الأوروبية» تأليف ايلي هاليفي ، والكتاب صدر عن وزارة الثقافة والارشاد القومي في اطار «سلسلة الفكر العالمي» والناشر مكتبة اطلس بدمشق ومراجعة بديع الكسم .

٢ - «الاشتراكية بين ماضيها ومستقبلها» . و«الاشتراكية تحرر بالنضال» ، في : «دراسات في الاشتراكية» ، بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٦٠ .

٣ - قام بالاشراف على سلسلة «دراسات في الفكر السياسي» صدر منها في دمشق :

«المـذهب المـادي والثـورة» ، لجـان بول سارتر ترجمة جمال الأتاسي وسامي الدروبي . نشر دار اليقظة العـربيـة ١٩٦٠ . وقـد وضـع الأتـاسي مقـدمـة للترجمة مؤلفة من ٣٥ صفحة ، في حين أن الترجمة لم تتجاوز ٦٩ صفحة . ونقتطف فيما يلي فقرات من المقدمة :

- «الثورة والاشتراكية والحرية كلمات تتألق كمنارات كبيرة في حياتنا القومية وحياة الشعوب» .
- « . . . الحق أن المـاركسيـة جاءت لتفسـر وصعـاً في المجتمعـات الأوروبيـة الصنـاعيـة . . ألم تصبح المـاركسيـة عاجـزة عن الانطـلاق مع المـد الثـوري الانسـاني؟؟؟ ألم تتـوقف وتتجمد مذهباً ، بعد أن أصبحت فلسفة رسمية لدولة وأداة مسخرة بيد أجهزة بيروقراطية؟؟؟» . .
- « . . . نتطلع إلى مشاركة انسانية في المعرفة . . لا بد لنا أن نفهم التجارب الانسانية الأخرى ، وأن نتبنى ميراثها في المعرفة ، وأن نأخذ بها من حيث انتهت . . . » .
- «إن القـوميـة العـربية ، إذ تريد لنفسها أن تكون ثورية ، ذات اطلالة انسانية ، وأن تشارك مشاركة صميمة في المعرفة الانسانية لابد لها أن تتعرى مما يحاول البعض الصاقه بها من مسلمات وأفكار مسبقة لم تنبع من تجربة انسانية حية» .
- «تفكيـر كارل ماركس : نقـد الـدين والفلسفـة» تأليف جان إيف كالفيـز ؛ ترجمـة جمـال الأتاسي وسامي الدروبي دمشق ، دار اليقظة العربية ١٩٥٩ .
- «مسـائـل في النضـال الاشتـراكي» نشرته دار دمشق عام ١٩٦٣ . وهو مجموعة مقالات في سلسلة الفكر السياسي شارك فيها ياسين الحافظ والياس مرقص وجيل مارتينه .
- «مـدخـل إلى علم السيـاسة» تأليف موريس دوفرجيه ترجمة جمال الأتاسي وسامي الدروبي . وصدر في دمشق بدون تاريخ .

٣ - «معـذبـو الأرض» تأليف فرانتـز فانـون ؛ ترجمة جمال الأتاسي وسامي الدروبي ، وأول طبعة من هذه

الترجمة نشرتها دار الطليعة في بيروت ١٩٦٣ ثم تتالت عدة طبعات في دمشق وبيروت. واعتمدت وزارة التربية السورية الكتاب لتدريسه في المدارس الثانوية ودور المعلمين.

٤ - «إطلالة على التجربة الثّورية لجمال عبد الناصر وعلى فكره الاستراتيجي والتاريخي»، تأليف جمال الأتاسي وإصدار معهد الإنماء العربي في بيروت ١٩٨١. ثم صدرت الطبعة الثانية ١٩٨٣. وقد كتب الناشر (معهد الإنماء) كلمة في الكتاب نقتطف منها مايلي:

«يتناول جمال الأتاسي التجربة الثورية من خلال معايشته لها ولقاءاته مع قائدها، عاملاً على تعميم هذه التجربة وتبيان القواعد والمنطلقات العامة التي وجهت مسارها في اطارها الاستراتيجي والتاريخي، وذلك بهدف الوصول إلى نهج معين لتجديد مسار الثورة العربية... ومحاولته طرح البديل القيادي المتمثل في قيادة ثقافية سياسية اجتماعية تسترشد بنهج عبد الناصر وترفض الاتباعية ومذهبة الناصرية مع الأخذ بمبدأ تنوع التيارات السياسية ضمن جبهة وحدوية ديمقراطية».

٥ - تحت عنوان: «واقع الصحة العقلية في سورية» القى الطبيب جمال الأتاسي العامل في مستشفى ابن سينا للأمراض العقلية كلمة في مهرجان أسبوع العلم الثالث وذلك في ٢٧ أيار ١٩٦٢. ومع أن هذه الكلمة ليست كتاباً ولكننا رأينا ادراج بعض أفكارها في ختام الحديث عن عمل الطبيب الأتاسي في القضايا العامة. ونقتطف من هذه المقالة المقاطع التالية.

«علينا أن نهيىء للإنسان ظروفاً في المجتمع تحمي حريته، وتفسح له سبل السعادة ..».

«وكان لابد للانسانية من ثورة اجتماعية وفكرية كبرى لتخرجه من هذا الضياع... وكانت المجتمعات الأوروبية هي المهيأة لهذه الثورات...».

«إن المرض فينا في نفوسنا وفي مجتمعنا والكثير من رواسب عهود الجهل مازالت تعشعش في أفكارنا وعاداتنا... ولا بد من أن نكافح مايعيش في نفوسنا وفي مجتمعنا من عقد وأوهام وعصبيات... إن المجتمعات المتقدمة لم تصل إلى انضاج تجربتها في هذا المجال، الا بعد ثورات في المجتمع وثورات في الفكر والنفوس ..».

«... لنحرر انسانيتنا، صحة نفوسنا، ونحافظ على كرامة الانسان في مجتمعنا...»[١١].

الدكتور جورج حبش

جورج حبش هو من الأطباء القلائل الذين لم يمارسوا مهنة الطب إلا لسنوات معدومة وصرفوا جل وقتهم، بل كله، لخدمة القضية التي آمنوا بها ونذروا حياتهم من أجلها. فبدلاً من أن يكرس حبش وقته لمعالجة الافراد (المرضى) انصرف إلى معالجة أمراض الأمة والبحث عن حلول مشكلاتها وفي مقدمتها قضية تحرير فلسطين من الطغيان الصهيوني.

وليس عبثاً اطلاق اسم «الحكيم» على الدكتور جورج حبش. وهذا الاسم محبب لدى أنصاره المعجبين بمواقفه. إنه مؤسس حركة «القوميين العرب» وأمين عام الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والشخصية البارزة في حركة التحرر الوطني العربية. إن من يدرس دور الأطباء في الحياة السياسية السورية لايمكن أن يتجاهل دور الدكتور جورج حبش الفلسطيني المولد والنشأة والقومي العربي فكراً ونضالاً وانتماء والانساني سلوكاً وتطلعاً إلى آفاق المستقبل. إنه «الحكيم»، الذي انتقل بمفهوم القومية من الرومانسية والانغلاق بعيداً عن الواقعية إلى مفهوم القومية المتجذرة في أرض الواقع الاجتماعي والبحث عن علاج للانسان المقهور من منظار رؤية العلاقات الاقتصادية الاجتماعية والأحداث العالمية.

ولد جورج حبش في اللد عام ١٩٢٥ في أسرة ثرية، بمقاييس ذلك العصر فقد تعاطى والده مهنة التجارة. بدأ حبش دراسته الابتدائية في المدرسة الانجيلية وأنهاها في المدرسة الحكومية عام ١٩٣٨. درس شطراً من المرحلة الثانوية في المدرسة الأرثوذكسية في يافا والشطر الآخر في القدس في مدرسة اللاتين حيث نال شهادة الماتريك (الثانوية) عام ١٩٤٢. وبعدها درّس لمدة عامين في المدرسة الارثوذكسية في يافا. وانتسب عام ١٩٤٤ إلى الجامعة الأمريكية في بيروت وتخرج منها طبيباً عام ١٩٥١. وبعد أن عمل مدة وجيزة في مستشفيات الجامعة الامريكية انتقل إلى عمان وافتتح عام ١٩٥٢، بمساعدة والده، عيادة استمرت حتى عام ١٩٥٧. وهذه السنوات (١٩٥١ ـ ١٩٥٧) هي الفترة الوحيدة التي مارس فيها الدكتور حبش مهنة الطب دون أن يهمل العمل السياسي، الذي احتل المرتبة الأولى من تفكيره.

تأثر جورج حبش خلال دراسته الابتدائية والثانوية بالاجواء الوطنية المناهضة للاستيطان الصهيوني وتوسعه في فلسطين. وكان المؤثر الحاسم في فكر حبش وتكوينه النفسي هو أسلوب طرد الصهاينة للفلسطينيين عام ١٩٤٨ من اللد. فقد «كان جورج حبش بطبيعته شديد الفعالية، كثير النشاط ومليئاً بالأفكار منذ التحق بالجامعة الامريكية ببيروت كطالب في كلية الطب. ومع أنه كان دوماً متفوقاً على زملائه في الدراسة، فإنه كان زعيماً طلابياً نشطاً. وعندما اندلعت الحرب العربية ـ الاسرائيلية (١٩٤٨)، لم يتردد في الانضمام إلى جيش الانقاذ». فترك بيروت وعاد إلى اللد عن طريق عمان والتحق بالمستوصف الوطني في المدينة وشاهد بأم عينه سقوط اللد في يد الغزاة الصهاينة في وقت

توفيت فيه اخته المريضة فاضطروا لدفنها في البيت قبل إجبارهم على الرحيل بقوة السلاح.

بعد عودة جورج حبش إلى الجامعة لاتمام دراسته أسس مع هاني الهندي وآخرين كتائب الفداء العربي، التي كان من أهدافها، كما روى حبش، الكتابة عمّن خانوا فلسطين. والكتائب في الواقع منظمة سرية شبه عسكرية نذرت نفسها لتحرير فلسطين وعملت في كل من بيروت ودمشق وعمان وقامت بعدة عمليات «ارهابية» لم يشارك حبش في أي منها. وبعد انكشاف أمر المنظمة السرية واعتقال أعضائها وقف جورج حبش إلى جانب توجه المنظمة نحو النضال الجماهيري ورفض المضي في طريق المغامرات الفدائية العشوائية. وبحل كتائب الفداء انصرف طالب الطب جورج حبش نحو بناء منظمة للنضال الجماهيري.

تأثر جورج حبش بكتابات ساطع الحصري، الذي فنّد مفهوم القومية وأكد على السيادة وإقامة الدولة القومية[11]. ولكن تأثره الأعمق كان بالدكتور قسطنطين زريق وأفكاره حول القومية والحركة العربية[12]. وكثيراً ماكان جورج حبش بصفته نائب رئيس اللجنة التنفيذية لجمعية العروة الوثقى يستشير زريق حول عمل الجمعية، ومن خلال العروة الوثقى[13]، كمنظمة طلابية في الجامعة الامريكية، أخذت أفكار حبش ورفاقه غير الواضحة حول القومية والثورية تتبلور وتتطور إلى حركة القوميين العرب في خضم العمل لتشكيل «هيئة مقاومة الصلح مع اسرائيل» عام ١٩٥٢ واصدار صحيفة «الثأر» الاسبوعية. وكان جورج حبش في السنة الأخيرة من عمله في الجامعة الامريكية يقضي عطلة نهاية الاسبوع مع الدكتور وديع حداد في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في ضواحي بيروت وجنوب لبنان حيث كانا يعتنيان بالمرضى ويقومان في الوقت نفسه بنشر أفكارهما.

بدأت الحركة القوميين العرب، وحبش من أعمدتها، تتبلور في بداية الخمسينات في حركة فكرية سياسية من مثقفي النخبة، تأخذ بالمذهب القومي العربي في مواجهة النظرة الطبقية[14]. والواقع أن حركة القوميين العرب التي نشأت في اطار التطلعات العربية نحو المستقبل القومي الموحد من أجل تحرير فلسطين، كانت امتداداً ليمين حركة التحرر القومي العربي في مبادئها ومنطلقاتها. ومالبثت الحركة ان انجذبت عام ١٩٥٥ إلى فلك الناصرية مع صعودها، ثم افترقت عنها بعد هزيمة ١٩٦٧.

عمل الدكتور حبش بعد تخرجه لمدة سنة في الجامعة الامريكية ثم انتقل إلى عمان

عام ١٩٥٢ وافتتح عيادة هناك وأسس مجلة «الرأي» الاسبوعية الرسمية لحركة القوميين العرب وأصبح رئيساً لتحريرها، في حين كانت الجريدة باسم الطبيب أحمد طوالبة. ولكن الحكومة الاردنية منعت المجلة في آب ١٩٥٥ من الصدور. فاضطر حبش إلى اصدارها في دمشق وتهريبها إلى الأردن باعداد كبيرة. وبعد طرد كلوب باشا في كانون الأول ١٩٥٥ واجراء انتخابات في تشرين الأول ١٩٥٦ رشح الدكتور جورج حبش نفسه عن دائرة عمان دون أن يحالفه الحظ بالنجاح. ثم شارك في المؤتمر الوطني المنعقد في نابلس في نيسان ١٩٥٧ والذي ضم الوطنيين الاشتراكيين والبعثيين والشيوعيين. ودعا المؤتمر إلى رفض مشروع ايزنهاور والالتزام بسياسة الحياد الايجابي ودعوة الاردن للدخول في اتحاد مع سورية ومصر. وعلى أثر المؤتمر اضطر الدكتور جورج حبش كغيره من المؤتمرين إلى الاختفاء والانتقال إلى العمل السري لمدة سنة ثم التجأ إلى دمشق في مطلع عام ١٩٥٩ واستمر مقيماً فيها حتى بداية عام ١٩٦٥. لم يفتتح حبش عيادة في دمشق - كما فعل زميله عبد الرحمن شقير المشارك أيضاً في مؤتمر نابلس - بل انصرف كلية إلى العمل السياسي في وقت سارت فيه حركة القوميين العرب مع الناصرية مستبشرة الخير العميم بقيادة الجمهورية العربية المتحدة نواة دولة الوحدة العربية.

في تموز ١٩٦٦ اجتمعت اللجنة التنفيذية لحركة القوميين العرب - وحبش من أعضائها - وتوصلت من خلال تحليلها للحركة الناصرية إلى ضرورة التمييز بين القوى المختلفة داخل الناصرية من اليمين إلى اليسار. وبعد هزيمة ١٩٦٧ تمّ الطلاق الكامل بين حركة القوميين العرب والناصرية، التي أدينت باعتبارها «حركة بورجوازية صغيرة محكوم عليها بالفشل». كما دعت منظمات القوميين العرب إلى تغيير حركة القوميين العرب من منظمة شبه بورجوازية إلى حزب ماركسي - لينيني. وسرعان ماظهر اليسار بين عامي ١٩٧٠ - ١٩٧١ كقوة مسيطرة على «حركة القوميين العرب».

بعد هزيمة ١٩٦٧ بدأت تتبلور فكرة تأسيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وهي الفرع الفلسطيني لحركة القوميين العرب. وقد عقدت قوى هذه الجبهة مؤتمرها الأول في آب ١٩٦٨ وانتخبت الدكتور جورج حبش أميناً عاماً لها. ولنتتبع تطور «الحكيم» من خلال مؤتمرات الجبهة الشعبية وشعاراتها.

- المؤتمر الوطني الثاني للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين المنعقد في شباط ١٩٦٩ دعا إلى

حرب تحرير شعبية تمتد لعشرات السنين. وكان حبش يتطلع إلى خوض حرب تحرير شبيهة بفيتنام . .

- المؤتمر الثالث في آذار ١٩٧٢ : بلورة الطابع اليساري واقرار نظام داخلي وهو نظام داخلي لحزب شيوعي . وفي هذا المؤتمر وضع حد للخط التاكتيكي المتمثل بتوجيه ضربات للاحتلال ومؤسساته وفي كل مكان تستطيع الوصول إليه . ذلك الخط استهدف بين عامي ١٩٦٧ ـ ١٩٧٠ طائرات العدو الاسرائيلي وبعض القوى.
- المؤتمر الرابع (نيسان ١٩٨١) عقد تحت شعار «المؤتمر الوطني الرابع خطوة هامة على طريق استكمال عملية التحول لبناء الحزب الماركسي اللينيني والجبهة الفلسطينية المتحدة وتصعيد الكفاح المسلح وحماية وجود الثورة وتصعيد مواقفها النضالية ودحر نهج التسوية والاستسلام وتعميق الروابط الكفاحية العربية والأممية .
- المؤتمر الخامس في شباط ١٩٩٣ . هذ المؤتمر له أهمية خاصة لأنه عقد بعد تفكك الاتحاد السوفياتي والتحولات العالمية المعروفة . ولهذا نقرأ في التقرير العام مايلي : «كان لنا وقفة مع الذات وقفة مع طروحاتنا الفكرية أن نبقى أمينين لكل ماهو أصيل في تراثنا وتجربتنا النضالية وأن نأخذ التطورات التي عصفت بالعالم في السنوات الأخيرة بعين الاعتبار كي نكون أبناء زماننا . أن تبقى ذاتك وأن تتجدد دوماً تلك مهمة شاقة» .

بعد عدة أشهر على انعقاد المؤتمر الخامس أجرت مجلة الهدف (٢ أيار ١٩٩٣) لقاء مع جورج حبش حول أعمال المؤتمر جاء فيه : إن «تعريب الماركسية خط ثابت من خطوط عملنا الايديولوجي» وان «الماركسية اللينينية مرشد للعمل وليست نصوصاً وعقيدة جامدة» .

وكان حبش قد كتب في الهدف في ٢٦ كانون الأول ١٩٩٢ حول الوضع الراهن بروح متفائلة مايلي :

«غير أنني بالرغم من التناقضات العديدة التي تجلت بصورة أوضح بعد انهيار المنظومة الاشتراكية فإنني مازلت أرى بأن التناقض الأساسي الذي لايزال يحكم على الصعيد العالمي ، هو التناقض بين العمل ورأس المال ، حيث تتزايد تجليات هذا التناقض داخل البلدان الرأسمالية ، وعلى الصعيد الكوني ، في ظل تزايد عولمة الرأسمال وتعمق مظاهر النهب للشعوب ولطبقات الكادحين بصورة أكثر فأكثر . . . فإنني أرى بأن التناقض

الـرئيسي على الصعيـد الكـوني يتجلى في هذه المرحلة بين العالم الثالث وحركات التحرر الوطني من جهة وبين البلدان الامبريالية العالمية من جهة أخرى»(١٥).

«. . . وبـالـرغم من قتـامـة اللحظـة الراهنة، إلا أن الواقع العربي القطري والقومي يحمـل من التنـاقضـات وعوامل النهوض والتمرد على حالة الانهيار الراهنة ماهو كفيل بإبقاء شعلة الأمـل لتغييـر هذا الـواقـع مهمـة راهنـة على جدول أعمـال القـوى الـوطنية والقومية والتقدمية إضافة للقوى الاسلامية المعادية للامبريالية»(١٦).

واردف حبش قائلاً: «إن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين لم تكن تتصور في يوم من الأيـام، بأن مهمـة التحـريـر يمكن أن تتحقق في بضـع سنوات، أي على غرار ماجرى في الأقطـار العـربيـة الأخـرى. . إن الجبهـة الشعبيـة ومنـذ البـدايـة كانت لهـا رؤ يـة واضحة لخصـوصيـة وفـرادة القضيـة الفلسطينيـة، تلك الفرادة النابعة من طبيعة وجوهر العدو الذي يجـابهـه الشعب الفلسطيني متمثـلاً باسـرائيل المرتبطة عضوياً مع الحركة الصهيونية والتي بدورها متلاحمة عضوياً مع الامبريالية العالمية وخاصة الامريكية، في سياق تشابك واسع للمصالح الاستراتيجية لهذا المعسكر»(١٧).

إن تتبـع مواقف جورج حبش وسيـاسته سواء في حركة القوميين العرب أم في الجبهة الشعبيـة لتحـريـر فلسطين بحـاجـة إلى معجلد خاص ولايتسـع المجال لها في هذا العرض المحـدد الأهـداف. فقد دبّجت يراع حبش عشـرات المقـالات ووقف خطيبـاً في عمـان وتجمعات الفلسطينيين في دمشق ولبنان وأخذت منه تصريحات صحفية أكثر من أن تحصى وأكثـرهـا منشـور في الصحف والمجـلات وبخـاصة مجلة «الهدف»، معنى ذلك أن النتاج الفكـري للحكيم مرتبط بالـواقـع الذي عاشه وهولم يكن مجرد مفكر منعزل عن الحياة أو مراقب لهـا بل هومتفـاعـل مع الأحـداث إلى أبعـد الحدود. وتدور كتاباته في أكثرها حول حركة التحرر القومي العربية وهموم تحرير فلسطين وعمل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وفيما يلي بعض مانشره الطبيب تأهيلاً والسياسي هواية وعملاً الحكيم الدكتور حبش:

- حول تحرير المرأة، ٨ آذار ١٩٧٨.
- دروس الماضي وآفاق المستقبل، منشورات الهدف ١٩٨٨.
- حول حرب لبنان ونتائجها.

- أزمة الثورة الفلسطينية، الجذور والحلول، بيروت ١٩٨٥.
- أربعة مقالات عن الانتفاضة، أصدرتها دائرة الاعلام في الجبهة الشعبية بمناسبة الذكرى الثانية للانتفاضة[١٨].

الدكتور وهيب الغانم

ولد وهيب الغانم في انطاكية عام ١٩١٩ في أسرة متوسطة الحال بالنسبة لمعايير ذلك الزمن. حاز شهادة البكالوريا الثانية في صيف ١٩٣٧ وانتسب إلى معهد الطب بدمشق في تشرين الأول ١٩٣٧. وقد وفّرت له المنحة المقدمة له من الدولة بسبب تفوقه امكانية الدراسة في دمشق.

تأثر وهيب الغانم في المرحلة الثانوية بأستاذه زكي الأرسوزي. تخرج الأخير من فرنسا حاملاً ثقافة فرنكوية ومتحمساً لها ولكنه سرعان مااصطدم بواقع الاحتلال الاستعماري الفرنسي في سورية فاندفع في مقاومة الاستعمار وانتسب إلى عصبة العمل القومي ورفع راية الكفاح الوطني دفاعاً عن عروبة لواء اسكندرون. أما التلميذ وهيب الغانم فلم ينتسب لعصبة العمل القومي وكان منكباً على الدراسة مع مشاركة نشطة في الأحداث الوطنية الجارية أواخر الثلاثينات.

بعد نزوح الأرسوزي من لواء اسكندرون وإقامته في دمشق توطدت الصلات بين الاستاذ زكي الارسوزي وتلميذه السابق في الثانوية واللاحق في الميدان الايديولوجي. وبات معروفاً أن وهيب الغانم كان من أوعى تلاميذ الارسوزي، الذي انفصل في دمشق عن عصبة العمل القومي وشرع في تأسيس تيار فكري قومي اطلق عليه في عام ١٩٤٠ اسم البعث. وقد ظهر التنافس جلياً بين تيار الارسوزي ومعه وهيب الغانم وتيار قومي عربي آخر وضع أسسه ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار، أطلق عليه أصحابه اسم «الاحياء العربي» ثم «البعث» وبعد سنوات تبين أن الأرسوزي غير قادر على قيادة حركة سياسية مما أفسح المجال رحباً أمام عفلق والبيطار، اللذين سارا أشواطاً إلى الأمام في ترسيخ تيار «البعث العربي». وتحت ضغط الأحداث و«الرفاق» اضطرا، أو وجدا من مصلحة الحركة، التعاون مع وهيب الغانم، الذي بزغ نجمه في اللاذقية، لتأسيس حزب البعث العربي في نيسان ١٩٤٧.

في صيف ١٩٤٣ قام طالب الطب وهيب الغـانم بمسيـرة شبـه اسطـوريـة برفقة أحد أصـدقـائـه استمرت ثلاثة أشهر متنقلاً بين قرى جبال العلويين سيراً على الاقدام. وقد رمى الغانم من وراء هذه الجولة التعرف على المجتمع والقيام بأعمال انسانية لمساعدة المرضى من الفلاحين واستغلال التعارف مع أهل الريف للدعوة لمبادئه القومية، التي كانت في دور النضـج. وبعـد رجـوعـه من هذه الجولة إلى اللاذقية اعتقلته السلطات لمدة أربع وعشرين ساعـة بتهمـة التجسس لألمانيا والدعوة إلى التعصب القومي وإلى النازية. فأجاب الغانم: «أنا ضد النازية ومع الحرية والديمقراطية»...

كان أول قرار اتخذه طالب الطب وهيب الغانم أثر جولته تلك العمل في اللاذقية بعد التخـرج. فقـد أثّرت فيه حالة البؤس والفقر والاستغلال السائدة في ريف اللاذقية. وشدته إلى العمل للخلاص منها وجعل اللاذقية منطلقاً للدعوة لأفكاره.

حول وضـع الـريف في الأربعينـات كتب الغانم في مذكراته: «الاقطاع، التخلف، الفقـر الأسـود، الخمول، جدب الأرض، الزعامات المفروضة، الاستغلال، الاضطهاد، أنواع التمزق، الابتزاز وباختصار كل مايمكن أن توصل إليه قرون من التخلف والاحتلال الأجنبي».

وهكـذا قرر الغـانم السيـر مع الفقـراء والـدعـوة إلى «الخبز والحرية». وعلى أثر هذه الجولة كتب الغانم: «بُت أعلم أن العواطف لاتكفي بل يجب بتر أسباب الظلم الاقتصادي من أساسها».

تخـرج وهيب الغـانم من معهد الطب في حزيران ١٩٤٤ وسرعانماافتتح عيادته في الـلاذقيـة في ايلول من العـام نفسـه. فالعيادة عليها أن تكون منطلقاً للدعوة لأفكاره. وبعد افتتاح العيادة بأشهر أصدر في عام ١٩٤٥ بياناً باسم «مكتب البعث العربي في اللاذقية»، وقعّـه مع وهيب اثنين من رفـاقـه. ولابـد من التنـويـه هنـا ان حركـة وهيب الغانم وبيانه في الـلاذقيـة لم تكن ـ كمـا ذكـر ـ على أيـة علاقـة تنظيمية مع حركة عفلق والبيطار، بل كانت امتـداداً لحـركـة الأرسوزي. ولكن حركة وهيب الغانم في اللاذقية، أو بالأصح في ريفها، تميـزت عن حركـة الأرسـوزي، التي أكـدت فقط على الجانب القومي، بأنها أولت العامل الاقتصادي والهموم اليومية للناس الاهتمام الرئيسي، وجعلت من الاشتراكية محوراً أساسياً لنشاطها.

وهكـذا عنـدمـا قام وفـد بعثي كبيـر برئاسة ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار بزيارة الـلاذقيـة للاجتمـاع بوهيب الغـانم أصـرَّ الأخيـر على تأسيس حزب جديد. وجاءت وثائق المؤتمـر التأسيسي لحـزب البعث العـربي المنعقـد في ٧ نيسـان ١٩٤٧ حصيلة الجهـد الفكـري لكـل من عفلق والغـانم بالـدرجـة الأولى. فقد قدمت للمؤتمر ـ حسب الروايات المؤيـدة للغـانم أو المعادية لعفلق ـ وثيقتان الأولى تعالج قضايا الأمة والقومية العربية كتبها عفلق والبيطـار، والثـانيـة تُركِّـز على الجانب الاقتصادي والاتجاه الاشتراكي كتبها الغانم. وجاءت اللجنة التنفيذية حصيلة هذا اللقاء مؤلفة من عفلق والبيطار والغانم وجلال السيد. وكثير من المصادر التي كتبت عن المؤتمر التأسيسي لحزب البعث العربي تصف تيار الغانم بالتطـرف في طرحـه للاشتـراكيـة. والتطرف هنا أمر نسبي بالقياس إلى الآخرين، الذين لم يكن بإمكانهم سماع كلمة اشتراكية.

والسؤال المطـروح هو: من أين أتت أفكـار الغانم الاشتراكية؟.. هل كانت أفكاره الاشتـراكيـة ثمـرة تأثـره بالواقع الاجتماعي البائس والاستغلال الطبقي الفاضح؟.. أم أنها حصيلة قراءاته في الكتب الاشتراكية أو الماركسية؟... أم هي ثمرة العاملين معاً؟....

أثنـاء لقـائنـا مع الـدكتـور وهيب الغـانم في ٧/ ١/ ١٩٩٤ سألناه عن مناهل تفكيره الاشتـراكي، فأجـاب: بأن البذور الاشتراكية نمت لديه بسبب الواقع والفقر. وأردف الغانم قائـلاً: «أنـا طاحـونـة قراءة ومن جميـع الأنـواع. قرأت المـاركسية والرأسمالية والمثالية». وأضـاف أنـه تأثـر بفيختـه وتـرجم كتـابـه، وهـو لا يـزال طالبـاً، والتـرجمة لم تُطبع ولا تزال مخطوطاً. وكان واضحاً من حديث الغانم أنه تأثر بالكتابات الماركسية مثلما تأثر بغيرها من الفلسفـات. ولكنـه أضـاف أنـه كان معجبـاً ومتأثراً بكتاب رأس المال لماركس وقام بشرح بعض فصوله في الحلقات الحزبية، مما دفع ميشيل عفلق لمعاتبته على هذا النشاط.

اطلَعْنـا الـدكتـور الغـانم على نص تصـريـح له إلى الصحفي الفـرنسي إيريك رولو المنشور في صحيفة لوموند ديبلوماتيك الفرنسية في ايلول ١٩٦٧، والذي جاء فيه: «... كنت أدعـو في ذلـك الـوقت إلى أفكـار اشتـراكية ذات صبغة ماركسية كنت قد عكفت على دراستهـا منـذ الانتصـار السوفياتي في ستالينغراد، وانني كنت حريصاً على أن يأخذ الحزب اتجاهاً يسارياً».

قرأ الغانم النص وأجاب أنه لم يصرح تماماً بما جاء في الصحيفة فهو دعا إلى أفكار

اشتـراكيـة ولكن بدون صبغـة ماركسية، كما أن الانتصار السوفياتي في ستالينغراد لم يدفعه إلى دراسة الاشتراكية . .

ماهي الحقيقـة اذن؟ . . . نعتقـد أن الغـانم عنـدما نفى تأثره العميق بالماركسية كان صادقـاً فيمـا يقول. وعلينا أن نأخذ تصريح الصحفي ايريك رولو بتحفظ كبير. ولعل الغانم تحدث أمام الصحفي عن تأثره بالماركسية مثلما تأثر بغيرها من الفلسفات ففهمها أو أوردها الصحفي على النحو الذي كتبه.

هذه الفقرات كتبناها مباشرة في أعقاب اللقاء مع الدكتور الغانم في ٧/ ١/ ١٩٩٤ . ولنقـرأ ماكتبـه الغـانم في مؤلفـه «الجـذور الفكـرية لمبادىء البعث العربي» المكتوب عام ١٩٨٤ والمنشور في آذار ١٩٩٤، والذي قرأناه في ٥/ ٧/ ١٩٩٥ كتب الطبيب وهيب الغانم:

«كنت مفعمـاً بإعجـاب عميق إزاء فلسفـة الأرسـوزي وخاصة إزاء كتابه عبقرية الأمة العـربيـة في لسـانها. . . وبتقدير تاريخي لكتاب رأس المال لكارل ماركس لما فيه من سبر عميق للواقـع التـاريخي وفضـح لأسـاليب الـرأسمالية وطرق استغلالها ونهبها ومايؤدي إليه ذلك من ثورة حقيقية حاسمة عليها، ومن تمسك بالاشتراكية كحل جذري في وجه آثامها. إلا أنني مع هذا التقـديـر وذلك الإعجاب كنت مؤمناً بأن المهمة الفكرية لمؤسسي البعث عام ١٩٤٧ هي في اتجاه تجاوزهما ولكن لا عن طريق جهلهما، وإنما عن طريق تمثلهما».

المهم في الأمـر أن الغـانم لم يكن متعـاطفاً مع الاتحاد السوفياتي. وقد عبّر عن رأيه بصـراحـة في احـدى جلسـات المجلس النيـابي عام ١٩٥٥ عنـدما رفض السير مع امريكا وعدم أكل «الزبدة الروسية»، بما يعني في رأيه الحفاظ على شخصيتنا المستقلة بعيداً عن المعسكرات.

ولنعـد الآن إلى تتبـع نشـاط الغانم في اللاذقية. إذ لم يمض وقت طويل على إقامته في الـلاذقيـة حتى أصبـح معـروفاً في مختلف الأوساط وكانت شعبيته المتصاعدة باستمرار تستند إلى أربعة ركائز:

- طبيب يعـالـج النـاس بإخلاص وتفان، ويُحَكِّمُ الفقراء «بلاش»، أي بدون مقابل. وقد

كان هدف المهنة خدمة الفكرة. والعيادة قامت بهذا الدور خير قيام فسهلت له عملية الاتصال بالناس دون حواجز أو رقباء.

- مفكر غزير الثقافة ويتمتع بإمكانية الاقناع.
- أديب يتحدث بلغة تأسر سامعيها وخطيب سريع البديهة يتكيّف مع المواقف الطارئة دون تلكؤ.
- سياسي يحمل أفكاراً تمزج بين الفكر الوطني والقومي من جهة والفكر الاجتماعي الاشتراكي من جهة ثانية.

وقصارى القول فإن المباديء التي نادى بها الدكتور وهيب الغانم كانت مقرونة بسلوك شخصي ينسجم مع هذه المبادىء ولايتعالى عليها، مضافاً إليها عيادة شعبية فتحت له أبواب بيوت الناس. وهذه الأمور مجتمعة أسهمت في الشعبية، التي تمتع بها الغانم في أواخر الأربعينات والخمسينات.

ونلاحظ أن حركة وهيب الغانم البعثية في اللاذقية تساوقت مع حركة العربي الاشتراكي في أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات من حيث التحالفات الطبقية التي عقدتها كلتا الحركتين. ففي كل من الحركتين تَمَّ الاعتماد على الفلاحين بمختلف أصنافهم من جهة وعلى صغار الملاك والمتوسطين وزعامات الدرجة الثانية من جهة أخرى. وهذه الزعامات وأولئك الملاك الصغار طمحوا في ضرب الملاك الكبار وزعامات الدرجة الأولى. هذا الاستنتاج وصلت إليه من خلال الحديث مع الدكتور الغانم. ولما سألته عن رأيه في هذا الاستنتاج أكد عليه، وأردف قائلاً: اصطدمنا مع الاقطاعيين ومع المشايخ ولكن بدرجات مختلفة. فليس كل الزعماء على مستوى واحد من الرجعية. فالكثرة من متوسطي الملكية وقفوا معنا.

خاض الدكتور وهيب الغانم انتخابات المجلس النيابي لعام ١٩٤٧ عن مدينة اللاذقية وقضائها متحالفاً مع الطبيب أمين رويحة المار ذكره. وقد رأى آل شريتح (من زعماء اللاذقية)، أن خير وسيلة لمقاومة «قائمة الأطباء» هي بترشيح الطبيب نديم شومان للوقوف في وجه «قائمة الأطباء». ويعتقد الغانم أن النجاح كان حليفه لولا التزوير، الذي تم في صناديق قرى التركمان وأدى إلى نجاح أسعد هارون ونديم شومان.

على أثر انقلاب الزعيم حسني الزعيم في آذار ١٩٤٩ اعتقل الدكتور وهيب الغانم

مع رفاقه قادة حزب البعث وسجن لمدة ٢٦ يوماً في زنزانة أبوريحة لم يستطع الجلادون خلالها من أخذ أي تصريح منه في مدح الزعيم أو الاعلان عن تخليه عن مبادئه[١٩].

عاود الغانم ترشيح نفسه في انتخابات ١٩٤٩ للمجلس النيابي عن قضاء اللاذقية ووقف ضد اتحاد سورية الجمهورية المستقلة مع العراق الملكي كي لايأتي النفوذ البريطاني إلى سورية عن طريق هذا الاتحاد. لذلك واجه الغانم مقاومة عنيفة من حزب الشعب المؤيد للاتحاد مع العراق والمهيمن على السلطة آنذاك.

وجاءت انتخابات ١٩٥٤ لترفع الغانم نائباً عن قضاء اللاذقية بأكثرية ساحقة. ولكن الغانم لم يبرز في جلسات برلمان ١٩٥٤ ـ ١٩٥٨ لأن قادة البعث الآخرين كانوا يتحدثون باسم الحزب. وهو، كما قال عن نفسه، يفضل طرح الفكرة ويترك غيره يتكلم عنها. وهو عزوف عن المناصب ويكره تقييد حريته، وهو بطبيعته فنان أكثر منه سياسي. ومع ذلك فقد رشحه حزب البعث أثناء غيابه وزيراً للصحة من ١٣/ ٢/ ١٩٥٥ إلى ١٣/ ٩/ ١٩٥٥. وعندما استقالت الوزارة، استقل السيارة عائداً إلى اللاذقية قائلاً لأحد أقربائه «أشعر الآن كأنني خلصت من السجن».

وروى الغانم أن الوزير في أيام زمان كان يُوضع تحت تصرفه سيارة بدون بنزين. أي أن ثمن محروقات السيارة تقع على عاتق الوزير. وذات مرة ارسل الوزير الغانم السيارة لنقل زوجته من أحد الضواحي إلى دمشق وكان يجهل أن استخدام السيارة بهذا الشكل فيه تجاوز لصلاحيات الوزير. فكتبت جريدة الأيام خبراً تنتقد فيه الوزير، الذي استخدم سيارة الدولة لأغراض خاصة. فما كان من الوزير إلا أن هتف لنصوح بابيل صاحب الأيام معتذراً على تصرفه وأنه كان يجهل أن ليس من حقه استخدام السيارة طالما أن ثمن البنزين من جيبه الخاص. . . !!!!

كان من الطبيعي أن يؤيد الغانم الوحدة بين سورة ومصر عام ١٩٥٩. وعلى الرغم من أنه لم يكن ميّالاً لمتجيد الأفراد، إلا أنه وضع صورة عبد الناصر في عيادته بعد نجاحه في تأميم قناة السويس. ولكنه أنزل الصورة بعد مرور شهرين على الوحدة. فالغانم لم يكن يتصور أن المباحث ستقوم بملاحقة البشر واضطهادهم في ظل حكم وحدوي. وفي أواخر أيام الوحدة كانت تسير وراءه باستمرار سيارة مباحثية لمراقبة حركاته وزياراته.

لم يكن الغانم راغباً في فصم عرى الوحدة بين سورية ومصر مهما كانت الأسباب.

وفي «عهـد الانفصـال» رفض في البـدء أن يرشـح نفسـه عام ١٩٦١ لانتخـابات المجلس النيـابي . ولكن رفـاقـه أجبروه على ترشيح نفسه حتى لاتخلو الساحة للآخرين . فنجح نائباً عن قضاء اللاذقية وكان وثيق الصلة بحركة الاشتراكيين العرب لمدة طويلة من الزمن[٢٠] .

في خريف عام ١٩٦٦ اكتملت القنـاعـة لدى الغـانـم ولـدى مجموعة من رفاقه بحل منظمة الاشتراكيين العرب (جناح من أجنحة البعث آنذاك) . وقد أعيد تأسيس هذه المنظمة (الحركة) عام ١٩٧٠ ، إلا أن الغانم لم ينضم إليها . و«منذ ذلك اليوم» ، خريف عام ١٩٦٦ كما كتب الغانم ، «لم تبق لي أية صلة سياسية مع فرد أو مجموعة . على أن هذا لايعني أن اللهب المقدس قد خبا»[٢١] .

المـلاحـظ أن الـدكتـور وهيب الغانم لم يغلق عيادته إلا في فترات قصيرة عندما كان ملزمـاً بحضـور جلسـات المجلس النيابي ١٩٥٤ ـ ١٩٥٨ وفي عهد الانفصال وكذلك في فتـرة تسلمـه منصب وزيـر الصحـة (١٣ / ٢/ ١٩٥٥ ـ ١٣/ ٩/ ١٩٥٥) . وفيما عدا ذلك كان مثابراً على العمل في عيادته منذ افتتاحها في خريف عام ١٩٤٤ وحتى تاريخ اللقاء معه في ١٤/ ١/ ١٩٩٤ . وقد تعرض في الآونة الأخيرة لاعتدائين لامجال للحديث عنهما هنا .

وعلى الرغم من تمكن الغانم من اللغة وامتلاكه لأسلوب أدبي واضح واتساع الدائرة المعرفية المتعددة الجوانب فإن الكتابة لم تأخذ حيّزاً واسعاً من نشاطه ، الذي صرفه عموماً على العمل الطبي والنشاط السياسي اليومي من خلال الاتصال بالناس وتبادل الأحاديث معهم .

القى الغانم في عام ١٩٥٢ محاضرة حول «الاشتراكية والحرية الانسانية» اقترح فيها «تأليفـاً بعثيـاً» ، وبعبـارة أخـرى نوعـاً من التـوفيق بين الرأسمالية والشيوعية اطلق عليه اسم «الاشتـراكيـة العـربية» . وهذه الاشتراكية تمتاز عن الشيوعية ـ في نظره ـ بالحق في الملكية الخاصة وبالحرية . وهذه الحرية تهتم بـ«جوهر الانسان» وتعتبر مصدراً لكل نظام اقتصادي»[٢٢] .

كتب الغانم مذكراته ووضع لها العنوان التالي : «مسيرتي بين الناس» . ولم ينشر من هذه المـذكـرات إلا مقـاطـع قليلة في جريـدة المناضل ويأمل الغانم بنشرها في المستقبل القريب . كما يملك مخطوطاً كتبه عام ١٩٤٢ بعنوان «رسالة الحياة» .

وقبـل أسـابيـع من تاريـخ اللقـاء، دفـع الغـانـم إلى المطبعة كتاباً بعنوان: «الجذور الـواقعيـة والفكـرية لمبادىء البعث العربي الاشتراكي»، انتهى من انجازه عام ١٩٨٤. في هذا الكتاب تناول الغانم كثيراً من القضايا نقتبس منها الفقرات التي تفوه بها أثناء لقائنا وهي:

- اننا لم نستطع تطبيق شيء من هذه المبادىء بسبب عوامل داخلية وخارجية.
- بحث وافٍ عن حرية الانسان والفكر والاعتقاد وعن الفكر القومي وعن الاشتراكية.
- إصرار على أن الاتحاد السوفياتي سينفجر بسبب العاملين الديموقراطي والقومي.

وألْحَقَ الغـانـم بهـذا الكتـاب ـ قيد الطبع ـ ملحقاً حول «النصف الثاني من الحقيقة» سمـاه «الهيمنـة الاحـاديـة» وفي هذا الملحق يؤكـد الغـانـم على أن «الانسان الحي ينتزع حريته من أشداق القدر». ويتضمن تأكيداً شديداً على الحرية وعلى وحدانية الكون وحرية الانسان. ويرى أن مهمة الحكومة العالمية ليس الغاء القوميات بل حمايتها.

في ختـام اللقـاء مع الـدكتـور وهيب الغانم وجهنا له بعض الأسئلة والاستفسارات، نقتطف منها بعض الردود:

- في اعتقادي أن الردة الرجعية سببها الاضطهاد في العالم العربي.
- يجب أن نبحث عن أخطائنا في نكساتنا.
- أنـا كفـرد عمـري قصيـر والأمور (آفاق التطور) يمكن أن تكون مغلقة بالنسبة لي، أما إذا نظرنا إلى الأمور نظرة مستقبلية عبر التاريخ فهناك تطور مستمر لاشك فيه.
- البنيان الجديد (يقصد النظام العالمي الجديد) هو ضد طبيعة الحياة.
- يجب ألا نؤخذ بالانفعال، أي يجب الا نستسلم بسبب تبعثر الأمة.
- السلوك المعادي للحياة سيسقط مع الزمن.

بعـد لقـائنـا مع الـدكتـور وهيب الغـانم، بقليـل، صدر في آذار عام ١٩٩٤ كتـابه: «الجـذور الـواقعيـة والفكـرية لمبادىء البعث العربي» عرض فيه أفكاره وخبرته في الحياة. والحق به فصـلاً بعنـوان: «النصف الثـاني من الحقيقـة»، الذي وضعه، كما كتب على أثر الأحـداث المتسـارعـة في الاتحـاد السـوفيـاتي ويـرى فيه أن «غورباتشيف لم تكن نظريته خاطئة.. كانت على مايكفي من السلامة والصواب، خطيئته القاتلة في الأسلوب..».

وحـول قيـام مايسمى بـ«النظـام الدولي الجديد» كتب الغانم: «كثير من الانتصارات

وضعت أمـام الشعـوب من المصـاعب، ماجعلها تعاني انتكاسات متوالية. وها هو الشعب الامـريكي - بعـد تفجـر المعسكـر الاشتـراكي - يضعه القدر أمام الخيار الصعب والحاسم بالنسبة له ولجميع الشعوب» إما «أن يواصل سيره على مبدأ الربح مستنيراً نظرياً بالبراغمائية والتلمـود وملوحـاً عمليـاً بالقـوة والتـدمير فيستقبـل العـالم القرن الواحد والعشرين بالآلام والحـروب المحليـة والأمـراض والمجـاعـات، أو أن يتجـه خطـوة خطوة بثقة وتصميم نحو المساواة والسلام وتبادل المصالح مستنيراً نظرياً بالديموقراطية والأخلاق، وبالمثل الانسانية السامية، وعملياً بالحوار البناء وعدالة التوزيع واحترام حق جميع الشعوب بالكرامة والحياة».

الدكتور سامي الجندي (١٩٢١ - ١٩٩٦)

ولـد سامي الجنـدي في بلدة السلميـة في ١٥/ ١٢/ ١٩٢١[٢٣]. ويبـدو أن أسـرة الجنـدي كانت على معـرفـة بثقافة تلك الأيام. فجد سامي كان يحفظ ديوان ابن الفارض. وسـامي كان يقـرأ الطبـري وعمره احدى عشر سنة. أم سامي كانت تحفظ سيرة بني هلال، عنتـرة، سيف بن ذي يزن وكـانت تروي لابنهـا هذه الحكـايـات حتى ينام. ومن هنا شغف الطفل سامي برواية الحكايات، التي يسمعها أمام زملائه. وقداسهم في تعليم أخوته ومثّل لهم الالياذة والاوديسة. وبدأ في سن الحادية عشر يطالع بالفرنسية مستعيناً بالقاموس. ولا شك أن هذا الجو الثقافي أسهم في تكوين سامي الجندي.

انتقـل سامي الجنـدي من السلميـة إلى حمص وأصبـح تلميـذاً داخلياً في المدرسة الارثوذكسية (الآسية). وهناك توطدت أواصر المحبة بينه وبين خوري افرنسي (نسي اسمه) كان يُدَرّسْ اللغـة الفـرنسيـة. وهـو أول من جعله يعـرف سر اللغـة الفرنسية ويندفع لاتقانها والتعرف من خلالها على الثقافة الأوروبية.

نال سامي الجنـدي البكـالـوريا في تشرين الأول عام ١٩٤٠ وانتسب في العام نفسه إلى الجـامعـة السورية (طب الأسنان). وبعد وصوله إلى دمشق بيوم واحد تعرف على زكي الأرسـوزي وأصبـح من تلامـذتـه المتحمسين. في تلك الأيـام، أوائل الأربعينات كان ثمة تنـافس ثقـافي واضـح بين الأرسوزي من جهة وميشيل عفلق وصلاح البيطار من جهة أخرى

على كسب الطـلاب ، آلمنـدفعين في الاتجـاه القومي العربي ، إلى جانب أحد الفريقين . وأخيـراً تغلب جنـاح عفلق على الأرسوزي ، الذي لم يكن أهلاً للقيادة السياسية ، وأخذت مجموعة الأرسوزي تنضم تباعاً إلى جناح عفلق ، وكان الجندي آخر من «ترك» الأرسوزي ، الـذي أعلن اعتـزالـه السيـاسة ، وانضم إلى الجناح الآخر، الذي أخذ اسم البعث . ولهذا نجـد الجنـدي في طليعـة الـداعين إلى اقـالـة عفلق من منصبه في حزب البعث إثر رسالته المعروفة عام ١٩٤٩ إلى حسني الزعيم . فقد اجتمع في بيت لجندي في حمص عدد من بعثي الصف الثاني وقرروا وضع الطبيب وهيب الغانم ، الذي لمع نجمه بعد انتخابات عام ١٩٤٧ مكانه . ولكن الغانم ، وهو أقوى شخصية من مجموعة الأرسوزي السابقة ، رفض الاقتراح .

تخرج الجندي عام ١٩٤٤ طبيباً في الاسنان وفتح عيادة في حمص . وبسبب نشاطه الحزبي ومكانته الاجتماعية كطبيب أصبح الجندي عام ١٩٤٩ عضواً في قيادة فرع حمص لحـزب البعث العـربي . ثم رشـح نفسـه عام ١٩٥٤ باسم الحـزب عن قضـاء السلمية في انتخابات المجلس النيابي ولكن النجاح لم يحالفه .

بعد قيام الوحدة بين سورية ومصر أصبح الجندي في حزيران عام ١٩٦٠ عضواً في مجلس الأمـة مع عدد من البعثيين . وكـان تأثـره بعبـد النـاصـر قويـاً[٢٤] فقـد أذهله بحديثه العادي . وهكذا أصبح الجندي من قادة الجناح الناصري داخل حزب البعث . وأسس مع عدد من زمـلائـه البعثيين الحـركـة الـوحدوية الاشتراكية وشعاراتها مثل شعارات البعث مع اختلاف في الترتيب «وحدة اشتراكية حرية» . وفي حزيران عام ١٩٦٢ اسفر اجتماع سري في بيت الجندي عن قيام «الجبهة العربية المتحدة» وهي تحالف مجموعة قوى ناصرية .

بعـد ٨ آذار عام ١٩٦٣ أصبـح الجندي وزيراً للثقافة بصفته ممثلاً لحركة الوحدويين الاشتـراكيين . ولكنـه بعـد فتـرة وجيزة ترك الوحدويين الاشتراكيين وعاد إلى حزب البعث . وكـان في عامي ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤ النـاطق الـرسمي لمجلس قيـادة الثورة وفي فترة منها وزيراً للإعـلام . وفي خضم أحـداث تلك الفترة كلف بتشكيل الوزارة ففشل . وبعدها عُين سفيراً لسـوريـة في فرنسـا من ١٩٦٤ إلى ١٩٦٨ . وعند عودته من باريز اعتقل في سجن المزة ثم أطلق سراحـه فهـرب وسكن في فرنسـا ثم في تونس وعمـل مع منظمة التحرير الفلسطينية ، وأخيـراً استقـر في بيـروت . وقد احترق بيته أثناء الحرب الأهلية بسبب القصف وضاع قسم

من أعمـالـه. وعلى الأثـر سُمـح له بالعـودة إلى سوريـة فأقام في بلدته السلمية «منزوياً في صومعته» يتحدث بالسياسة، وبجرأة أحياناً، ولكنه لايمارسها عملياً، على حدّ علمنا.

إن سامي الجنـدي الطبيب والسيـاسي والأديب تراوح انتاجه بين التأليف والترجمة، والأخيـرة هي الطـاغيـة على أعماله. وفيما يلي أهم مؤلفاته أوبالأصح المؤلفات الموجودة في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق:

- أحداث في المنفى: بيروت ١٩٧١.
- أراعون: دمشق ١٩٩٠.
- افغانستان: حرب أم ثورة، تأليف فريد هوليداي؛ ترجمة سامي الجندي ـ ط١ بيروت ١٩٨٠
- البعث: بيروت، دار النهار ١٩٦٩.
- مجنون إلسا: Lefou D'elsa، تأليف لويس أراغون؛ ترجمة سامي الجندي، ط ٢ بيروت ١٩٨٣.
- الهـاخـاديتـو: رامـة الشحـاذ، تأليف استـوريـاس؛ ترجمـة سامي الجنـدي ـ ط ٢ بيروت ١٩٨٣، حاز المؤلف على جائزة نوبل للآداب ١٩٦٧.
- بيت الأرواح، تأليف ايزابيل الليندي؛ ترجمة سامي الجندي: دار الجندي ١٩٨٨.
- تونس الشهيدة، تأليف عبدالعزيز الثعالبي؛ ترجمة سامي الجندي ـ ط ١ دار القدس ١٩٧٥.
- خطـابـات إلى الأمـة الألمـانيـة Diseours ala nations A'llemande تأليف يوهـان ج فخته؛ ترجمة سامي الجنـدي ط١ بيـروت دار الطليعـة ١٩٧٩ . . . وقد جاء في مقدمة الحندي لهذه الترجمة «أحيراً أبرّ بوعد قطعته على نفسي سنة ١٩٤١ بترجمة هذا الكتاب ونحن إذ ننشر خطاباته هذه بلغتنا الأم لأول مرة فإنما بأمل أن تفيد أمتنا المجزأة وأجيالنا الطالعة من فكره القومي وأن تتخذ إيمانـه الراسخ بقوميته مثلاً يحتذى. . . . .».
- خطاب السويد: Diseoursde Suıde؛ وجها الحياة: L'enuers et L'endroit؛ رسائل إلى صديق ألماني: Letters A un ami Allemand، تأليف ألبير كامو؛ ترجمة سامي الجندي ـ بيروت ١٩٦٢.
- سقوط السنديان، تأليف اندريه مالرو؛ ترجمة سامي الجندي. دمشق دار طلاس ١٩٨٣ (الكتاب حوار بين المؤلف والجنرال ديغول). وطبعة أولى في بيروت ١٩٨١.
- سور الصين، تأليف فرانز كافكا؛ ترجمة سامي الجندي ط ١ بيروت ١٩٨٢.
- صديقي الياس، بيروت دار النهار ١٩٦٩.
- طفلي في سنواته الثلاث الأولى: مراحل النمو التغذية اعداد سامي الجندي. بيروت ١٩٨٣.
- عاشق أرمينيا، تأليف يفيشه تشارنتسي، ترجمة سامي الجندي، بيروت ١٩٨١.
- عرب ويهود ـ بيروت ١٩٦٨ ص ٢. ٢٩٩.
- في البدء كانت الثورة: مسرحية لغير التمثيل: دار الجندي ١٩٩٠.

- القضيـة : Le Proces مسـرحيـة مقتبسـة عن كافكا،-تأليف اندريه جيد، جان لويس بارو؛ ترجمة سامي الجندي . بيروت ١٩٨١ .
- كسرة خبز ط ٣ بيروت ١٩٨٢ . ص ٤٤٩٣٥ .
- مائة عام في العزلة : Cent ansde solitude تأليف غابرييل غارسيا ماركيز؛ ترجمة سامي الجندي، إنعام الجندي - ط ٥ بيروت ١٩٨٥ .
- رواية سليمان، دار الجندي، حمص ١٩٩٣ .

هذا النتاج الغزير لطبيب مارس السياسة وتعاطى الأدب يحتوي كما نرى على الكتابة السيـاسيـة والـروايـة تأليفاً وترجمة . وظاهرة الجمع بين أمجاد ثلاثة قلما نجدها في الأجيال اللاحقة خريجة الستينات ومابعدها . ولايزال الجندي يحن في أعماقه إلى الكتابة السياسية على الـرغم من تقـدم العمر والانزواء في السلمية . وهو لايزال يتابع الأحداث السياسية في العالم والوطن العربي وكأنه سياسي ممارس في قلب المعركة .

وسننشر فيما بعد أهم ماتحدث به طبيب الأسنان المتقاعد والسياسي السابق والأديب المتعمق في اللغـة الفـرنسيـة إلى صديقنـا إسمـاعيـل عيسى الصحفي في جريـدة «نضال الفـلاحين» . فعنـدمـا علمت في أوائـل كانـون الأول عام ١٩٦٣ أن إسماعيل سيسافر إلى بلدتـه السلميـة لقضـاء عطلة نهاية الأسبوع رجوته أن يلتقي الدكتور سامي الجندي لمعرفة سيرة حياته ورأيه في الأحداث . وفيما يلي رأي الجندي في بعض أحداث الساعة الفكرية السياسية كما تفوه بها إلى صديقنا الصحفي إسماعيل عيسى في ١٠/ ١٢/ ١٩٩٣ ، قال الدكتور الجندي :

- الديموقراطية التي عرفناها في الخمسينات مستحيلة بشكلها السابق .
- العقلانية ليس لها الآن دور في العالم العربي . . الزمن زمن الأصولية .
- الأصولية لاتقتصر على الدين الإسلامي بل تمتد وتشمل كل الأديان والمذاهب .
- الأصولية هي عودة إلى الدين . فالانسان يعود إلى الدين ساعة الفشل . ففي مصر فشلت الحياة السياسية . . وفي الجزائر وقع الاحباط بسبب سياسة جبهة التحرير .
- الجمهـور متـدين . . . مؤذن يجمـع مئـة ألف انسان وزعماء السياسة جميعاً لايجمعون أكثر من عشرة آلاف .
- الأصـوليـة اكتسحت السـاحـة . . . صار هناك دم . . . أنا ضد الأصولية حتى الموت . .

ولكنني لو كنت في الجـزائـر لصـوّت للأصـوليين. لأنهم بعـد استلام الحكم سيفشلون وهذا هو الطريق لاضعافهم.

- أي انتصار للأصولية في الجزائر أو مصر سيمتد إلى المناطق الأخرى ويؤثر على المنطقة تأثيراً كبيراً.
- الأصولية تنتعش بسبب غياب الديموقراطية.

الدكتور عبد السلام العجيلي

ولـد في الـرقـة عام ١٩١٨ (أو ١٩١٩) في مناخ تسوده المفاهيم البدوية وفي مجتمع يعيش حيـاة حضـريـة ليست بعيـدة عن البـداوة. درس المـرحلة الأبتـدائيـة في الرقة ونال شهـادتهـا (السـرتفيكـا) عام ١٩٢٩، وانتسب في السنـة التالية لتجهيز حلب ثم انقطع عن الدراسة لمدة أربع سنوات بسبب مرضه. وكان لهذا الانقطاع ـ كما يذكر ـ أثر في حياته فقد انصرف بنهم إلى قراءة الكتب الدينية والقصص الشعبية وكتب الأدب والتاريخ العربي. ولا شك أن وضع اسرته المادي الجيد وفّر له الجو الملائم للمطالعة وبالتالي إتمام تحصيله[٢٥].

بعـد أن نال البكـالـوريـا الثـانية عام ١٩٣٨ انتسب إلى معهد الطب العربي بدمشق وأنهى دراسته وتدريبه الطبي عام ١٩٤٥ حيث افتتح عيادة في بلدته الرقة[٢٦].

لم يغـادر العجيلي الـرقـة إلا في أشهـر الصيف في رحلات سنوية إلى أوروبا. وأول رحلة إلى الغـرب جرت عام ١٩٥١ حيث أقـام في باريس حوالي ستـة أشهـر إذ أسـرته هذه المدينة «بكل مافيها من غنى فني وثقافي ومن أسلوب للحياة فريد». وقد تحدث العجيلي عن هذه الرحلات في كتابين: «حكايات في الرحلات» و«دعوة إلى السفر».

لم ينتسب الطبيب العجيلي إلى وظيفة من وظائف الدولة ولكنه عمل في الحقل العام كسيـاسي مرتين: الأولى بين عامي ١٩٤٧ ـ ١٩٤٩ والثـانيـة في عام ١٩٦٢. فقـد نجـح الطبيب العجيلي عام ١٩٤٧ في انتخابات المجلس النيابي، الذي أطاح به انقلاب حسني الـزعيم عام ١٩٤٩. ولاشـك أن عصبيته العائلية أولاً ومركزه الاجتماعي كطبيب في منطقة «نائية» ثانياً، أسهما في نيله ثقة ناخبيه.

عام ١٩٤٨ تطوع وهو نائب في حملة جيش الانقاذ وهي الحملة التي كان مقرراً لها

أن تدخل فلسطين قبل أن يصبح قرار التقسيم نافذ المفعول في ١٥ أيار ١٩٤٨ . وقد أتاح له تطوعه بهذه الحملة تجربة نافذة ومعرفة غنية سواء من الناحية الشخصية ، أو الناحية العملية . وقد خاب أمل الشاب المثالي (العجيلي)، بعد عام ١٩٤٨ ، فهجر السياسة كممارسة فعلية وان كان لم يهجرها كمراقب ومتتبع ومفكر وكاتب .

في عام ١٩٦٢ عاد العجيلي مرة ثانية إلى السياسة بعد الوحدة في الظروف الخاصة التي مرت بسورية أيام الانفصال، عاد وزيراً «في احدى الفترات الحرجة»، كما يقول .

ويكتب العجيلي أنه في المرحلة السياسية الثانية من عمره كان راضياً عن نفسه أكثر من رضاه عنها في ممارسته الأولى عام ١٩٤٧ لأنه كان أكثر ايجابية وفعالية في الفترة الثانية منه في الفترة الأولى . وبعد اسبوع من تركه الوزارة عاد إلى عيادته في الرقة .

بدأ العجيلي الكتابة في سن مبكرة قبل أن يصبح طبيباً . وكان في بداية عهده انطوائياً ويميل إلى أن يكون في الأدب مجرد هاوٍ لا عاملاً جاداً . أول عمل مطبوع نشر للعجيلي هو مجموعة قصص بعنوان «بنت الساحرة» نشرتها دار مجلة الأديب في بيروت عام ١٩٤٨ . وكان قد كتب هذه القصة في الرقة شباط ١٩٤٥ . جاء في المقدمة «كنت . . . طبيباً داخلياً في مستشفى المعهد الطبي . وفي السنة الثالثة لملازمتي المستشفى وقعت أولى حوادث هذه القصة . وما هي في الحقيقة قصة بل هي واقعة من وقائع الحياة تمتزج فيها حقائق العلم بشيء من خرافة الأساطير» .

يذكر العجيلي عام ١٩٧٢ أنه كتب ماكتب ليعبر عن ذاته وعما يجول في ذاته وعمّا يقلقها . . ولم تكن الكتابة في أنماطها المختلفة وسيلته الوحيدة في التعبير عن ذاته . فهو يعتقد أن أسفاره وعمله الطبي ونشاطاته في المجال السياسي هي أساليب في التعبير مثل كتابة المقال أو نظم الشعر أو تأليف الروايات . وقد بلغ مجموع ماأحصيناه له تسع وعشرون عملاً أدبياً استلهم في كتابتها معارفه العلمية ومشاهداته كطبيب ريفي وماختزنه من قراءات سابقة . والأدب بالنسبة للعجيلي ليس إلا هواية من ضمن مجموعة هوايات يحول دون انجازات أكثر حسب ماكتب «ضيق وقتي وعدم توفر الاستقرار النفسي المتمادي الذي يدوم لبضعة أشهر على الأقل» .

على مدى عمره المديد نشر العجيلي أشعاراً وقصصاً ومحاضرات ألقاها على المنابر ومقالات منوعة نشرها في المجلات . وفي عام ١٩٩٠ نشرت له مؤسسة رياض الريس في

لندن مجموعة مقالاته المكتوبة بين عامي ١٩٦٣ - ١٩٧٣ في كتاب اسماه «جيل الدربكة» آراء في العلم والفكر والسياسة. ولهذا العنوان معنى عميق ينسحب، كما يريد أن يوحي للقارىء، على الواقع العربي الحالي. ولننقل وصف العجيلي للدربكة وضاربها:

إن «آلة الضارب على الدربكة أو ناقر الدف أضخم الآلات صوتاً ولأن ضربة كفه أقوى من نقرات أنامل العازفين على العود أو من سحبات أيدي عازفي الكمنجة «فهو الذي يقود الجميع» وإذا تأملت في آلته وجدتها طبلاً فارغاً. . جلدة عقيمة مشدودة في فراغ. . الضارب على الدربكة غالباً مايكون أقل أفراد التخت نصيباً من المعرفة الموسيقية ومع ذلك فإنه هو الذي ينظم حركات التخت فيحتل بهذا المكان القيادة فيها. .».

ويوضح العجيلي في مقدمة مجموعته مكان هذه المجموعة كما يلي: «ربما كان في المقالات التي ينطوي عليها هذا الكتاب مايتعلق بالأحداث الجارية في الزمن البعيد إلا أنني شخصياً ما توقفت يوماً ما في ماكتبه عند الحدث الجاري إلا لاستخلص منه معنى ثابتاً لايتقيد بزمان محدود أو مكان معين أو عبرة تصلح لازمنة طويلة وأمكنة متعددة».

في حوار أجرته مع العجيلي مجلة الآداب البيروتية (عدد آذار ١٩٧٢) يسلط العجيلي الأضواء على أمرين:

- مصير الانسانية عامة وأمته بصورة خاصة.
- مصائب هذه الأمة متأتية من داخلها وقد أصبحت محزنة وداعية إلى الانطواء والتشاؤم والتسلية الوحيدة بالنسبة للعجيلي هي الفن استمتاعاً وأداء. . . «أعني قراءة وسماعاً أو كتابة وتأليفاً. ليست هذه سوداوية، ولكنها ادراك للواقع ومسايرة له. . .».

وهنا نرى أن العجيلي يؤكد على أن العامل الداخلي هو سبب هزائم الامة بعكس الكثيرين الذين يقولون أن العوامل الخارجية (الاستعمار). . . هي سبب مصائبنا. . وهم بذلك يسهمون، دون أن يدروا، في تكريس التخلف والتغطية على العوامل الذاتية الداخلية للتخلف، وعلى العكس من ذلك كثيراً ماسلّط العجيلي في انتاجه الأدبي على «الداخل» أي «الجواني» السبب الأساسي للتخلف.

وإن كنا نرى أن ثمة علاقة جدلية بين العاملين الداخلي والخارجي، (الجواني والبراني)، إلا أن الضجة المثارة دائماً حول الدور الاحادي للعامل الخارجي في التخلف

واهمال الكشف عن العوامل الداخلية يعني في نهاية المطاف بقاء أمتنا مكبلة بقيود الكوابح الداخلية تدور في دوامة التخلف والهزائم.

كثيـر من قصص ومقـالات وخطب العجيلي تشيـر بصورة واضحة، وبالرمز إلى الدور السلبي لعـدد من العـوامل الداخلية. وتحت عنوان «الكرامة الانسانية» ألقى العجيلي كلمة في الاحتفال الذي أقامته رابطة الدفاع عن حقوق الانسان في ١٤ كانون الأول عام ١٩٦٤ أكـد فيهـا «أن قلعـة الانسان هي كرامته الانسانية وأنه حين تتهاوى هذه الكرامة وحين نعمل على الحط منها عند الانسان المواطن فإن المجتمع يتهاوى معها. .». ولهذا فإن العجيلي يعلن في ندوة جرت في نوفمبر عام ١٩٦٧ ان «السلطة المستبدة تأخذ في هذا العصر أبعاداً غيـر مألـوفـة» وهي قادرة «أن تجرد المفكر من حياته اوحريته» أو«تجرده من اعتباره الفكري والوطني والخلقي».

الدكتور صبحي أبو غنيمة (١٩٠٢ - ١٩٧٠)

ولـد في أربـد وتلقى تعليمـه الابتدائي فيها وأتم دراسته، مابعد الابتدائية في مكتب عنبـر بدمشق[٢٧]. وبـدأت بواكيـر نشـاطه الادبي تتجلى بارزة أثناء الدراسة. وقد صدرت له عام ١٩٢٢ في دمشق مجمـوعـة «أغـاني الليـل» وكتب على غلافهـا: (مجمـوعـة قصص اجتماعية اخلاقية أدبية). سافر عام ١٩٢٢ إلى برلين لدراسة الطب وأقام فيها ست سنوات حتى عام تخـرجـه سنـة ١٩٢٨. وهنـاك أصـدر مجلة «الحمامة» باللغة العربية عام ١٩٢٤ وشعـارهـا: «بـالعـرب ينهض الشـرق». افتتـح عام ١٩٢٩ عيـادة في عمـان وكان أول من استعمل الكهرباء بواسطة مولد كهربائي.

أصـدر جريـدة «الميثاق» لسان حال اللجنة التنفيذية للمؤتمر الوطني الاردني. وبعد أن أوقفتها السلطات أخذ يكتب في الصحف الفلسطينية. وكان يتردد كثيراً إلى دمشق حيث ربطتـه علاقـات وشيجـة مع عدد من الـوطنيين السـوريين. عام ١٩٤١ سجنتـه السلطـات الفـرنسيـة الديغولية بسبب ميوله نحو ألمانيا ثم فرضت عليه الاقامة الجبرية ولكنه تمكن من الفرار إلى المانيا. وقد اعتقلته القوات السوفياتية أوائل عام ١٩٤٥ في بودابست فأعلن أمام المحقق أنـه صديق الشيـوعيين في دمشق. وأعطى برهـاناً على كلامه اسم صديقه الدكتور

كامل عياد العضو البارز في عصبة مكافحة النازية والفاشستية في سورية ولبنان، والتي كانت تصدر منذ ٢٠ كانون الأول عام ١٩٤١ مجلة «الطريق» البيروتية.

عاد أبو غنيمة بعد اطلاق سراحه إلى الاردن عام ١٩٤٥ ولكنه سرعان ماغادرها إلى دمشق عام ١٩٤٧ حاملًا لواء المعارضة للملك عبد الله وبقي مقيماً في دمشق إلى عام ١٩٦٠ حيث سمح له بالعودة إلى الاردن. وقد مثل أبو غنيمة وجه المعارضة الاردنية، التي أمّت دمشق من مشارب ومراكز اجتماعية متنوعة. وبعد عودته إلى الأردن وتحسن علاقته مع الملك حسين عُين عام ١٩٦٤ سفيراً للاردن بدمشق، وجُدِّد هذا التعيين عام ١٩٦٩ نظراً لعلاقته الوطيدة مع الوجوه البارزة في سورية.

عدا مجموعته القصصية «أغاني الليل» وكتاباته في الصحف صدر لأبي غنيمة كتابان:

- «من الأيام» ـ تقديم شاعر الشام شفيق جبري. دمشق ١٩٤٠ وهو مجموعة مقالات نشرها في جريدة الأيام.
- «نظرة في أعماق الانسان» بحث جديد على ضوء تفكير حديث في الطب ـ دمشق ١٩٥٨. تقرأ في هذا الكتاب قصة الانسان كيف يرضى ويغضب ويمرض ويشفى ويسمو وينحدر. فهو يفور في أعماق الانسان، حسب تعبير ناشر الكتاب.

الدكتور وجيه البارودي (١٩٠٦ ـ ١٩٩٦)

ولد في حماة عام ١٩٠٦ وتلقى علومه فيها ثم دخل الجامعة الامريكية في بيروت لدراسة الطب وتخرج منها عام ١٩٣٢[٢٨]. لم ينتم البارودي إلى أي حزب وافتتح عيادة في حماة، وكان معروفاً فيها بقصائده الغزلية ونقده اللاذع لأهل بلدته. وصدر للبارودي الطبيب الشاعر ديوانين وعنهما سنتحدث.

صدر ديوان البارودي الأول عن مطبعة الحضارة عام ١٩٥٠ تحت عنوان: «بيني وبين الغواني» اهداه: «إلى مدينة البطولة.. والجهاد.. حماة».

تصدرت الديوان كلمتان الأولى لشاعر العاصي مدير معارف حماة الاستاذ بدر الدين الحامد تحدث فيها عن البارودي وشعره ومما كتبه: «اسلوبه عربي ناصع بعيد عن الأساليب الملتوية المضطربة التي خلقها هذا الزمن... واسع الثقافة... طبيب موفق

يدمن المطالعة . . . أكثر ماينظم في الغزل . . . ووجيه فوق ذلك ثائر على النظم العتيقة البالية متجدد تجدد العلماء المثقفين» .

وجاء في الكلمة الثانية لبدر الدين علوش مايلي : «والغزل في قيثارة هذا الطبيب الشاعر من أشد الأوتار رفيفاً . . . فهو أبداً ذلك الشاعر المتحرر المناضل في سبيل وجود مجتمع لا أثر فيه للظلم والبغض والفقر مجتمع تسود فيه مبادىء الخير والحق والعدالة . . . . ولابد لنا في معرض الحديث عن الناحية الاجتماعية في شعر وجيه من الاشارة إلى شيء من الاسراف والجور في بعض القصائد التي يهجو فيها حماة . . . . (وهذا الهجاء) ليس من قبيل العقوق للمدينة التي نشأ في أحضانها . . . وإنما هو من قبيل النقد الاجتماعي والمطالبة بالاصلاح المحلي . . . وهب قلبه للجمال وفكره للخيال وعاطفته للمرأة وكلمته للحق .

وفيما يلي عدة أبيات من ثلاث قصائد للبارودي جاء في قصيدة «الطبيب الشاعر» هذا البيت المعبّر:

أتيت إلى الدنيا طبيباً وشاعراً
أداوي بطبي الجسم والروح بالشعر

وكانت احدى قصائد الديوان بعنوان : «وجيه المتحرر في حماة المتعصبة» جاء فيها :

أداوي كل معتل فلما
اعتللت عجزت لم أشف اعتلالي
وألبِستُ الوقار وسرت قسراً
مع العقلاء أرسف في عقالي
ولي نفس تحنّ إلى التصابي
وتبذل كل مرتخص وغال

والقصيدة الثالثة بعنوان : «انتخابات حماة لعام ١٩٤٩» صدرها بالفقرة النثرية التالية : «جرت الانتخابات في حماة عام ١٩٤٩ فلعبت فيها الحزبية والشعوذة والليرات

السورية والهدايا المستورة دوراً كبا معه العلم وديست الكفاءات فكان لزاماً عليَّ أن أسجل بعدستي الشعرية هذا الموقف المشين وانقل إلى النفوس شيئاً مما أشعر به من خيبة وقنوط». جاء في هذه القصيدة:

يعزّ عليَّ هجوك ياحماة
ولكن الصفات هي الصفاة
لئن جحد الذوات يدي فإني
لاعجب كيف يجحدني العفاة
مَشَيْت للانتخاب بمنكرات
تحلل كي تُؤلّفَ قائمات
فقائمة الضلال لها دعاة
وراعي الحق تنعيه النعاة
ويخفق عالم والعلم نور
وتظفر بالنيابة شعوذات

الديوان الثاني للطبيب الشاعر وجيه البارودي بعنوان: «كذا أنا» صدر في غرة كانون الثاني من سنة ١٩٧١ في مطبعة الدباغ بحماة ويشمل القصائد من ١٩٥٠ لنهاية ١٩٧٠. والعادة أن الشاعر في سورية يطبع من ديوانه بين الفين وثلاثة آلاف نسخة أما البارودي فطبع عشرة آلاف نسخة مما يدل على مدى شعبيته والاقبال على قراءة شعره.

وهذا الديوان تتصدره أيضاً كلمتان تعرفان بالشاعر وشعره.

الكلمة الأولى للاستاذ محمود عارف البارودي جاء فيها: «... وهو صادق جريء يحدث بلدته المتزمتة بنزوات حبه ويصفعها ويفضح عيوبها ويجهر بما تستنكر. وهو أبيٌّ عفيف شامخ النفس ما استغل ولاتكسب طبع ديوانه الأول ليهدى لا ليباع.. قصائد الحب مبثوثة في ديوانه الأول على غير نظام فثمة ملحمة حب عنيف مدمى.. فكان شباب الأربعين فالخمسين حتى إذا بلغ الستين أوكاد تبدى في اهاب غلام يافع؛ وعرفه حباً للطبيعة واندماجاً بها، وقدرة على كشف مواطن الجمال... عطفاً على فقر وثورة على ظلم

حرباً على جمود. وحين يهجو بلدته تلمح فيه تقطيبة الأم الحنون تقرع ولدها وقلبها يذوب حناناً بين الضلوع».

أما الكلمة الثانية فهي للاستاذ عبد الرحمن عياش الذي وصفه بأنه «الشاعر الطبيب أو الطبيب الشاعر»، استعرض فيها بعض اللمحات الفكرية في قصائد البارودي ومنها قصيدة: «تأملات في الحياة» حيث تحدث البارودي عن الذرّة الصغرى وتفجيرها وماسيكون في عالم الطب والنجوم من كشف وإبداع. وترى البارودي في بعض الأحيان يسخر ويهجو حينما يبلغ فيه الحس الاجتماعي أقصى مداه. وننقل فيما يلي عدة أبيات من قصيدته «باب العيادة»:

١ - بابي خلية نحل كله ابر
والنحل يمنحنا شهدا مع الابر

٢ - أقضي نهاري وليلي في مصارعة
مع التيوس واحياناً مع البقر

٣ - وفي ضجيج وفوضى في مزاحمة
فالسبق فيها نصيب الليث والنمر

٤ - هذا يئن وهذا يستغيث وذا
يرغي ويزبد في حمى من الضجر

٥ - فكم وددت لو أنا في تطورنا
نرقى إلى مستوى القرباط والنور

إن «بستان الحب»، الذي عبقت أزاهيره غامرة حياة البارودي وشعره، استمر زاهياً على الرغم من بلوغ الشاعر الطبيب سن الشيخوخة، ونقرأ ذلك في قصيدته «سر الشباب» ومنها هذا البيت:

كبرت ولم أزل أصبو وقلبي ذلك القلب

الدكتور علي الناصر (١٨٩٠ - ١٩٧٣)

ولد في حماة ١٨٩٠ ودرس الطب في الكلية الطبية العسكرية العثمانية في استنبول وتخرج منها عام ١٩١٧. اختص في الأمراض الجلدية وافتتح عيادة في حلب واستقر فيها حتى تاريخ مقتله في عيادته بحلب في ٢ حزيران عام ١٩٧٠ برصاصة اخترقت صدره ولم يُعرف القاتل. ولم يكن الاغتيال لاسباب سياسية حسب بعض المصادر[٢٩].

عام ١٩٢٨ أصدر الدكتور علي الناصر أول ديوان شعري له بعنوان «قصة قلب». ثم أعقبه عام ١٩٣١ ديوان ثانٍ بعنوان «الظمأ». وتلاه مقطوعات نثرية عام ١٩٣٥ بعنوان «البلدة المسحورة». وبالاشتراك مع الاستاذ أورغان ميسر أصدر ديواناً شعرياً عام ١٩٤٧ باسم «السريال». ثم مقطوعات نثرية صدرت عام ١٩٥٤ بعنوان «دن الدموع». واعقبها في عام ١٩٦١ وتحت عنوان: «هذا أنا» كتاب شعري ونثري. وآخر ماصدر له ديوان «اثنان في واحد»، عام ١٩٦٨. وفي هذا الديوان اشارة إلى وجود أربعة أعمال «تحت الطبع للدكتور علي الناصر وهي المجموعات الشعرية التالية: «قصة أيام»، «قصة الكون الثاني»، «الأغوار»، «المطاف الأخير». ولانعلم هل رأت هذه الأعمال النور، أم لاتزال مخطوطات؟.. وسنتناول هنا ديوانين من نظم الدكتور علي الناصر كنموذجين لإنتاجه ومأأبدعه في هذا الميدان.

«الظمأ» الديوان الثاني للدكتور علي الناصر نشر عام ١٩٣١. وهو مؤلف من خمسة أبواب يحتوي كل باب على مجموعة من القصائد، والأبواب هي: زهور الربيع، عواصف قلب، على باب الفردوس، أحلام الصباح، متفرقات. وسنعتمد في تقييم هذا الديوان على ماكتبه كل من الدكتور الأديب عبد السلام العجيلي عام ١٩٦٨ وأمين الريحاني عام ١٩٣١.

كتب الدكتور العجيلي: «ديوان الظمأ الذي يحتوي القصيدة المتحررة من قيود بحور الخليل منذ نحو أربعين عاماً. ومنذ ذلك الحين ادّعى أبوّة الشعر الحديث مدّعون كثيرون ليس بينهم علي الناصر، لأنه حين نظم شعره على هذا الشكل لم يكن يريد أن يبدع مذهباً جديداً في النظم، بل كان يريد أن يعبّر عن احساسه الخاص بطريقة خاصة، فكانت تلك

القصيدة. فهو حين وجد قيد البيت الموزون بالوزن التقليدي يحول دون مايبتغيه من تعبير حطّم ذلك القيد، فكان في تحطيمه له متفرداً عمّن حوله، وعمّن سبقه. لم يكن يهمه في شيء، بل لعله كان يؤذيه أن يمشي معه الناس في هذا الذي فعله، لأنه بذلك يكون قد فقد ميزة التفرد».

أمين الريحاني وضع في ١٥ أيلول ١٩٣١ مقدمة لديوان الظمأ ننقل منها المقاطع التالية:

«هذا ديوان طبيب شاعر، بل طبيب عاشق لايطيق الحجب والستور. يخلع عذاره كما فعل الفارض صوفياً، وكما فعل أبو النواس خمرياً، ويلبس اعتذاره الخلاعة. الطبيعة أمه، والعقل أخوه، والحس دليله. . . . علي الناصر مدنيّ صحراوي الدم والأصل، بلغ من المدينة، بطريق حلب فالاستانة فباريس منزلة استقرت النفس منه، وما أمن لها العقل ولا استكان. . . . عزيزة بدوية، في عقلية علمية، في روح مدنية ـ هو ذا علي الناصر الشاعر الطبيب.

وان أفق شعره ليحيط بنزعات متعددة، متباينة وبأساليب هي عنوان الفتوة متنوعة البذور، ومنها مايزال في البراعم والأكمام.

. . . هو الشعر الجديد نظماً وتقطيعاً ولهجة. فيتناسق وروح هذا العصر السريع التنفس والسير. قل قولك بكلمة وجيزة بليغة وامش مسرعاً إلى غرضك، وهي روح هذا الشعر الجديد. . . .».

ونقدم فيما يلي ثلاث قصائد من هذا الشعر الجديد الموضوع قبل أواخر عام ١٩٣١ وهي:

أنا

مرت الأيام وأنا أنظم من الأحلام والابتسامات والأخيلة والزهور والأضواء، تيجاناً مغرية لأقدمها إلى أنانيتي.

هذا دأبي وهذا ماحبب لي الحياة.

مرت الأيام وأنا أجمع من الشره والطموح والبغض والانتقام والغيرة والشهرة أشواكاً تصمي قلبي.

هذا دأبي وهذا ماحبب لي الحياة.

مد وجزر في خضم العمر.

أمـا الآن فأنـا كأرملة غجـريـة تجـر بجـانبيهـا مسخين، شعثاء تعصف الريح العاتية بأطمـارهـا البـاليـة وتهـزهـا كبقايا علم بعد معركة دامية، ولكن عينيها الملتهبتين في وكري جبينها العالي، معلقتان بالأفق البعيد، تنظر إلى الأمام وإلى الأمام.

المـرأة

كنا على مرتفع شاهقَ
نشاهد الكون قبيل المغيب
وكانت الشمس بأنوارها
تهوي إلى البحر الرزين، المهيب
هذا وروحانا بسر الهوى
سابحة في مضمرات الغيوب.
قامت على الفور وأهوت على ـ
عنقي وهزتني بعنفٍ عجيب
مُلحَّة كالطفل هيا أتني ـ
بالشمس أو لا فانتقامي رهيب.
ظننتها تلهو ولكنني
شاهدت في العينين قدح اللهيب
هيا أتني بالشمس هيا أتني
أواه أنى لي بها من نصيب؟
شمرت ذيلي وادرعت الهوى
ورحت أرجو قبضها باليمين
ركضت في البر وأحراجه
وخضت في البحر بعزم متين

وجبت أجواء السما طائراً
كالمارد الجبار لا استكين
ومرت الأيام لااشتكي
أكافح الأهوال حتى تلين،
حتى اذا عدت بمطلوبها
مكللاً بالغار حرَّ الجبين
استنكرتني . . . قلت [ذاك الفتى]
قالت: محا ذكراه كَرُّ السنين .

ميسلون

ميسلون . . ميسلون :
أمل ضاع ، وجيش ظافر
فتيةٌ من فرنسا ، تركوا الأهل
عليهم فتياتٌ قد لبسن الأسودا
قطعوا البحر وفي أعماقها لوعة
والبعض عاف الولدا
في سبيل المجد . . . لا
في سبيل الحق . . . لا
رأسماليين يزجون البلا لبنى أوطانهم .
ميسلون . . . ميسلون :
بضعة من قبور سيجت
فخر فرنسا .
تقية للشام قبر مائل مفردا
في سبيل الشرف المعبود ،
في سبيل الوطن المغصوب ،
قام في وجه العدى .

بعـد ديـوان الظمأ أراد الـدكتـور علي النـاصـر أن يعبر مرة أخرى ـ كما كتب الدكتور العجيلي ـ بطريقة خاصة عن مشاعره الخاصة، فأصدر مع أورخان ميسر ديوان شعر مبتكر، هو ديوان «سريال» الذي طبع في عام ١٩٤٥ . لقد كتب، في حينها، مقطوعات شعرية لم يكن سهلاً لمذهب من المذاهب الشعرية المعروفة في الأدب العربي، وربما في الآداب الغـربيـة كذلـك، أن يستوعبها فأدرجها رصيفة أورخان ميسر في الشعر السريالي. ويمضي الـدكتـور العجيلي قائـلاً: لعـل علي الناصر كان في قصائده تجريدياً أكثر منه سريالياً . . . المهم أنـه تفـرد بطـريقـة تعبيـر جديدة عن مشاعره وأفكاره، وليسمِّ الناس هذه الطريقة بما يشاؤ ون من التسميات.

. . . «اثنان في واحد» هو ـ كما يظن ـ الديوان الأخير المطبوع للدكتور علي الناصر عام ١٩٦٨ عن دار الـرائـد في حلب. مقـدمـة الديوان بقلم الدكتور عبد السلام العجيلي، الذي لم يقتصر على الحديث عن الديوان الأخير، بل تناول الخط العام لنتاج علي الناصر منذ البداية.

القصـائـد في هذا الديوان ليست جديدة كلها، فهي منتخبات من شعر الدكتور علي الناصر، ومن نثره الشعري، في أطواره الأدبية والنفسية المختلفة. وننقل فيما يلي قصيدتين من هذا الديوان ليطلع القارىء على هذا النموذج من الشعر:

الطبيعة

أيتها الطبيعة ما أجملك؟
ان مايزيدك جمالاً هو عدم وعيك المصير،
فالشتاء لايقطر دمعة حزن من أجفانك الساهية!
إنك لاتأبهين للعواصف مهما طغت!
إنك تعيشين اللحظة بكلِّ ماعندك من صوفية،
فاللامبالاة هي سرّك الذي تحكم بالأقدار!
هل بكتِ الشجرة على غصن كُسِرَ منها؟
هل لبست زرعةٌ ثوبَ الحداد على زهرة قطفت منها؟

أيتها الطبيعة الحسناء وددت لو أنك
تفقهين انشادي لك عسى تُطمأن انانيتي
إنك مع جمالك لاتبلغين الذروة
التي تجلس عليها اختك المرأة!
لكن مدّه وجزره. . .
ان الجمال المطلق يقظة في كون عظيم لايعي!

الخمـــر

فدى لك أيتها الخمر كل جمال الحياة!
إنك عدوة التوازن،
في موسيقاك نشاز،
وفي رؤ اك اضطراب،
وفي شعرك هذيان!
إنك مزيّنة المرأة العبقرية:
تجعلين من شعرها أمواجَ البحار،
ومن عينيها سماواتٍ ضحيانة،
ومن عرفها أرجَ الخلود،
ومن ثغرها خدَرَ الموت!
ان العلم والحكمة والوقار والفضيلة
مسوخ تستجدي على أبواب معابدك!
كلُّ إلهٍ جُحد إلا أنت!

الدكتور عبد الرحمن شقير

ولد في دمشق (حي الميدان) عام ١٩١٥. بدأ دراسته الابتدائية في دمشق وختمها في

عمان ثم حصل على الشهادة الثانوية من مدرسة السلط عام ١٩٣٣. انتسب في ايلول عام ١٩٣٣ إلى معهد الطب العربي بدمشق وعاش حياة تقشف بسبب وفاة والديه وشح موارده وسكنه عند أقربائه. وكانت بعض عائلات الميدان الممتهنة للتجارة تتوزع العمل والسكن بين دمشق (الميدان) وعمان[٣٠].

شارك طالب الطب، شأن الأكثرية الساحقة من زملائه، في الحركة الطلابية والمظاهرات الوطنية وبخاصة أثناء اضراب أوائل عام ١٩٣٦. ويقول شقير في مذكراته أن اضرابات الطلاب في ذلك الزمن، بقيادة طلاب الجامعة، تميزت بالتنظيم والروح الديمقراطية وباللجان والمجالس والمؤتمرات، التي كانت تعقد لمواصلة الاضراب سواء على مدرج الجامعة أو في الجامع الأموي.

أصيب شقير وهو في السنة الثالثة (١٩٣٦ ـ ١٩٣٧) بمرض سل العمود الفقري. فاضطر في آب ١٩٣٧ للاستلقاء على سرير خشبي والتعرض لأشعة الشمس وتناول زيت السمك. استمر مرض شقير خمس سنوات روى قصتها شقير في مذكراته، وهي ملحمة فريدة للقدرة الانسانية على مكافحة المرض والانتصار عليه في نهاية المطاف. وبعد شفائه عاد شقير إلى الجامعة وتخرج منها في صيف ١٩٤٤. واستقر مباشرة بعد التخرج في عمان طبيباً ممارساً وناجحاً وعاملاً نشطاً في صفوف الحركة الوطنية وقائداً جاهيرياً لامعاً وخطيباً مفوهاً. سجن أكثر من مرة ونفي خارج عمان أو خارج الاردن عدة مرات واضطر للالتجاء إلى سورية أكثر من مرة. فسيرة حياته هي سيرة الحركة الوطنية في الاردن وسورية والمشرق العربي.

عُرف عن الدكتور عبد الرحمن شقير في عمان القدرة على إثارة الجماهير، واستجابة الشارع له، وصارت عصاه التي يتوكأ عليها، بسبب مرضه السابق في سل العظام، رمزاً لقدرته على تحريك الناس والهاب الجماهير. وفي الوقت نفسه عاش حياة رخية من دخل عيادته الممتاز، والتي كانت موضع توجه جميع الناس على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم في وقت كان الأطباء يعدون على الأصابع. واسهمت السيارة التي اشتراها ووظف عليها سائقاً، بسبب تيبس ظهره وركبته، في سهولة تحركه وتوسيع رقعة علاقاته على مستوى الاردن.

انتمى شقير إلى حزب البعث العربي وأصبح من قادته البارزين في الاردن. ولكن

قراءتـه للكتب المـاركسيـة الممنـوعـة أدت إلى نزوع يسـاري في اتجاهه قاده للاسهام في تكوين الجبهة الوطنية المؤلفة من سبعين شخصية والقريبة من الحزب الشيوعي الاردني. وعنـدمـا أبـدت قيـادة البعث في الاردن عدم موافقتهـا على خط شقير السياسي استقال من حزب البعث في ربيع ١٩٥٤. وفي الـوقت نفسـه أصـدر جريـدة «الجبهـة الوطنية»، التي سرعان ما اغلقت بعد صدور ثمانية اعداد منها.

رشح شقير نفسه لانتخابات تشرين الأول ١٩٥٤ وحاز على تأييد شعبي واضح ولكن قوى السلطة حالت دون وصوله إلى البرلمان. وعلى الأثر قامت السلطات بملاحقة الدكتور شقير بسبب خطبه السياسية فاضطر إلى اللجوء إلى سورية مِرتدياً لباساً نسائياً تقليدياً يخفي كل معـالم المـرء، وجلس إلى جانب سائق دمشقي بصفته «شقيقة» السائق، الذي بحوزته جواز سفر مشترك له ولأخته. وصل شقير إلى نقطة الحدود في الحادية عشر ليلاً. ولم يدقق موظف الأمن بالسائق أو «بأخته» حسبما درج آنذاك من عادات عدم تحري هويات النساء أو وضع صورهن في جوازات السفر.

منـذ اليـوم الثـاني لوصـولـه إلى دمشق، اتصـل الـدكتـور شقيـر بالـزعمـاء الوطنيين والسيـاسيين ووزع بيـان مطبوعاً على ورق الحرير، على جميع الصحف ورجال السياسة، ناقلاً الصورة المظلمة لحكم جلوب باشا الانكليزي وتزوير الانتخابات الفاضح ثم المعركة الدامية التي سقط فيها أربعة عشر قتيلاً. وبعد عام من الاقامة في دمشق، التي كانت تعج بالنشـاط الـوطني وتُـرسِّـخْ دعائم الحياة الديموقراطية في الخمسينات، سُمِحَ للدكتور شقير بالعودة إلى عمان.

انطلقت في أواخـر كانـون الأول عام ١٩٥٦ في عمـان مظـاهـرات عارمة ضد حلف بغداد حيث لعبت خطب شقير دوراً في رفع أداء النهوض الوطني. وبعد أن توارى شقير عن الانظـار بسبب ملاحقتـه قرر الهـرب إلى سوريـة، فارتدى زياً نسائياً وركب مع شخص على صلة حسنة مع القصر وتمكن من اجتياز الحدود بسلام.

استأجـر شقيـر عيـادة في دمشق (حي المجتهد) وبدأ العمل ظاناً أن إقامته ستطول، ولـكن الأنبـاء نقلت في اليـوم الأول من آذار عام ١٩٥٦ نبأ طرد جلوب باشـا من الجيش الاردني وتعـريب الجيش. هزّ هذا النبأ شقيـر فابـرق مع الـدكتـور نبيه رشيدات الهارب من عمـان أيضـاً، يهنئـون الملك حسين على هذه الخطـوة. وقـد لعب سمير الرفاعي الموالي

للامريكان دوراً في إقصاء كلوب الانكليزي وتمهيد الطريق أمام النفوذ الامريكي . عاد شقير مع رشيدات إلى عمان ولكن حريته فيها لم تدم طويلاً إذ اعتقل بتهمة تحريض الموظفين على الاضراب وأرسل إلى سجن الجفر الصحراوي لمدة شهر.

عام ١٩٥٦ رشح نفسه لانتخابات تشرين الأول وذهب إلى دمشق وطبع بيانه الانتخابي منها. وفي اليوم الثاني لوصوله إلى عمان داهمت الشرطة بيته ونقلته مرة ثانية إلى معتقل الجفر الصحراوي للحيلولة دون تقديم طلب ترشيحه للانتخابات . ولكن مجيء حكومة سليمان النابلسي الوطنية في أعقاب الانتخابات اسهمت في اطلاق سراح شقير وعودته إلى عيادته في عمان حيث الناس، كما في كل مرة، بانتظاره.

عصفت الأحداث بحكومة النابلسي الوطنية بعد خطاب الملك حسين ضدها في أواخر آذار عام ١٩٥٧ ، فتداعى الوطنيون ومنهم شقير للاجتماع في نابلس للتداول في الأمر. ولكن الملك سرعان ما القى خطاباً أذاعياً متهماً الحكم الوطني بالسعي لازاحته ، فأعلن الاحكام العرفية وحل البرلمان وعطّل الصحف. اختبأ شقير في نابلس بمساعدة الحزب الشيوعي ، وتمكن من إيصال رسالة إلى صديقه عبد الحميد السراج رئيس المكتب الثاني في الجيش السوري يطلب فيها تدبير أمر نقله من نابلس إلى دمشق.

وتشاء الصدف أن أحد ضباط الجيش السوري كان على علاقة صداقة مع فتاة من نابلس. وهنا نظّم السراج حفلة الزواج وإقامة عرس فاخر في نابلس شارك فيه مجموعة من الضباط السوريين بالاضافة للعريس. وفي غمرة الابتهاج بالعرس الطنان الرنان وتداول اقداح النبيذ والويسكي حملت احدى السيارات العسكرية السورية الدكتور عبد الرحمن شقير، الذي ارتدى بدلة ضابط (عقيد) إلى الحدود السورية فدمشق.

عمد الدكتور شقير إلى افتتاح عيادة في شارع المجتهد بدمشق. وكان الطبيب الوحيد في ذلك الشارع وأحد أربع أطباء في حي الميدان. وصارت عيادته معروفة ومطروقة، وتحولت إلى مركز نشاط سياسي في سورية وأصبحت مركزاً يتردد عليه معظم اللاجئين السياسيين الاردنيين، الذين كان يعالجهم، مع الفقراء مجاناً. وتوطدت علاقات شقير مع الضباط الوطنيين في الجيش السوري وكذلك مع القوى اليسارية السورية.

على الرغم من الروح القومية التي جاشت في صدر شقير، وغيره من الوطنيين الديموقراطيين، إلا أنه لم يكن عام ١٩٥٨ من أنصار الوحدة الفورية بين مصر وسورية

بسبب اختلاف وضع القطرين وتقدم سورية في مضمار الديموقراطية وتعدد الأحزاب ووجود برلمـان فعلي لا شكلي ورسـوخ أقـدام الـدستور وتوفر نظام جمهوري برلماني. وازداد هذا الاعتقـاد رسـوخـاً أمـام مرارة التطبيق والقضـاء على مناحي الحياة الديموقراطية السائدة في سوريـة في فتـرة الخمسينـات، وعلى أثـر انفصـام عرى الـوحـدة عبّر شقير في مذكراته عن مشـاعـر الكثيـرين عنـدما قال: «من كان يصدق أن هذا يمكن أن يحصل؟ ومن يستطيع أن يتصـور أن أنبـاء الانفصـال عن مصـر ستثلج صدورنـا نحن الـذين عشنـا العمر كله نناضل لتحقيق الـوحـدة العـربيـة الكبرى؟ . . . . فواحسرتاه! نحن نبتهج بالانقلاب مدركين، في نفس الـوقت ابعـاده. . . ومـايحمله المستقبـل من اضطـرابـات وانقسـامات وخلافات في المعسكر العربي المناهض للاستعمار والصهيونية».

كانت صلات شقير ذاتية وعلاقته حميمة مع رجل سورية الأول في عهد الوحدة عبد الحميـد السـراج وزيـر الداخلية. ولكن ممارسات المباحث «مع أصحاب الأفكار المغايرة للأنظمـة التي يحمـونهـا»، والحمـلات المتلاحقة ضد الشيوعيين وغيرهم ألقت الشك في قلب شقير وخاف الغدر به، فاحتار بغداد ملجأ ثانياً له تاركاً أسرته في دمشق. ولكن الأوضاع في بغداد لم ترق لشقير فقد بدا له الوضع قلقاً غير مستقر والأحوال متأرجحة مهزوزة والسماء ملبدة بالغيوم». فطلب اللجوء السياسي إلى براغ ومنها إلى موسكو. وقد تمكن في براغ من تعلم اللغـة الـروسية مما مكنه، بمساعدة الشيوعيين الاردنيين والسوريين، من العمل طبيباً في أكاديمية الأطفال في موسكو.

بعـد الانفصـال بفتـرة وجيـزة شد الدكتور شقير الرحال إلى دمشق حيث تقطن أسرته المؤلفة من زوجته وخمسة أطفال. ولكن سلطات الانفصال منعته من دخول دمشق الغالية على قلبه، فأقام في لبنان فترة وجيزة من الزمن في ضيافة الحزب الشيوعي اللبناني ثم دخل دمشق بصـورة سريـة. وقـد مكنتـه صلاتـه القـويـة بالشخصيات الاجتماعية والسياسية من الظهور علناً واعادة افتتاح عيادته في حي الميدان. وكانت صلته في فترة الانفصال قوية مع صانعي الوحدة، الذين أبعدهم عبد الناصر، بدءاً من عفيف البزري وأكرم الحوراني مروراً بريـاض المـالكي وأمين النفـوري وانتهـاء بأحمـد عبد الكريم. كما اشتدت وتمتنت صلته بالشيوعيين. وكان الجميع كما ذكر يعيشون «فترة قلق واضطراب» خوفاً من عودة الناصرية.

عنـدمـا صدر عام ١٩٦٥ العفـو عن جميع اللاجئين الاردنيين في سورية والسياسيين

المحكومين عام ١٩٥٧، اجتمع معظم اللاجئين الاردنيين في سورية في دار الدكتور شقير وابرقوا إلى الملك حسين والحكومة الاردنية مؤيدين الخطوة الجديدة. وقد حال عمل شقير الناجح في دمشق ودراسة بناته في جامعة دمشق دون عودته إلى عمان واستمر مقيماً في دمشق حتى صيف عام ١٩٧٦. فبعد تخرج بناته من الجامعة قرر العودة إلى عمان والاقامة الدائمة فيها.

قبل هذا التاريخ بكثير، في منتصف الستينات، جرى تحول هام في موقف شقير من العمل السياسي بعد اتخاذ الشيوعيين موقفاً مؤيداً للناصرية. ولنقرأ ماكتبه شقير في مذكراته: «صدمني تحول موقف الشيوعيين، وضربهم عرض الحائط بواقع الأحداث متجاهلين اساءات هذا النوع من الحكم الدكتاتوري وممارساته القمعية ضد الناس وضدهم بالذات في الماضي القريب جداً. فناقشتهم في دمشق ولم نتفق على أية نقطة، مما حدد بداية انفصالي عن العمل السياسي، والقطيعة شبه التامة بيني وبين الشيوعيين وان ظلت علاقتي بمعظم أفرادهم بمعزل عن الفكر والسياسة» وبالمقابل كانت علاقة شقير تتوطد مع رجالات السفارة الصينية بدمشق حيث كان يُدعى إلى احتفالاتها.

لقد عاد شقير إلى عمان في صيف عام ١٩٧٦ للإقامة الدائمة فيها بعد أن «ترك» السياسة. وكانت السن قد تقدمت به فاختار عيادة بعيدة عن مركز البلد وقصر عمله على ساعات الصباح. وكان لتقدم السن وانحسار الحركة الوطنية والقومية وسلوكيات المجتمع الاستهلاكي تأثير واضح في الصدمة التي واجهته. ولنترك الدكتور عبد الرحمن شقير يعبّر لنا عن مشاعره المكتوبة أوائل عام ١٩٨١. كتب شقير:

«وبدأت أحس لأول مرة في حياتي بما لم تتح لي فرصة لمسه من تغير طبائع الناس. أو من ظهور ما ساء وماكان خافياً علي منها. فقد اضطررت إلى الإشراف بنفسي على ترميم الدار لما لمسته من اهمال الحرفيين وتعلقهم باعذار واهية وكذبات مفضوحة لعدم انجاز الأعمال أو الالتزام بما يقولونه مسبقاً. وفوجئت بسوء معاملتهم بعيداً عن كل توقع، وأنا الذي نذرت نفسي لخدمتهم وأمثالهم من المظلومين. فآلمتني مرارة المفاجأة وصدمني هول الواقع. ثم جاءت وفاة المرحوم سليمان النابلسي ومن بعده المرحوم فؤاد نصار، لتهزني من أعماقي بعنف فاصحو لارى مرحلة عزيزة قد طويت إلى الأبد من حياتي. واظلمت الدنيا في وجهي وأنا أرى الناس قد تغيرت أخلاقهم، وكأنما ليسوا من معدن البشر

الأصليين الطيبين الـذين عشت معهم وتعـاطفت وإيـاهم وخبـرت الألـم المشتـرك والهدف الأسمى حين فتحوا لي صدورهم ومنحوني عزيز ثقتهم ومحبتهم. وجدت الناس يا أسفي، يجـرون وراء المـادة والكسب بأي شكـل.. إنهـا آمالي الكبيرة تتحطم على صخرة الواقع القـاسيـة فالنـاس غيـر النـاس الـذين عهـدتهم... فتراجعت شيئاً فشيئا عن الحياة العامة واقتصـرت على الطب لعـدد محـدود من الـزبـائن في الصباح مشغلاً فراغ قبل الظهر. ولم ألاحــظ هول ما خلفــه الاجهـاد النفسي في جسـدي وقـد انحسـرت آمـال الحيـاة ورؤى المستقبـل الأفضـل وتطلعـات عيشي كله، في برهـة من الـزمن، أخـذت تتـلاشى لتفسح الطريق لليأس والاكتئاب يصاحبانني دون هوادة».

بعـد عودتـه في ربيـع عام ١٩٧٩ من زيارة عائلية إلى الولايات المتحدة كتب شقير: «عـدت إلى عمـان لأعيش حيـاة المتفرج المنفعل خارج حلبة الصراع أراقب أزمة التراجع العـربي والتـوسـع الصهيـوني، وشلل الارادة الشعبيـة، وفقـدان الحماس العام بسبب منع الجمـاهيـر والضغـط عليهـا وحـرمـانهـا من تقرير مصيرها وإبداء آرائها، وأشاهد الأحداث الدامية المحزنة التي أصبحت بلادنا ساحة لها...».

ولكن الـرصيـد النضـالي الـوطني والطبي، وبخاصة معالجة الفقراء مجاناً، للدكتور عبد الرحمن شقير تجعله يقف على رجليه مواجهاً حياته الجديدة، حياة الشيخوخة، بأمجاد المــاضي. حول هذا المـوضـوع كتب شقيـر: «ورغم كل ما مر علي، فومضـات السعـادة والأمـل تشـرق في وجهي حين التقي النـاس في الاردن، حين يرونني ويـذكـرونني بحقبـة الخمسينـات وأمجـادهـا في نفـوسهم، وارتباطها بشخصي، فأحس بنشوة وسعادة لا يمكن وصفها.. ومثل مايصادفني في الأردن، أجده في سورية حتى اليوم....».

في حوار أجرته مع الدكتور شقير مجلة «الأفق» الاردنية أواخر شباط ١٩٩٣ ننقل فيما يلي إجابتين على سؤالين للمجلة:

سؤال: هل يعتقد الدكتور شقير أن الفكر الماركسي اللينيني قد انتهى؟

جواب: اعتقد أن هذا الفكر لم ينته، لأنه فكر علمي يؤمن بالعقل واطلاق الفكر من عقاله، ويأخذ بالعلم والتكنولوجيا، وبدراسة ظواهر الكون على أسس علمية. ولأن البشرية يجب أن تخطو خطوات في سبيل نوع من العدل الاجتماعي.

سؤال: إلى ماذا تعزو الخلل الذي حدث في المعسكر الاشتراكي والاتحاد السوفياتي؟

جواب : هناك عدة أسباب أهمها مايلي :

- سباق التسلح .
- تبني الاتحاد السوفياتي لحركات التحرر الوطني في العالم .
- تسلل المنظمة الصهيونية العالمية إلى مواقع قيادية .
- البيروقراطية ، التي عاقت تقدم الاتحاد السوفياتي في العلوم والتكنولوجيا والاقتصاد .
- الغزو الاعلامي الامريكي والأوروبي الرهيب .
- وأد الحريات وعدم وجود الديمقراطية وعدم السماح للمواطنين بإبداء آرائهم وانتقاد الوضع .

وأخيراً نختم هذا العرض لمواقف شقير السياسية ونضاله الوطني بخلاصة لرأيه حول حرب الخليج كما أوردها في مذكراته . فشقير يرى أن الزعامة العراقية بدأت الحرب العراقية الايرانية باستجابتها غير المدركة للمخطط الامريكي الدائب على إذكاء الحرب بين العراق وإيران . ومع أن العراق خرج من الحرب منتصراً ١٩٨٨ إلا أنه كان منهكاً مادياً وبشرياً وتراكمت عليه الديون . ولهذا أرادت الزعامة العراقية التخلص من أزمتها الكبيرة الضاغطة ، فاثارت قضية حقل «الرميلة» جنوب العراق . ثم أشار إلى دور السفيرة الامريكية أبريل جلاسي في دفع العراق نحو احتلال الكويت من جهة وفي تشجيع الكويتين ومنعهم من قبول المطالب العراقية .

وفي الاردن لمس شقير «حماس الناس للقيادة العراقية واشادتهم بمقدرة جيش العراق الاسطوري» ، ويذكر شقير أنه لم يستطع أن يجاهر برأيه في استحالة تحقيق ماتصبو إليه الجماهير خوفاً من غوغائية المتحمسين ، هذا مع العلم أن شقير معاد للاستعمار الامريكي وعدوانيته عداء لاهوادة فيه . وخلال فترة الحرب سافر شقير مع زوجته إلى دمشق «وكان السفر» ، كما كتب : «مخرجاً مؤقتاً ومستحباً ، بعيداً عن الكبت الاضطراري الذي عانيناه لتجنب الاصطدام مع المتحمسين حولنا . وفي دمشق التقيت بأقربائي وأصدقائي ولمست حماسهم واندفاعهم للعراق ، لاحباً بقيادته ، ولكن كرهاً بالأمريكان والمستعمرين الأجانب والصهاينة . هناك نظمت قصيدة اسميتها «سأظل اشكو سطوة الأوغاد» ، أوحتها مناسبة هذه الحرب التي استعملت فيها الشعوب العربية عواطفها ولم تستعمل عقولها . . . » .

الدكتور محمد جمعه

طبيب أطفال، لم يكن كاتباً أو وجهاً سياسياً بارزاً. . . كل ماعُرف عنه أنه من مواليد دمشق عام ١٩٢٥، درس في التجهيز الأولى بدمشق ونال البكالوريا عام ١٩٤٣. وبعد أن درس في كلية الطب في الجامعة السورية شدّ الرحال عام ١٩٤٨ إلى فرنسا للتخصص في طب الأطفال. عاد إلى الوطن عام ١٩٥٣ وقام بتأدية خدمة العلم ثم توجه إلى السعودية للعمل في مشافي وزارة الصحة حيث أمضى فترة طويلة. وعندما عاد إلى دمشق عام ١٩٦٢، افتتح عيادة ودخل في الوقت نفسه في سلك وزارة الصحة مركز رعاية الأمومة والطفولة وتنقل بعدها في وظائف متعددة داخل مؤسسات وزارة الصحة.

سنة ١٩٧٥ انتخب عضواً في المكتب التنفيذي لمحافظة دمشق ممثلاً للحزب الشيوعي السوري عام ١٩٨٥ عُين وزير دولة ممثلاً للشيوعيين في وزارة الدكتور عبد الرؤوف الكسم وبقي في هذا المنصب حتى عام ١٩٩٢.

فجأة تبين أن للدكتور محمد جمعة موهبة أدبية وفكراً متوقداً من خلال مذكراته، ذات المسحة الأدبية الروائية، المنشورة عام ١٩٩٤ عن دار الأهالي باسم «الطاحون». «والمدهش» ـ كما كتب شوقي بغدادي ـ «ليس أن يغدوا الطبيب كاتباً، فالأمثال كثيرة على الأطباء الذين اشتهروا ككتاب مثل عبد السلام العجيلي، ويوسف ادريس، وتشيخوف. المدهش هو أن يحبس الطبيب أنفاسه عن الكتابة وهو قادر عليها كل هذه السنين. . ثم يطرح فجأة للناس كتاباً مثيراً في محتواه وأسلوبه. . .»[٣١].

ويجيب الدكتور جمعة في لقاء له مع جريدة «نضال الشعب» عن أسباب اختباء الكاتب والأديب في الطبيب كل هذه السنوات الطويلة بالرد التالي[٣٢]: «منذ تفتحي على الدنيا انسقت وراء الاهتمام بالأدب. وفي صباي فكرت في أن أكون أديباً. . ومصادفة قرأت نصيحة لأديب فرنسي كبير، وهو طبيب، وعضو في أكاديمية فولتير. . . وقد قال: «أنصح كل من يريد العمل في الأدب أن يؤمن سبل معيشته عن طريق آخر غير الأدب». . . وهكذا انسقت وراء هذه النصيحة» فدرست الطب. . و«ضاع العمر ولم اشتغل بالأدب،

رغم اهتمامي به، واطلاعي على الأدب العربي والأجنبي بشكل مقبول. . . إنما ظل الأدب كامناً في ذاتي إلى أن أتيحت لي فرصة كتابة الطاحون».

وواضح من المذكرات أن طالب التجهيز (الثانوي) محمد جمعة استفاد من اساتذته في اللغة العربية مثل الشيخ علي الطنطاوي والشاعر محمد البزم استفادة جمة. كما تأثر بصورة واضحة بالكاتب المصري التقدمي محمد مندور. وبالمقابل أتقن محمد جمعة اللغة الفرنسية مما مكنه من الاطلاع على الأدب الفرنسي فقرأ في دمشق لشاتوبريان ولا مارتين وغيرهما وتابع قراءة الأدب أثناء دراسته للطب في باريس.

وثمة عامل آخر هام أثّر في التكوّن الفكري لمحمد جمعة وهو الجو الفكري والسياسي السائد في مدرسة التجهيز بدمشق، مع بداية نشوء تيارات الفكر السياسي واحزابه وتبلورها في أواخر الثلاثينات وبداية الأربعينات. ويقدم الدكتور جمعة في مذكراته صوراً حيّة لبعض أساتذته واتجاهاتهم، وبأسلوبه الشيق وجمله البسيطة النابضة بالصدق يجعل القارىء يعيش أجواء تلك المرحلة. ولنقرأ المشهد التالي من مشاهد العام الدراسي **١٩٤٢ ـ ١٩٤٣**، الذي وقع مع استاذ الجغرافيا أنور النعمان. كتب جمعة:

«أتذكر أستاذ الجغرافيا، هذا الأستاذ المحبب إلى القلوب، الذي درسنا مادة الجغرافيا في البكالوريا، كان يؤمن بالماركسية، كان يعتقد بأنها طريق الخلاص. حدث ذات يوم وكان يلقي الدرس، أن قال:

- . . . . نحن هنا. . إذا انقطعت الأمطار وعمّ الجفاف. رحنا نقرع الطبول، ونقوم بصلاة الاستسقاء. . . وندعو السماء. . أين نحن من العلم الذي يسيّر العالم اليوم!.

قاطعه أحد الطلاب المتدينين:

- هذا كلام لايجوز أن يقال، هذا مرفوض. . . نحن نحتج. . . تلعثم الاستاذ، وارتبك، وراح يتمتم بكلمات غير مفهومة ثم قال: وهو يتعثر بكلامه:
- أنا لاأقصد الطعن في الدين عندما أتكلم عن العلم. . . ولكن الطالب، وقد لاحظ ارتباك الاستاذ، أخذ يصيح:
- لايجوز أن يقال مثل هذا الكلام أمام الطلاب. . . .

لشد ما آلمني أن أراه وجلاً، وأن يبدو كالمذنب أمامنا. لقد شق على نفسي أن أرى هذا الأستاذ، في مثل هذه الحال من الضعف والمهانة، أمام طلابه. . .».

نبع اتجاه محمد جمعة نحو الماركسية من طفولته بنعيمها في حي باب الجابية وبؤسها في الطاحون، ومن ثم من الجو الفكري والسياسي السائد في مدرسة التجهيز. حول ذلك الجو الفكري السياسي السائد في أواخر الثلاثينات وأوائل الأربعينات كتب جمعة:

«في مدرسة التجهيز ولدت الأفكار السياسية والاجتماعية، ونشأت الأحزاب العقائدية ومن التجهيز خرج أدباء ومفكرون وسياسيون وفنانون، ساهموا في نهضة سورية الحديثة. لقد جاءت مدرسة التجهيز لتكمل الخط الذي سار عليه الجيل الذي سبق جيلنا في مدرسة عنبر. . .».

ويرى جمعة - بحق - أن التيارات السياسية والأفكار الاجتماعية التي ظهرت في أوساط الطلاب والأساتذة كانت انعكاساً وتجسيداً لما كان يكمن في المجتمع السوري في تلك الأيام. وهذه التيارات هي:

- الاتجاه القومي، الذي استقطب في التجهيز أكثرية الطلاب الوافدين من الريف ذوي المنشأ الفلاحي المتوسط أو البورجوازي الصغير.
- الاتجاه الديني الاسلامي، الذي انتشر في الوسط المحافظ من أبناء المدينة.
- الاتجاه الماركسي، الذي كان محدود الانتشار آنذاك في مدرسة التجهيز، لما يحمله من أفكار جديدة هاجمتها التيارات الأخرى.

وقف الطالب محمد جمعة يراقب هذه التيارات عن بعد ولم يحسم أمره ويتبنى التيار الثالث، إلا فيما بعد، أثناء دراسته في فرنسا. لم يكن جمعة الطالب السوري أو العربي الوحيد، الذي أثرت فيه الأجواء الفكرية والسياسية السائدة في فرنسا ودفعت به نحو الفكر الماركسي. فالصراعات الطبقية المحتدمة آنذاك في أوروبا ومساوىء النظام الرأسمالي بشكله الامبريالي، وتأييد الشيوعيين الفرنسيين للقضايا العربية والنضال من أجل الاستقلال الوطني والحرية الفكرية السائدة، كل ذلك أثّر في التكوين العقلاني لقسم من الطلاب السوريين (والعرب) ودفع بجمعة وأمثاله نحو الماركسية فكراً وجذب البعض للانتساب للحزب الشيوعي أو الوقوف إلى جانبه. ولنترك طالب الطب محمد جمعة يروي لنا ماشاهده في باريس في أوائل الخمسينات، كتب جمعة:

«في أحد الأيام كنت أسير قرب «البانتئون»، حينما شاهدت عدداً من الفتيات

والفتيـان، يكتبـون شعـارات على أحد الجدران، توقفت أقرأ ماكانوا يكتبون. لشد ماكانت دهشتي كبيـرة، ويـاللفـرحـة التي غمـرت فؤادي، كانت شعارات سياسية، تمجد الشعب الجزائري وكفاحه من أجل الاستقلال:

- عاش الشعب الجزائري.
- الحرية لشعب الجزائر.
- ارفعوا أيديكم عن الجزائر.

تقدمت نحو إحدى الفتيات وسألتها:

- هل أنتم جزائريون؟.

أجابتني بابتسامة محببة:

- لا! نحن فرنسيون!.

قلت لها:

- ولكن الفرنسيين يقولون إن الجزائر فرنسية!.

أجابت:

- لا! ليس كل الفرنسيين يقولون إن الجزائر فرنسية!.

أسرعت إلى حقيبتها وأعطتني جريدة. كانت جريدة (الاومانيته) ثم أردفت قائلة:

- نحن شيوعييون.....

ثم عادت إلى كتابة الشعارات... وتابعت طريقي، وفي نفسي أسئلة كثيرة...

ويمضي الـدكتـور جمعـة واصفـاً لقـاءاتـه مع شيوعيين فرنسيين قدموا له أجوبة على مايعتمـل في ذاتـه من أسئلة.. وكـانـت كلمـات أستـاذه أنور نعمان تجول في خاطره عندما التقى به على سطـح البـاخـرة المسـافـرة إلى فرنسا، من وجوب الاهتمام بالمسائل الفكرية والسيـاسيـة أثنـاء دراسـة الطب في فرنسـا. إن حداً أدنى من الثقـافة العامة ينبغي على كل شخص أن يتحلى به مهمـا كان مجـال اختصـاصـه وعمله... ويعلق على كلام أستـاذه: **«كنت أعجب من هؤلاء الذين يعيشون في حدود اختصاصهم، ولا يأبهون بما يحيط بهم ومايجري في مجتمعهم».**

معنى ذلك أن طالب الطب محمد جمعة لم يقصر اهتمامه على دراسة الطب ويغلق عينيه عن مشكلات بلاده والعالم. ولنقرأ ماكتبه عن نفسه في هذا المجال:

«كنت أحاول أن أكون مثقفاً، مطلعاً على النشاط الفكري والروحي في فرنسا وفي العالم، بأن لا أحصر اهتمامي في الطب وحده. وكنت ومازلت أعتقد بأن أي اختصاصي لايعفي صاحبه من أن يملك حداً أدنى من الثقافة العامة، والانسان المثقف هو المطلع على مجرى التاريخ، ومكان الإنسان فيه، في أيّة بقعة من العالم في الماضي والحاضر، وهو الذي يشارك الآخرين في تطلعاتهم نحو الأفضل. وكنت دائماً أحاول أن أكون أفضل مما أنا فيه في جميع المجالات وعلى مختلف الصعد. وليس مثل باريز مدينة في العالم يمكن أن توفر هذه الفرص وهذه الأهداف».

«هنا في باريز عشش الألم في قلبي من أجل بلادي.... ومن هنا في باريز حملت هذا الالتزام على كتفي، الالتزام بقضايا بلادي، بقضايا الشعب المسكين، المسحوق، المضطهد، وأخذت افتش عن الحل، عن الطريق فوجدته في الماركسية. وكان طريقاً شاقاً مؤلماً....».

هذه هي خلاصة التأهيل العلمي والتكوين الفكري للدكتور محمد جمعة خصص لها في مذكراته فصلين ثم أفرد فصلاً كاملاً (الفصل الرابع) لعلاقته مع صديقته إلزا جور جنسن الدانمركية، التي أتت لدراسة اللغة الفرنسية في باريز. وتتصاعد في هذا الفصل وتيرة العواطف الجياشة، الوفاء، الصراحة في تناول العلاقة مع «ابنة الدانمرك» والتعليق عليها، مما يشد القارىء إلى متابعة هذا الفصل، الذي يكشف بعض جوانب الحياة في المجتمع الأوروبي في أعقاب الحرب العالمية الثانية.

وسرعان ماينتقل بنا الدكتور محمد جمعة من أوروبا إلى السعودية، التي ذهب إليها للعمل في مشافي مكة المكرمة. ويصف لنا حالة المرضى أيام الحج، في نهاية الخمسينات، وبخاصة اليمنيين منهم. فهم «عراة حفاة، جياع، هياكل عظمية... أذلاء، مضطهدون، أذكياء، يشعرون ببؤسهم ولكنهم يذعنون، لأنهم عاجزون». ويتعاطف الطبيب جمعة مع هؤلاء الجياع البؤساء بعكس زميله الطبيب الآخر، الذي كان ينعتهم بأنهم «بهائم وليسوا بني آدم»، وكان ينهرهم ويحتج على معاملة جمعة الانسانية لهم.

ويمضي الدكتور جمعة في هذا الفصل واصفاً بعض مناحي الحياة في الحجاز من وجهة نظر الطبيب الانساني، المطلع على الحضارة العالمية، والذي تؤلمه المصائب البشرية:

ونعـود الآن إلى الفصـل الأول من المـذكـرات، الـذي خصصه جمعة للكشف عن حوادث وذكريات جرت له في طفولته وصباه نشير هنا إلى أهمها من وجهة النظر الاجتماعية دون سواها:

- جوانب من الحياة بمختلف أنواعها في حي باب الجابية الذي نشأ الدكتور جمعه فيه.
- وصف للحيـاة في الطـاحـون بعد انتقال العائلة إليها بسبب افلاس والده. جد والده بدأ بطاحون حجر واحد، كانت تطحن عشرة أكياس من القمح يومياً، وجاء جده فزادها إلى ثلاثة أحجار، ثم جاء والده وحولها إلى (فابريكة) تعمل على (موتور) وتطحم مائة كيس يوميـاً، ثم جاءت شركـة كبيـرة وأنشأت المطـاحن الآليـة ممـا أدى إلى خراب المطاحن الصغيرة، ومنها طاحون والد محمد جمعة. وهذه آلية الثورة الصناعية والنظام الرأسمالي حيث يأكل السمك الكبير السمك الصغير.
- وبحكم جو الطـاحـون نقـل جمعة ماسمعه عن والده حول أرباح تجار الحبوب والطحين وعـلاقتهم مع رجـال السلطـة وكيف كانت تتم عمليـة رشـوة المسؤولين العثمـانيين أيام الجوع في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) وتقاسم الغنائم على حساب لقمة الجياع....
- بعض سمـات البـداوة واخـلاقهـا وقيمها كانت حتى الأربعينات لاتزال تخيم على بعض أحيـاء مدينـة دمشق. ويقـول جمعـه: إن «روح البـداوة تحت جلودهم، ونمـط حياتهم وأفكارهم وعاداتهم لم تتغير منذ مئات السنين». ويروي جمعة الحادثة التالية التي جرت في أواخر الثلاثينات، وحسب ماسعفته الذاكرة عام ١٩٣٧. كتب جمعة:

في صباح أحد الأيام من ذلك العام صفع شخص من حي باب سريجة، زعيم حي الميدان، وكان تاجر حبوب، أوماكان يسمى في ذاك الزمان (بوايكي)، بسبب خلاف على صفقة قمح. وانتهى الأمر، كما كان يجري عادة بمصالحة عشائرية. ولكن البدوي الثاوي في أعماق النفوس والراقد في القلوب سرعان ما استيقظ. وهكذا ثارت روح البداوة وزحف عشرات الفرسان من حي الميدان باتجاه حي باب السريجة وهم يشهرون السيوف والبنادق القـديمـة والرماح ويصيحون صيحات الحرب والقتال، ويطلقون النار في الهواء.. وأخذوا يكسـرون واجهـات الدكاكين، ويعتدون على المارة ويشتمونهم. فأغلقت الدكاكين وهرب النـاس إلى بيـوتهم يحتمـون فيهـا. ثم توقفت هذه الحملة أمام محل الشخص الذي صفع

زعيم الميدان فخربوا المحل وعلت صيحات التهديد والوعيد التي اختلطت بصهيل الخيل وصوت وقع حوافرها على الأرض. وبعد انقضاء ساعة على هذه الغارة (الغزوة) رجع الفرسان من حيث أتوا في أحوال غوغائية صاخبة، وفوضى شاملة. وبعد مضي ساعات علم الناس أسباب ماحدث!!!! أين الدولة؟. . أين قوانينها؟. . هل جرت هذه الحادثة في البادية أم في المدينة؟. . . ولا ننسى أن الحادثة جرت في دمشق العاصمة وفي عام ١٩٣٧!!!! فأين تأثيرات عصر النهضة ومايحمله من قيم ومُثل واصلاحات. . .

ويعلق الدكتور محمد جمعة على هذه الحادثة، وحالات أخرى مشابهة بقوله: «إن مرد ذلك يكمن فيما حملناه وعلى مدى أجيال طويلة من مفاهيم وأفكار بدوية جاءت إلينا من الصحراء. . إنها مفاهيم العشيرة، وتقاليد القبيلة. ومهما تنكر هؤلاء وراء مسوح الحضارة وأخفوا وجوههم، خلف أقنعة من التحضر المصطنع. . . فإن النزعة البدوية لاتلبث أن تستيقظ فجأة على غير ارادة من أصحابها. . . .».

- هجرة الفلاحين من الريف إلى المدينة (قبل ١٩٥٠) بسبب الجفاف والقحط، مما أدى إلى نزوح الفلاحين وبخاصة من حوران إلى المدن بحثاً عن لقمة العيش. ويروي الدكتور جمعة شيئاً من معاناة هؤلاء المهاجرين ومواقف أهل المدينة منهم.
- حياة القبضايات ومنهم من يجسد الجانب الخيّر من الانسان ومنهم من يجسد الجانب الشرير، وكيفية تعاملهم مع الناس، والأقنعة التي تغطي وجوه بعضهم بحيث تُستر حقيقتهم السلبية وروحهم الشيطانية.
- حياة المتشردين وبخاصة الذين اتخذوا من خرائب الطاحون ملجأ لهم.
- بيت الدعارة (المحل العمومي) وظروف الفقر وغيرها التي دفعت الفتيات إلى هذه البيوت، وهي أشبه مايكون بسوق النخاسة في أسواق المدن سابقاً أوسوق بيع العبيد في امريكا. ويؤكد الدكتور جمعة على الظروف الاجتماعية، التي ساقت هؤلاء الفتيات البائسات إلى شباك الوحوش البشرية. . .

لم ينحُ الدكتور محمد جمعة منحى عدد من كتاب المذكرات في هذه الأيام، الذين يسعون لطمس الحقائق وإغفال سلبيات المجتمع الذي عاشوا فيه، ويحاولون من جهة ثانية تضخيم ايجابيات المجتمع والمبالغة فيها بصورة تؤدي إلى قلب الوقائع التاريخية، سواء أرادوا ذلك أم جرى بسبب انسياقهم وراء المُداجاة والتسترعلى العيوب

وتلميع صورتهم وصورة حيّهم ومدينتهم وطليها بألوان لم تعرفها من قبل، وكأن الناس جميعاً في مذكرات هؤلاء لايأتيهم الباطل لامن بين أيديهم ولا من خلفهم. والواقع أن مثل هذا الكائن غير موجود على أرض الواقع. ونهجهم هذا يؤدي إلى تشويه الماضي الذي يريدون تمجيده أو إضفاء لون من ألوان القدسية عليه.

وعلى العكس من هؤلاء نرى الدكتور محمد جمعة قد سار ـ كما فعل الدكتور بشير العظمة في مذكراته «جيل الهزيمة» ـ على خط مغاير. فاعتمد الصدق والصراحة والأمانة ووصف الوقائع كما شاهدها وكما جرت دون زخرف أو بهرجة. وهذا مما طبع مذكراته بطابع الواقعية وجعله ينظر إلى الماضي نظرة تكشف مختلف أوجه هذا الماضي بجوانبه المشرقة والمظلمة، مستخدماً في الوقت نفسه من التحليل والتعليل للحوادث التي شاهدها. وهكذا فإن الدكتور محمد جمعة يكون قد أدى للماضي ـ بعكس مايظن البعض ـ خدمات جلى في وضع هذا الماضي في إطاره التاريخي ورؤية مختلف جوانبه وتناقضاته.

ويختم الدكتور جمعه مذكراته قائلاً: «سأسير في دربي، مستلهماً آلام طفولتي وعذاباتها، مستنيراً بأفكار اكتسبتها طوال إقامتي في فرنسا، وماكنت شاهداً عليه هنا (أي سورية) في هذه البلاد. سيكون هذا الدرب شاقاً محفوفاً بالمتاعب والأخطار والآلام. لن أقف موقف المتفرج لن أسكن برجاً عاجياً، لن أكون غير مبالٍ بما يجري حولي. (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، ويابؤس أضعف الإيمان»[٣٣].

في لقاء مع الدكتور جمعة بتاريخ ٥/ ٤/ ١٩٩٥ أجاب على سؤال حول مشاعره بعد انحسار الاشتراكية وزوال الاتحاد السوفياتي بما يلي: «أنا لا أزال اعتقد أن أسس الماركسية ونهجها ونظريتها مازالت صحيحة، رغم كل ما حصل. ولكن من المتعذر على الأحزاب الشيوعية أن تستمر على نهجها السابق فعليها أن تأخذ بعين الإعتبار التغيرات التي حصلت... إن الأحزاب الشيوعية في البلدان النامية قللت من دور المثقفين، مع أنهم هم الذين قاموا بالدور الأساسي وهم الذين قدموا التضحيات. وبالمقابل كانت هذه الأحزاب تضخم من دور العمال ذوي الوعي السياسي والكفاحي والطبقي الأدنى والخاضعين لتأثيرات الفكر الغيبي.. لقد افرطت الماركسية في إيمانها بالفرد، بالإنسان

وغاب عنها أن الإنسان ليس نظرية، وليس أفكاراً فقط، وإنما هو عواطف وانفعالات وتقاليد وعادات وتراث».

الدكتور فؤاد أيوب (١٩٢٩ - ١٩٩٣)

يُعد من ألمع الأطباء، بل المترجمين الهواة في سورية، الذين قاموا بنقل الثقافة والآداب الأجنبيين إلى اللغة العربية.

ولد فؤاد أيوب عام ١٩٢٩ في أسرة رقيقة الحال حيث كانت أمه تمتهن الخياطة لإعالة أولادها الأربعة. تلقى أيوب تعليمه في مدرسة الآسية بدمشق التابعة لطائفة الروم الارثوذكس. ونال الشهادة الثانوية عام ١٩٤٧. كان في نشأته متديناً ورئيساً لحركة الشبيبة الأرثوذكسية. وبعد التحاقه بكلية الطب في الجامعة السورية وقع تحت تأثير أحد معارفه فتحول إلى الشيوعية، وسرعان ما برز وجهاً شيوعياً في الجامعة واحد قادة «اتحاد الطلاب الجمهوريين»، الذي أسسه الحزب الشيوعي عام ١٩٤٩. أيام دكتاتورية الشيشكلي اعتقل أيوب عام ١٩٥٣ ولكنه وقّع في السجن على تعهد بعدم الاشتغال بالسياسة مما دفع الحزب الشيوعي، كما كانت العادة، بطرده (أو إبعاده) عن الحزب.

تخرج أيوب من كلية الطب عام ١٩٥٣ وبعد أن أنهى خدمة العلم عينته وزارة الصحة عام ١٩٥٧ طبيباً لمستوصفها في يبرود. فافتتح عيادة هناك إلى جانب عمل الدولة. عام ١٩٦١ نُقل إلى دمشق فافتتح عيادة في شارع بغداد بدمشق واستمر يعمل بها حتى تاريخه وفاته في تشرين الأول ١٩٩٣[٣٤].

لم يعرف عن الدكتور فؤاد أيوب أنه قام بأي نشاط سياسي بعد ابعاده أو ابتعاده عن الحزب الشيوعي عام ١٩٥٣. ولكنه قام في الوقت نفسه بترجمة مجموعة كبيرة من الكتب ذات الصبغة اليسارية. فالترجمة لدى فؤاد أيوب بدأت هواية وانتهت مهنة يقوم بها إلى جانب العمل الطبي. لكن الانتقال من الهواية إلى المهنة لم يتم على حساب الفكر لصالح الركض وراء المال بل بقي انتقاء الكتب المترجمة يسير ضمن حدود رسمها أيوب لنفسه تتلاءم مع ماضيه اليساري ومع قناعاته الضمنية التقدمية ورغبته، كما هو واضح في ترجماته، في نشر الفكر الاشتراكي والانساني بعامة. وفي اللقاء الذي أجريناه مع زوجته

كوليت حبيب وابنه مجد ذكر الأخير أن أباه تألم كثيراً عند انهيار المعسكر الاشتراكي وأجاب الوالد ابنه : «الشيوعية فكرة والفكرة لاتموت» .

يمكن تقسيم الكتب ، التي نقلهـا الـدكتـور فؤ اد أيوب من الافرنسية والانكليزية إلى الحقول التالية :

١ - عيون الأدب العالمي وبخاصة الأدب الروسي .
٢ - أعلام الموسيقى الكلاسيكية .
٣ - مؤلفات ماركسية .
٤ - المؤلفـات الصينيـة حول ماوتسي تونـغ والثورة الصينية والقصـص الصيني . وقد تعاون أيوب في هذا المجـال ، كمـا في مجـالات أخـرى ، مع دار دمشق وصاحبها أديب التنبكجي . وقام ذات مرة بزيارة للصين بدعوة منها .
٥ - كتب كوريا الشمالية .
٦ - بعض كتب روجيه عارودي وغيره . .
٧ - متنوعات مختلفة

أحصى عبد القادر عياش في معجم المؤلفين السوريين حتى سنة ١٩٧٤ ست وخمسون كتاباً مترجماً لأيوب . وفيما يلي أهم ماترجمه الدكتور فؤ اد أيوب إلى العربية مرتباً حسب المواضيع :

- الأم لمكسيم عوركي صدرت ترجمتهـا الأولى عام ١٩٥٣ عن دار اليقظـة العـربية استناداً إلى الترجمتين الفرنسية والانكليزية . وكثرت طبعات كتاب الأم وكانت الرواية رائجة وبخاصة في مراحل صعود النضال الـوطني وقـد شارك فؤ اد في التـرجمـة شقيقه المحامي سهيل أيوب . ولهذه الترجمة دراسة نقدية بقلم فؤ اد أيوب سنشير إليها فيما بعد .
- انطون تشيخوف : المؤلفات الكاملة نشر دار اليقظة العربية بدمشق ، والطبعة التي بين أيدينا صادرة عام ١٩٦٠ .
- بوشكين تأليف هنري ترويا ونشر دار بيروت عام ١٩٥٦ .
- تولستوي تأليف ستيفان زنايغ نشر دار اليقظة بدون إشارة إلى تاريخ الطبع
- الجريمة والعقاب لفيودور دوستويفسكي ترجمة فايز كم نقش الكردي تقديم فؤ اد أيوب .
- الفتاة والموت لمكسيم غوركي ترجمة فؤ اد وسهيل أيوب دار اليقظة العربية عام ١٩٥٤ .
- روائع الأدب الألماني - دار اليقظة العربية عام ١٩٥٣ ، والروائع لشيلر وزفايغ وآخرين .
- حب وحرب - رومان رولان . دار اليقظة دمشق عام ١٩٥٣ .
- ليرمنتون دار اليقظة العربية عام ١٩٥٣ .
- الجذور لكونتاكنتي تأليف اليكس هايلي دار دمشق عام ١٩٨٤ والترجمة لفؤ اد وشقيقه سهيل .

- مراعي السماء لجون شتاينبل دار اليقظة العربية دون تاريخ .
- عناقيد الغضب لجون شتاينبل دار صادر بيروت عام ١٩٥٩ .
- بتهوفن تأليف رومان رولان . دار اليقظة بدون تاريخ .
- تشايكوفسكي تأليف روستيسلان هوفمان وجيرالد أبراهام . دار بيروت عام ١٩٥٥ .
- فاغنر تأليف غي دي يورتاليس دار بيروت عام ١٩٥٧ .
- كورساكوف تأليف روستيسلان هوفمان وجيرالد أبراهام . دار بيروت عام ١٩٥٥
- الدولة والثورة ـ لينين دار دمشق عام ١٩٥٣ .
- رأس المال ـ ماركس (١ ـ ٣) دار اليقظة دمشق (١٩٥٣ ـ ١٩٥٦) .
- دور العنف في التاريخ ـ انجلز ـ دار دمشق عام ١٩٨٤ .
- رأسمالية الدولة الاحتكارية ونظرية العمل على القيمة ـ بيغسنر . دار دمشق عام ١٩٨٤ .
- الشيوعية العلمية ـ ماركس انجلز لينين . الطبعة الأولى دار دمشق عام ١٩٧٢ .
- الصراعات الطبقية في فرنسا ـ ماركس . الطبعة الأولى دار دمشق عام ١٩٦٤ .
- العمل المأجور، مشاركة في نقد الاقتصاد السياسي ، الأجور والسعر والربح ، مسألة الاسكان ، نقد برنامج غوتا ، المسألة الفلاحية ـ تأليف ماركس . دار دمشق عام ١٩٦٤ .
- البيان الشيوعي ـ ماركس انجلز . دمشق ١٩٦٥ .
- في الاستعمار ـ ماركس / انجلز . دار دمشق دون تاريخ .
- لودفيج فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ـ انجلز ـ دار دمشق دون تاريخ .
- الاقتصاد السياسي : دليل العلوم الاجتماعية ـ تأليف أكاديمية العلوم السوفياتية . دار دمشق عام ١٩٨٦ طبعة أولى .
- انتي دوهرنغ : ثورة الهراوجين دوهرنغ في العلوم ـ تأليف فردريك انجلز . دار دمشق عام ١٩٦٥ . طبعة أولى .
- الايديولوجية الالمانية ـ ماركس، انجلز . دار دمشق عام ١٩٧٦ .
- اليسارية مرض الشيوعية الطفولي ـ لينين . دار دمشق عام ١٩٨٠ .
- مراسلات ماركس انجلز . دار دمشق عام ١٩٨١ طبعة أولى .
- المؤلفات الفلسفية ـ بليخانوف دار دمشق عام ١٩٨٠ . شارك فؤاد في الترجمة زياد الملا .
- مقولات الجدلية وقوانينها . شبتولين . دار دمشق عام ١٩٨٦ .
- في الممارسة والتناقض . ماوتسي تونغ ـ الفكر الحديد
- في المسيرة الطويلة مع الرئيس ماو ـ شن شانغ منغ دار دمشق عام ١٩٧٢ ، الطبعة الأولى .
- الحرب الطويلة الأمد ـ ماوتسي تونغ . دار دمشق، دون تاريخ وصدر هذا الكتاب في سلسلة كتب تحت عنوان «حرب التحرير الشعبية» .

- حرب العصابات وقضايا الستراتيجية والتكتيك ـ ماوتسي تونغ دار دمشق دون تاريخ .
- المؤلفات المختارة ماوتسي تونغ . دار دمشق عام ١٩٦٥ .
- معركة الحزن الأحمر (مقتطف من الممالك الثلاث) ليوغوا نزونغ ـ بكين دار النشر باللغات الاجنبية ـ دار دمشق عام ١٩٨٤ . (مقتطف من روايات كلاسيكية صينية) .
- الجيل الملتهب : مقتطف من الحج إلى الغرب ، فوسنغين . بكين دار النشر باللغات الأجنبية ـ دار دمشق عام ١٩٨٤ .
- رحلة إلى أرض عجيبة : مقتطف من ورود في المرآة / لي روزين . بكين دار النشر باللغات الأجنبية ـ دار دمشق عام ١٩٨٤ .
- في سبيل نموذج وطني للاشتراكية : روجيه غارودي دار دمشق عام ١٩٨٤ .
- الحقيقة كلها : روجيه غارودي . دار دمشق دون تاريح .
- تاريخ الثورة الكوبية : عرض وتحليل سياسي وايديولوجي / سافيريو تيتيتو . دار الحقيقة بيروت عام ١٩٧١ .
- مذكرات عن الحرب الثورية : ارنستوتشي غويفارا . بالمشاركة مع علي الطور دار دمشق ودار الطليعة بيروت عام ١٩٦٧ (حرب التحرير الشعبية ، ١٣) .
- المغتربون : تجربة الهجرة الباكرة إلى امريكا . اليكسانني دار دمشق ١٩٨٩ .
- النفير : حياة ونضال مارتن لوثر كينغ «الابن» تأليف ستيفن باواتيس ترجمة المحامي سهيل أيوب ومراجعة وتقديم فؤاد أيوب . دار دمشق عام ١٩٩٠ .
- حقيقة الجاسوسية الامريكية : أنور قولي . دار الأديب بيروت ١٩٦٤ .
- على حافة الهاوية من ترومان إلى ريغان ، الكسندر باكوفليف . دار دمشق عام ١٩٨٨ .
- على دروب زرادشت : ستبان أوديف . دار دمشق عام ١٩٨٣ .
- الحرب والحضارة : ارنولدتوينبي . دار دمشق عام عام ١٩٥٠ .

نادراً ماقدّم الدكتور فؤاد أيوب لترجماته معرفاً بالمؤلف والكتاب المُترجم . ولا نعلم سبب احجـامـه عن تعـريف القـارىء العـربي بالظـروف التي أحـاطت بتأليف الكتـاب المترجم . ويتبين من المقـدمـات القليلة ، التي وضعهـا لبعض الكتب أنه لايزال في قرارة نفسه ماركسيـاً يسـاريـاً على الـرغم من ابعـاده عن الحزب الشيوعي . واختيار الكتب التي ترجمها تقدم الدليل نفسه .

ختم الـدكتـور أيـوب مقـدمتـه المؤلفـة من ٢٣ صفحـة لرواية الأم بما يلي : « . . . وبـذلـك يكـون جورجي قد حقق للمـرة الأولى في أروع صورة وأكملهـا ؛ دور الأديب

الاجتمـاعي كمـا يجب أن يكـون. ولا ريب أن «الأم» في حمى النضـال الثـوري؛ جزء لايتجـزأ من هذا النضـال بعـد خيبـة ثورة عام ١٩٠٥؛ حين كانت الموجة الثورية في جزر وانكمـاش. وفي وقت بدأ اليأس فيـه يدب في قلوب الكثيـرين، يبعث الإيمان في النفوس من جديـد وينيـر آفـاق المستقبـل ويجنـد للنضال القوى المبعثرة. وقد كان لجوركي ماأراد ولذلك أصبح كتابه خالداً».

أما مقدمته المؤلفة من ٣٧ صفحة لرواية «الجريمة والعقاب» المطبوعة عام ١٩٨١ فقد جاء فيها:

«لاريب أن «الجريمة والعقاب» رائعة عالمية مضمونها الموضوعي الآلام التي يعانيها البشر في المجتمع البورجوازي الحديث، وصفحاتها تضج باحتجاج المؤلف الصارخ ضد الاخلاق السائدة في هذا المجتمع.... إننا نحيا في عالم للأسياد والعبيد».

«الجـريمـة والعقـاب» بمجمـوعهـا هي تعبير بليغ عن الهلع حيال قوانين هذه الحياة الشـاذة، المنـافيـة للانسـانيـة والانسـان، والمعـاديـة لهما. إنها تكشف عن طبيعة الحياة البغيضة في مجتمع غارق في العنف، مجتمع يسوده أمثال لوجين والمرابية العجوز العديمة النفع التي تمتص خير الدماء في هذا المجتمع. وإننا لنخرج من قراءة هذا الكتاب بمزيد من الحب لتلك الزهرات البريئة، التي تداس بالأقدام، وبمزيد من الكراهية لأولئك الذين يملكـون القـدرة على الاستثمـار وبالتالي على اضطهاد الآخرين ودوسهم بالاقدام... ان انفعالنا الأخير هو مع المعذبين في الأرض ضد الجلادين والأسياد الذين يمسكون بالسوط».

الدكتور ضياء الدين الجماس

اختصاصي في الأمراض الداخلية والقلبية يمارس نشاطه الطبي في مدينة دير الزور. لم نستطـع، مع الأسف، اجـراء لقـاء مع الـدكتور الجماس بسبب بعد المسافة بين دمشق ودير الزور. ولا تشير كتبه إلى سيرة حياته كما يفعل بعض المؤلفين. وقد توصلنا عن طريق مكتبة الأسد إلى التعرف على كتبه الموجودة فيها وهي:

- «معالجة التدخين بين الأطباء والمشرعين» دار ابن حيان، دير الزور ١٩٨٥

- «الوافي في تخطيط القلب الكهربائي» دمشق ١٩٨٦ .
- «التصوير والرمزية في الأمثال القرآنية» دار الهجرة، بيروت ١٩٩٠ .
- «التفكير في الأسماء طريق العلماء، دراسات موضوعية علمية في الأسماء والأفعال الإلهية»، دمشق ١٩٩٠
- «النُطق بالقرآن الكريم». دمشق ١٩٩٣ .

واضح من هذه القائمة أن الدكتور الجماس مهتم في توضيح بعض الأمور الدينية، إلى درجة تبعث على الظن أنه من الباحثين المختصين في الإسلام . هذا فيما عدا كتابه الأول، الذي يجمع فيه بين علوم الدين والدنيا.

ويستند الدكتور الجماس في كتابه الأول «معالجة التدخين بين الأطباء والمشرعين» على آراء اثنين من علماء الدين كتبا في القسم الفقهي من الكتاب وهما . الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي استاذ كلية الشريعة بدمشق . والشيخ قطب الدين الحامدي مفتي محافظة دير الزور.

يتصدر الكتاب الاهداء التالي :

إلى رسول المحبة

إلى كل محب للبشر ويبتغي انقاذهم من النيران والدخان

إلى من يجد في نفسه بذرة إرادة للإقلاع عن هذه العادة

إلى كل طالب، وطبيب، وباحث عن الحقيقة

إلى كل من يريد أن يقدم خيراً لهذه الأمة

أقدم هذا البحث المتواضع .

ضياء الدين

الصفحة الأخيرة من الغلاف الخارجي تحتوي الفقرة التالية : «الدكتور المؤلف الذي تفوق في دراسته للطب وبرع في ممارسة مهنته يقدم هذا الكتاب داعياً أبناء وطنه أولاً والبشرية بالإقلاع عن متعة التدخين الزائفة».

يستهل الدكتور ضياء الدين الجماس كتابه بلمحة تاريخية عن زراعة التبغ ونشوء عادة التدخين، التي تعتبر القارة الامريكية مهدها الأول . وقد وصلت أوراق التبغ إلى أوروبا عام ١٥١٩ . وبعد مئة عام من هذا التاريخ «دخلت عادة التدخين إلى بلادنا». وتذكر

مصادر الفقه دخول التدخين إلى الجزيرة العربية عام ١٠٠٠هـ . كما عرف في بلاد الشام عام ١٠١٥هـ.

ولا يذكر الدكتور جماس شيئاً عن فتوى شيخ الإسلام في استنبول، التي حرّمت التدخين في أول عهده. وتحت ضغط «الدولة العلية» ورغبة الدوائر المالية فيها في رفد الخزينة بمال رسوم التبغ أصدر شيخ الإسلام نفسه فتوى مناقضة للأولى بجواز التدخين شرعاً.

الفتوى الواردة في الصفحة ١١٤ من كتاب الدكتور الجماس إجابة على سؤ ال: «ماحكم زراعة التبغ والاتجار به» نصت على مايلي: «إن زراعة التبغ والإتجار به حلال لا لُبْسَ فيه، فهي نبتة طاهرة، حلال أصلاً، ونافعة في غير استخدامها تدخيناً، فهي كما نعلم تستعمل كقاتلات حشرية تطهر بها النباتات من الحشرات. وإنما تحرم تجارة السكائر وأشباهها التي تضر بالإنسان». والتبغ «يحرم تصنيعه بأحد أشكال التدخين كالسجائر والسيجارة، أو سعوط، أو فرطٍ».

بعد كتاب «معالجة التدخين بين الأطباء والمشرعين» أصدر الدكتور الجماس عام ١٩٩٠ كتاب «التصوير والرمزية في الأمثال القرآنية».

ضم الكتاب ثلاثين فصلاً. تناول الفصل الأول منها مدخلاً لغوياً لفهم معنى الأمثال، والفصل الأخير خصه بذكر بعض الأحاديث النبوية الشريفة، التي استعمل فيها النبي أسلوب ضرب الأمثال في تعليم الناس. وقام الدكتور الجماس في كل فصل من الفصول الباقية بشرح أمثال سورة قرآنية واحدة مرتبة حسب ترتيبها في القرآن الكريم. وقد بلغ عدد الأمثال المشروحة قرابة اثنتين وخمسين مثلاً تناولت جميع جوانب الحياة وهدف الإنسان من هذه الحياة، ولفت انتباهه إلى حقائق الأشياء بالتمثيل يفقهها ـ كما يقول د. الجماس ـ كل الناس بغض النظر عن مستوى قدرتهم العقلية، فلا يبقى لأحد حجة يوم القيامة.

«إن فهم معاني القرآن الكريم» ـ كتب الدكتور ضياء الدين الجماس في مقدمته ص ٩» ـ «سهل على من اتبع رضوان الله قولاً وسلوكاً واستقامة، وصعب بنفس الوقت على من تلوث قلبه بالمعاصي وأهمّته الدنيا بهمومها. فمن أراد الإستزادة من علوم المعاني فما عليه إلا أن يطهر قلبه مع سائر المؤمنين، وعليه بالدعاء فَبِهِ يكون الفتح العظيم».

ويكتب الدكتور الجماس في مقدمته أن همه الوحيد أصبح «تدبر الأمثال مرة بعد مرة وبصـدق وتـروٍ. ليـلاً نهاراً سائلاً المولى عز وجل أن يجلو بصيرتي بحقائقها، حتى كانت الإجابة وأُلهمت المعاني تباعاً إنه نعم المولى ونعم النصير».

«والإعجـاز الأكبـر أن نجـد العلوم الحـديثة مهما تقدمت قد بدت من خلال كلمات القرآن الكريم تلمع لكل ذي بصيرة علمية نافذة، كما تلمع نجوم السماء في دياجي الليل البهيم. وكأن القرآن أنزل في هذا العصر... بل هذه هي حقيقة القرآن في كل عصر».

«التفكّـر في الأسمـاء طريق العلمـاء، دراسـة موضـوعية علمية في الأسماء والأفعال الإلهية»، عنوان كتاب آخر للدكتور الجماس صادر في بيروت عام ١٩٩٠.

بعـد البسملة يبـدأ الدكتور الجماس مقدمته بالفقرة التالية: «الحمد لله الذي شرّفني بكتـابـة طرف من معـاني أسمائه الحسنى». وفهم هذه المعاني «يعتبر أساساً وعماداً لفهم كلام الله تعـالى وأصـول العقـائـد، فكثيراً مازاغت العقائد لقصور في فهم أسماء الله تعالى وأفعاله.. إن تعلم الأسماء يجعلك محباً للذات الالهية التي انعكست منها هذه الأسماء....».

ويـرى الـدكتـور الجمـاس «أن هذا الكتـاب يطـرح طرق فهم الأسماء وفق أساليب التفكـر المختلفـة التي طرحهـا كتـاب الله تعـالى في آيـاته المحكمات. ولكل شخص أن يجتهد في التطبيقات السلوكية والخلقية لكل اسم لوحده».

هذه فقرات من مقدمة الدكتور الجماس لكتابه المخصص لدراسة الأسماء والأفعال الإلهية. وقد اتبع الطبيب المؤلف طريقة في تبويب شرح الأسماء وفق الحروف الهجائية، يظهر من خلالها الجهد الكبير الذي صرفه للوصول إلى غايته من وضع الكتاب.

ويمضي الطبيب والباحث الديني الدكتور ضياء الدين الجماس في جهوده البحثية، التي تبـدو واضحـة في كتـابه الصادر عام ١٩٩٣ تحت عنوان: «النُطق بالقرآن العظيم» وهو «كتـاب في القـراءات القـرآنية ومرجع من مراجع اللسانيات في اللغة العربية التي أعزها الله بالقـرآن». وهـذا الكتـاب مؤلف من ثلاثـة أجزاء هي: أصول النطق، القراءات المتواترة، القراءات اللامتواترة والشاذة».

الدكتور مصباح غيبة

الدكتور مصباح غيبة ولد في دمشق عام ١٩٢٨ وحاز شهادة الدراسة الثانوية عام ١٩٤٧ وتخرج من كلية الطب في الجامعة السورية عام ١٩٥٤. بدأ اختصاصه أنف أذن حنجرة في القاهرة واتمه في لندن وعاد إلى الوطن عام ١٩٦٥، حيث افتتح عيادة وعمل في الوقت نفسه في مشفى دمشق. عام ١٩٧٨ عُين مستشاراً لرئيس مجلس الوزراء للشؤون الصحية، ثم أصبح بين عامي ١٩٨٧ و١٩٩٢ مديراً عاماً لمؤسسة صيدلة. وانتخب عام ١٩٩٤ في دمشق عضواً في مجلس الشعب ممثلاً للحزب الشيوعي السوري. وقد كتب الدكتور مصباح غيبة في عقدي السبعينات والثمانينات سلسلة مقالات عن الوضع الصحي في سورية. وقد أثار مقاله المنشور في البعث في أوائل السبعينات بعنوان: «خادمات البيوت الاستثمار المزدوج» ضجة في صفوف العائلات المترفة....[٣٥]..

عام ١٩٧٧ نشر الدكتور مصباح غيبة كتاباً بعنوان: «المشكلة الصحية في القطر العربي السوري» صدّره بالإهداء التالي:

«إلى المحرومين من الصحة ومن العلاج والدواء من أبناء شعبنا الكادح الذين ينتظرون الحل بلهفة حزينة».

يُعبّر الدكتور غيبة في مقدمة الكتاب المؤرخة في ١/ ١١/ ١٩٧٩ عن شعوره الدائم المؤرق الناجم عن اطلاعه على حقيقة الأوضاع الصحية في سورية، والتي دفعته عدة مرات للتطرق لبحث المشكلة الصحية في مناسبات متعددة ومن زوايا مختلفة. وأضاف: «سأحاول تقديم تصوراتي عن الحلول المتناسبة مع الظروف الموضوعية لقطرنا علني أساهم في دفع العجلة نحو الحل المنشود الذي تنتظره بلهفة زائدة مجموعات كبيرة محرومة من الرعاية الصحية من جماهير شعبنا العزيز».

يعدد الدكتور غيبة مع الشرح العوامل المسببة لتردي الوضع الصحي وهي: نقص الإمكانات الصحية، هجرة العناصر الفنية من القطر، هدر الطاقات، التطور العشوائي للخدمات الصحية، وغياب التخطيط، ضعف خدمات الطب الوقائي، ضعف ميزانية الخدمات الصحية، سيطرة القطاع الخاص على أجور الخدمات الصحية للمواطنين،

أوضاع مؤسسات الدولة الصحية وضعف الخدمات الصحية التي تقدمها، ضعف امكانات الاسعاف وبطء حركته، ضعف ملاك وزارة الصحة، فقدان مجال البحث العلمي، وجود مشكلة دوائية.

هذه هي العوامل الصحية التي عالجها الدكتور غيبة في كتابه. ولكنه لم يقتصر عليها بل تناول أيضاً المشكلات الأخرى المؤثرة في تردي الأوضاع الصحية مثل العامل الغذائي والعامل الثقافي وعامل السكن، بالاضافة إلى تطرقه لأشكال الضمان الصحي في سورية.

أما سُبل الحل في رأي الدكتور غيبة فهي: وضع خطة صحية حقيقية، رصد الميزانية اللازمة لوزارة الصحة، زيادة الامكانات الصحية على مختلف أنواعها: (ومنها تشجيع عودة طلاب الطب الذين يدرسون في الخارج ومساعدتهم على إيجاد عمل لهم.. معالجة هجرة الأطباء والحاجة إلى معاهد اختصاص، معالجة هدر الطاقات، الحيلولة دون سيطرة القطاع الخاص، تطوير أوضاع الخدمات الوقائية، تحسين أوضاع المؤسسات الصحية التابعة للقطاع الصحي العام، تطوير أوضاع الاسعاف السريع، ملاك وزارة الصحة، البحث العلمي، حل المشكة الدوائية تطوير الأنظمة الإدارية لوزارة الصحة، نظام الضمان الصحية.

وفي خاتمة الكتاب ينقل الدكتور غيبة مقاطع من مقالة الاستاذ هاني الراهب تحت عنوان بلادنا السعيدة المنشورة في جريدة الثورة بتاريخ ٢١/ ٩/ ١٩٧٦.

يقول هاني الراهب: «... في أرضنا السعيدة إن ٩٠٪ من جماهير شعبنا متروكة للعناية الالهية... بالأمس مات اثنان من أهم كتاب البلد بالسكتة القلبية، وكان بالإمكان أن يتابعا رحلة ابداعهما لو أن ثمة مؤسسات صحية... ترى كم من الناس غيرهما يموت بالسكتة القلبية دون أن يسمع بهم إلا الدامعة أعينهم حزناً عليهم. وكم من الناس يموتون بسبب آلاف الأمراض التي وجدت في بلادنا المقام الأطيب... ألأن آلام الفقراء ليست على بال أحد؟ أم لأن المسؤولين الأصحاء لايخطر لهم أن غيرهم يمكن أن يمرض فيموت...».

كان بودنا لقاء الدكتور غيبة المعروف بحبه للسباسة وشغفه في الحديث عن الأمور العامة، وعلى الرغم من اتصالنا الهاتفي به عدة مرات، لم تُكلل بالنجاح فرصة اللقاء به. فاقتصرنا على كتابه الآنف الذكر.

حـواشي الفصـل السادس

١ ـ حول حياة الشيخ أبو اليسر عابدين، راجع: «من هم في العام العربي» دمشق ١٩٥٧، ص ٣٩٢... و«أعـلام دمشق في القـرن الـرابـع عشر الهجري للدكتور عبد اللطيف الفرفور». دمشق ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦.

٢ ـ هذه المعلومـات أُخـذت من كلمـة النـاشـر محمد عزيز عابدين لكتاب «أغاليط المؤرخين» المطبوع عام ١٩٧٢.

٣ ـ فتوى صادرة عن المفتي العام في ٢١/ ١/ ١٣٧٩هـ الموافق ٢٧/ ٧/ ١٩٥٩م.

٤ ـ وهم: مأمون الصاغرجي، محمد أديب الجادر، عدنان عبد ربه.

٥ ـ اعتمـدنـا في الكتابة عن الدكتور العظمة على كتابه: «جيل الهزيمة بين الوحدة والانفصال» الصادر عن دار الريس ١٩٩١.

٦ ـ راجـع نصـر الـدين البحـرة: «في أدب المـذكـرات مقـدمـة لدراسة طاحـون الدكتور محمد جمعة». جريدة «إلى الأمام»، العدد ٢٢٤٠ في ٣٠/ ٦/ ١٩٩٤، ص ٤٤.

٧ ـ المصدر نفسه.

٨ ـ المصدر نفسه، ص ٤٥.

٩ ـ نُشرت كلمات الخطباء المؤبنين في كراس خاص اصدره ذوي الفقيد في أعقاب الاحتفال التأبيني بمدة قصيرة.

١٠ ـ اعتمدنا في الكتابة عن الدكتور الاتاسي على المصادر التالية:

ـ لقاء مع الأتاسي بدمشق بتاريخ ٧/ ١٢/ ١٩٩٣.

ـ كتاباته المذكورة في النص.

- مخطوط قيّم يلخص حياة الأتاسي الفكرية بقلمه.
- مجدي رياض: «حوار شامل مع الدكتور جمال الأتاسي عن الناصرية والناصريين». مركز الحضارة العربية للاعلان ١٩٩٢.

١١ - كانت أفكار الحصري ذات علاقة بمراحل الاحتجاج القومي أكثر من اهتمامها بمهام البناء القومي. كما أن كتابات الحصري لم تعالج القضايا الاقتصادية الاجتماعية في بناء الأمة.

١٢ - من أشهر كتب زريق. «الوعي القومي الصادر عام ١٩٣٩ و«معنى النكبة» الصادر في أعقاب حرب ١٩٤٨. وقد دعا زريق إلى نبذ الثقافة التقليدية واحلال الثقافة الغربية بمظاهرها العلمية مكانها. وهو من أنصار الدولة العربية الموحدة.

١٣ - تأسست جمعية العروة الوثقى في أوائل الثلاثينات، وكانت جمعية أدبية ثم تحولت فيما بعد إلى جمعية سياسية قومية.

١٤ - ذبيان سامي: الحركة الوطنية اللبنانية، بيروت ١٩٧٧، ص ٢٩.

١٥ - جورج حبش: «تحرير فلسطين أمر حتمي: «وتناقضاتها مع الاحتلال لاتسوى إلا بتحرير فلسطين». في: «الهدف» العدد ٩١٣، ٢٦ كانون الأول ١٩٩٢، ص ٢٤.

١٦ - المصدر نفسه.

١٧ - المصدر نفسه ص ٢٥.

١٨ - اعتمدنا في الكتابة عن «الحكيم» على المصادر التالية:
- مقابلة مع الدكتور جورج حبش في ١٥/ ٣/ ١٩٩٣.
- الكبيسي باسل: «حركة القوميين العرب» دار الطليعة بيروت ١٩٧٤.
- ذبيان سامي: «الحركة الوطنية اللبنانية» دار المسيرة بيروت ١٩٧٧.
- أعداد مجلة الهدف وقد أشرنا إليها.
- كتابات حبش الصادرة في كراريس أو في الهدف.

١٩ - لم يكن جميع رفاق الغانم في الحزب صامدين أمام الجلادين في سجون الزعيم حسني الزعيم، فبعضهم تراجع وآخرون اعطوا تصريحات مُذلة مما أدى إلى بلبلة في صفوف حزب البعث العربي آنذاك.

٢٠ - معظم المعلومات مأخوذة من اللقاء الذي أجريناه مع الدكتور الغانم في اللاذقية بتاريخ ٧/ ١/ ١٩٩٤. وكذلك من أعداد مجلة «المناضل» وبخاصة العدد ٢٤٦ في كانون الثاني.. شباط ١٩٩١.

٢١ ـ الغـانم وهيب: «الجـذور الـواقعية والفكرية لمبادىء البعث العربي» . دمشق آذار ١٩٩٤ ، ص ٦ .

٢٢ ـ «دراسـات في الاشتـراكية». بيروت دار الطليعة ١٩٦٠ ، ص ١٣٨ ـ ١٧٩ . وقد نقلناها عن الدندشلي مصطفى ، ص ٥٥ .

٢٣ ـ اعتمـدنـا على كتـابـات الـدكتـور الجندي نفسه ، وعلى اللقاء الذي أجراه مشكوراً صديقنا الصحفي اسماعيل عيسى مع الدكتور الجندي في السلمية بتاريخ ٢٠ / ١٢ / ١٩٩٣ . وكان الاستاذ اسماعيل ينقل ماتفوه به الدكتور الجندي جواباً على أسئلتنا .

٢٤ ـ يقول الدكتور الجندي أنه تأثر بشخصيتين هما : جمال عبد الناصر والجنرال ديغول . . .

٢٥ ـ يذكر الدكتور العجيلي أن والده كان يتمنى أن يتولى ابنه ادارة املاكه وأعماله الزراعية ومنها طاحون . انظر: «أشياء شخصية» دار الحقائق ، دمشق ١٩٨٠ .

٢٦ ـ اعتمدنا هنا على كتابات الدكتور العجيلي نفسه ولم تتح لنا امكانية اللقاء به في الرقة .

٢٧ ـ حول الدكتور ابو غنيمة راجع : محمد أبو صوفة «من أعلام الفكر والأدب في الاردن» مكتبة الأقصى عمان ١٩٨٣ ، ص ٧٩ ومايليها ، وكذلك : أدهم آل الجندي . . ص ٥٢٧ .

٢٨ ـ اعتمدنا في الكتابة عن الدكتور البارودي على ماكُتِب عنه في مقدمتي ديوانيه .

٢٩ ـ «معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين» لعبد القادر عياش . دمشق ١٩٩٥ . ص ٥١ .

٣٠ ـ اعتمـدنـا على مذكـرات الدكتور شقير: «رحلة العمر من قاسيون . . إلى ربة عمون» . عمان ١٩٩١ ، سلسلة احياء الذاكرة التاريخية . .

٣١ ـ جريدة تشرين في ٢٦/ ٤/ ١٩٩٤ ، زاوية آفاق . . .

٣٢ ـ «نضـال الشعب» العـدد ٥٤٥ في ٢ حزيـران ١٩٩٤ ، لقـاء مع الـدكتـور جمعـة أجراه وليد معماري ، ص ١١ ـ ١٢ .

٣٣ ـ أثار صدور «الطاحون» للدكتور محمد جمعة اهتمام عدد من الكتاب والصحفيين منهم :

ـ نصر الدين البحرة : «مقدمة لدراسة طاحون محمد جمعة» في «إلى الأمام» في ٣/ ٦/ ١٩٩٤ .

ـ علي ديبة : «عزف على قيثارة الأحزان والانتظار» في «تشرين» في ٢١/ ٧/ ١٩٩٤ .

ـ أحمـد شكـر : «سيـرة حيـاة متكاملة لجيل ميسلون ، في مذكرات الطاحون الدكتور محمد جمعة يغوص عميقاً في مجتمع الحي» في «البعث» ٥/ ٥/ ١٩٩٤ .

ـ عبـد الإلـه الـرحيـل: «بعض من الورود كثير من الشوك، قراءة في مذكرات د. جمعة» في «تشرين» ٣١/ ٥/ ١٩٩٤.

ـ شوقي بغدادي: «الطاحون» في «تشرين» ٢٦/ ٤/ ١٩٩٤.

ـ نبيـل الملحم: «انهـا مذكـرات شخصية ولو اردناها رواية لكانت كذلك» في «الثورة» ١٢/ ٧/ ١٩٩٤.

٣٤ ـ اعتمـدنـا لمعرفة حياة الدكتور فؤاد أيوب على مقابلة مع روجته السيدة كوليت حبيب بتاريخ ٥/ ٤/ ١٩٩٤، ومشاركة ابنه الدكتور المهندس الزراعي مجد أيوب.

٣٥ ـ أخذنا هذه المعلومات بعد مكالمة هاتفية مع الدكتور غيبة مساء ٦/ ١١/ ١٩٩٥.

الفصل السابع

«الأطباء الأدباء» في الثلث الأخير من القرن العشرين

هذا الفصل مخصص للأطباء الأدباء في الثلث الأخير من القرن العشرين. وبملء الأسف لم نستطع الوصول إلى نتاج جميع الأطباء الأدباء، بسبب فقدان الأرشفة في هذا الميدان. وحتى اتحاد الكتاب العرب بدمشق ليس لديه قائمة بأسماء الأطباء، الذين يمارسون مهنة الكتابة (غير الطبية). والمؤسف أن اتحاد الكتاب العرب يجهل مؤلفات أعضائه من الأطباء، وغير الأطباء. ولايملك مكتبة خاصة به. ومانشر من نتاج أعضائه في زمن سابق لايفي بغرضنا في هذا البحث. كما أن نقابة الأطباء لاتعرف شيئاً عن نشاط أعضائها في ميدان الكتابة. فنرجو المعذرة من الأطباء الأدباء، الذين لم يرد ذكرهم هنا أو لم تتناولهم الدراسة. فإمكاناتنا الفردية لاتسمح بالوصول إليهم في مراكز المحافظات والأقضية، آملين أن تقوم المؤسسات الرسمية أو شبه الرسمية بهذه المهمة، التي يعجز الفرد في ظل الظروف الراهنة عن انجازها. ولكن ماتوصلنا إليه يمكن أن يقدم للقارىء نماذج وصورة شبه كاملة لنشاط الأطباء في ميادين الأدب.

أول مايلفت النظر هو كثرة عدد الأطباء الأدباء من جيل الثلث الأخير من القرن العشرين. ويقابل هذه الظاهرة تراجع عدد الأطباء المفكرين والسياسيين في الفترة ذاتها.

ما أسباب هذه الظاهرة؟ . . ولماذا هذه الكثرة من الأطباء الأدباء بمستوياتهم الأدبية المتدرجة؟ . . وما هي أسباب ضمور عدد الأطباء المفكرين والسياسيين بالقياس إلى المرحلتين السابقتين (عصر النهضة والنضال الوطني ضد المستعمرين)؟ . . هذه الظاهرة بحاجة إلى دراسة مستقلة. أشرنا إلى بعض أسبابها في فصول سابقة. ونوجز هنا السمات العامة لأسباب ظاهرة ابتعاد الطبيب عن الفكر والسياسة في الفقرة التالية.

إن المرحلة الحالية بأبعادها الاقتصادية والاجتماعية والفكرية تعيش جملة تناقضات وتغيرات جذرية تبدأ بتراجع الحركة القومية العربية وتأزم دور القطاع العام (قطاع الدولة)، وتنتهي بالأحداث الجسام، التي أدت إلى انهيار المعسكر الاشتراكي وانفراد المعسكر الرأسمالي مروراً بتراجع دور التيارين الفكريين القومي والماركسي وصعود الأصوليات الاسلامية. هذه العوامل تنتج بكلكلها على المثقف ودوره في الحياة العامة. ولاشك أن خفوت شعارات عصر النهضة مثل: العقلانية، الديموقراطية، الليبرالية، المجتمع المدني، العلمانية، حقوق المرأة. . . الخ، وعودة المفاهيم الغيبية ومزاجية الانغلاق والجمود والتحجر وعدم سماع الرأي الآخر، تؤثر على الساحة الفكرية ومجمل مناحي الحياة تأثيرات نلمسها هذه الأيام بأم العين.

إن هذه الظواهر لها ـ في رأينا ـ تأثيرها البالغ على وضع الأطباء ـ كجزء من المثقفين ـ ودفعهم باتجاه الأدب دون الفكر أو السياسة. والحديث عن الأطباء الأدباء ليس بالأمر السهل، لأن عملية انتاجهم الفني لاتزال في بدايتها عند البعض أو في الذروة عن الآخرين، ولمّا تكتمل بعد العملية الابداعية لتكونهم أو تكون بعضهم على الأقل. ومع ذلك يمكننا تسجيل الملاحظات التالية:

- لم يبرز من بين هؤلاء الأطباء الأدباء من هو بوزن الدكتور عبد السلام العجيلي. ولا عجب في ذلك فالعجيلي بانتاجه الابداعي المعروف هو حصيلة مرحلة النهضة العربية والنهوض الوطني والجماهيري في منتصف القرن العشرين.
- معظم الأطباء الأدباء في الثلث الأخير من القرن العشرين كانت لهم ميول أدبية قبل المرحلة الجامعية أو خلالها. وبعضهم برزت مواهبه الأدبية واضحة جلية في المرحلة الثانوية، وكان من المفروض أن ينتسب إلى كلية الآداب ويغني مواهبه. ولكن جاذبية مهنة الطب وما تحققه من دخل مروراً بالمكانة الاجتماعية التي يتمتع بها الطبيب ـ حتى

الآن ـ دفعت بالأهل للضغط على ابنهم لدراسة الطب بدلاً من الأدب، الذي «لايطعم خبـزاً» . ولكن جذوة الأدب لم تخبُ في صدور بعضهم ممن أصبحـوا أطبـاء فأخـذوا يشبعون هواياتهم في أوقات فراغهم للتعبير عن نوازع دفينة في ذاتهم.

- الحب والجنس هما السمتان الغالبتان في الرواية والقصة. وتعكس القصص والروايات واقـع علاقـات الحب بين الجنسين ومـايـرافقها من علاقات جنسية ومايتبعها من ذيول. وهـذه القصص والـروايـات مستمـدة على الغـالـب من واقـع الحيـاة الجـامعيـة وأجـواء المستشفيات ومايشاهده الطبيب أو يسمعه بحكم عمله من وقائع متنوعة.
- المضـامين الاجتمـاعية نادراً ماتبدو واضحة مع أنها موجودة ومتناثرة هنا وهناك ولكن يُعَبَّرُ عنها بحذر، وأحياناً تُقرأ بين السطور.
- الشعـر عنـد بعض الأطبـاء لايـزال يحتفظ ببقايا زخم الحركة الوطنية العربية، ويعبر عن همـوم الـوطن وبعض مشكـلاتـه. كمـا أن الشعـر الاجتمـاعي متناثر هنا وهناك. وتبقى الرومانسية هي السائدة على الغالب.

وأخيراً نترك للقارىء الحكم على نتاج الأطباء الأدباء من خلال الرجوع إلى نتاجهم من شعر وقصة ورواية المتوفرة في المكتبات، وهم:

الـدكتـورة انعـام مسـالمـة ـ طبيبـة أسنـان من درعـا عملت في عيادتها في درعا في الستينـات، ثم انتقلت للعمـل في دمشق ومنهـا إلى السعـودية. أصدرت عام ١٩٦٣ رواية بعنوان «الحب والوحل» وأعقبتها بإصدار مجموعة قصص قصيرة عام ١٩٧٢ تحت عنوان: «الكهف».

الـدكتـور أحمـد نزار صالـح ـ من مواليد ١٩٣٧ في اللاذقية، التي أنهى فيها دراسة المرحلة الثانوية (البكالوريا)، ثم يمم شطر دمشق لدراسة الطب في جامعتها وتخرج طبيباً عام ١٩٦٤. افتتح عيادة في مسقط رأسه اللاذقية عام ١٩٦٥ وبقي فيها إلى عام ١٩٧٠. وبعـدهـا سافر إلى بريطانيا وتخرج من جامعة لندن مختصاً في الأمراض العينية وجراحتها، وسرعان ما عاد عام ١٩٧٤ إلى الوطن وعيادته السابقة في اللاذقية. ويمكن أن نقسم النتاج الفكري للدكتور نزار صالح إلى أربعة أقسام:

١ ـ الكتب الطبية المبسطة.
٢ ـ القصص التي كتبها قبل تخرجه طبيباً عام ١٩٦٤.
٣ ـ القصص التي كتبها بعد ١٩٨٦ ومنها: «ليلى الدمشقية»، «حكايات الدكتور حازم».
٤ ـ الرواية الهادفة، التي مزج فيها د. صالح «الحب» و«الغرام» و«العشق» مع النقد الاجتماعي لسلوك إحدى الشرائح الاجتماعية التي تركض وراء تجميع الثروة دون أن تقدم انتاجاً للمجتمع. فراويته «الـ ٥٪؟» تتابع المدير العام وهو يركض وراء العمولة ومقدارها ٥ ٪.

انضم طالب الطب نزار صالح إلى التيار الناصري في مرحلة صعوده أيام الوحدة السورية ـ المصرية. ثم انتسب إلى حزب الوحدويين الاشتراكيين أحد فروع التيار الناصري في سورية ـ وبقي في هذا الحزب فترة من الزمن إلى عام ١٩٩٠. وكان لمدة طويلة ممثلاً لهذا الحزب في مجلس نقابة الأطباء في اللاذقية. وللدكتور صالح اهتمامات سياسية واضحة تتجلى في عدد من المقالات التي نشرها في الصحف والمجلات البيروتية والدمشقية.

في اللقاء الذي أجريناه مع الدكتور صالح في عيادته باللاذقية بتاريخ ١٧/ ٦/ ١٩٩٠، يرى أن قسماً كبيراً من الأطباء يتحدث في الشؤون السياسية، والأطباء اليوم فئتان غنية وفقيرة، وقانون توظيف الأطباء أنقذ الكثيرين منهم من الطريق المسدود لأزمة البحث عن عمل. وجواباً على سؤال حول سبب فشل الوحدة وضمور التيار الناصري، أجاب الدكتور صالح: «إن الدكتاتورية هي السبب الجوهري، ولم يكن باستطاعة عبد الناصر إنشاء مؤسسات ديموقراطية». وأردف الدكتور صالح قائلاً: «أنا تعلمت الديموقراطية من الانكليز. فهناك الاستاذ الكبير يقف خلف الآذن منتظراً دوره». وأكد أكثر من مرة على أهمية خلق الوهج الحضاري الديموقراطي، ويرى الدكتور صالح أن النظام الدولي الجديد لن يستمر طويلاً، وسيأتي اليوم الذي تتفكك فيه الدولة الامريكية.

الدكتور شاكر مطلق ـ سوري ـ أردني الأصل والعشيرة (الرّمثا ـ درعا)، فلسطيني المولد (حيفا) ـ سوري الجنسية، ولد في ٢/ ٢/ ١٩٣٨. توفيت والدته إبان ولادة أخيه

الأصغر، الأمر الذي ترك أثراً عميقاً في نفسه وهو في سن الخامسة. انعكس هذا الألم جلياً في قصيدة «حياة انسان» الصادرة في ١٥/ ٨/ ١٩٥٩.

نال شهادة الدراسة الثانوية (بكالوريا - الفرع الأدبي) في حمص في صيف ١٩٥٨. وتقدم إلى مسابقة لدراسة الآداب في الاتحاد السوفياتي، وبسبب تأخر نتيجة المسابقة ذهب في ١٦/ ١٠/ ١٩٥٨ إلى ألمانيا الغربية لدراسة الفلسفة وعلم النفس على نفقته الخاصة. وهناك أدهشه دفاع طالب ألماني عن معرض للفن الحديث ذي محتوى سطحي، حسب رأي شاكر مطلق. عندها وصل في عام ١٩٥٩، كما كتب «إلى قناعة بأن إنساننا البسيط في بلادي مازال بخير نفسياً، وأنه يحتاج إلى طبيب يداوي جسده أكثر من حاجته إلى الفلسفة وعلم النفس»... وهكذا قرر دراسة الطب البشري، وبدأ بها في ٢٠/ ٤/ ١٩٥٩ وتخرج من جامعة هامبورغ (شمال المانيا) بتاريخ ٢١/ ٧/ ١٩٦٥. ثم تخصص بأمراض العيون وجراحتها وعاد إلى حمص عام ١٩٧٣ مع شهادة الاختصاص وزوجته «الفتاة الألمانية المثقفة»، التي تحب الأدب والفنون والتاريخ والآثار والموسيقى وولديه فيروز وفرحان.

سيرة حياة الدكتور شاكر مطلق أخذناها من مقدمة ديوانه «معلقة كلكامش على أبواب أوروك». وفي هذه المقدمة يعرض الدكتور مطلق «بعض الآراء الأدبية».

أصدر الدكتور شاكر مطلق ديوانه الكبير الأنيق «معلقة كلكامش على أبواب أوروك» في حمص ١٩٨٤. وقد اشتمل الديوان على قصائد مطلق في ثلاث مراحل: قبل سفره إلى ألمانيا وأثناء اقامته فيها حتى ١٩٧٢ وبعد عودته إلى حمص ١٩٧٣. كما ترجم الدكتور مطلق مجموعة من الحكم اليابانية عن طريق الترجمة الألمانية وأصدرها في ديوان شعر تحت عنوان: «لاتبح بسرّك للريح». وله أيضاً: «زمن الحلم الأول»، ديوان شعر صادر عام ١٩٩٠. «فصول السنة اليابانية» شعر من اليابان على نمط أشعار الهايكو والتانكو، وغيرهما.

الدكتور قاسم عزاوي - من مواليد دير الزور عام ١٩٤٧ تخرج من كلية الطب في جامعة دمشق سنة ١٩٧٢ وحصل على شهادة الاختصاص بأمراض العيون من جامعة برلين عام ١٩٧٧. له نشاطات اجتماعية متعددة. فقد شارك بتأسيس رابطة الوعي العربي بدير

الـزور عام ١٩٦٢ . وفـاز بجـائـزة مهـرجان شعراء جامعة دمشق الثالث عام ١٩٦٩ . وعضو مؤسس للنـادي السينمـائي بدمشق عام ١٩٧١ . وأثنـاء دراسته الجامعية ساهم بإنشاء فرقة مسـرحيـة خلال الأعـوام ١٩٦٨ ـ ١٩٧١ ، وقـام بأدوار البطـولـة في عدة مسرحيات . عضو الجمعية السورية لتاريخ العلوم ، ونائب رئيس مجلس إدارة جمعية العاديات بدير الزور، وله اهتمامات في أبحاث التراث .

بدأ قاسم العـزاوي يكتب الشعـر منـذ عام ١٩٥٧ ولا يزال مثابراً على نظم الشعر إلى الآن . عام ١٩٩٣ نشر الدكتور عزاوي قصائده المنظومة قبل تخرجه من كلية الطب، التي تبـدأ من عام ١٩٦٧ وتنتهي في صيف تخـرجه عام ١٩٧٢ . الديوان بعنوان : «ثلاثة مواويل للخرفان المبللة» . وهي تعكس بصدق نضالات وهموم مرحلة (١٩٦٨ ـ ١٩٧٢) . «ملحمة الشبـوط الـرومي» ديـوان ثان للدكتـور قاسم عزاوي صدر في دمشق عام ١٩٩٣ ، تضمن مجموعة من القصائد بعضها نظمها في برلين أثناء مرحلة التخصص والبقية نظمها في مكان عمله ومـوطنـه ديـر الـزور، في مرحلة انحسـار حركـة التحـرر الـوطني العـربية وانهيار دول «المنظومة الاشتراكية» .

والشبـوط الـرومي : سمـك فراتي يفضـل السبـاحة عكس التيار وقد قلّت أعداده في المـرحلة الأخيـرة وكثـر شحمـه بسبب نقص قوة تيـار نهـر الفرات . وملحمة الشبوط الرومي «مهداة إلى روح المفكر المناضل ثابت عزاوي ذلك السابح أبداً عكس التيار» . إنها استعارة موفقة للتشبيه بين أمرين :

فثـابت عزاوي من مثقفي ديـر الـزور ومنـاضليهـا الذين «يغشون الوغى ويعفون عند المغنم» ، وما اندرهم في هذه الأيام . كان من مؤسسي عصبة العمل القومي في دير الزور في الثـلاثينـات ، ثم اتجه نحو الفكر الماركسي وأصبح علماً اشتراكياً معروفاً في دير الزور. أرسـل ابنـه زهيـر لدراسـة الطب في فرنسا على أمل أن يعود الطبيب زهير ويسير على خطى والـده ويعـالـج المرضى بروح انسانية عالية ولا يتقاضى أجراً من الفقراء . وعن هذا الطريق يمكن نشر الفكر الاشتراكي . ولكن الإبن «الدكتور زهير عزاوي» خيّب آمال والده بعد عودته في منتصف الخمسينـات . واستمـر ثابت العزاوي رافعاً علم الإخلاص والصدق والصراحة والاشتـراكيـة والمثـل العليـا إلى أن وافتـه المنية . ولهذا أهدى الإبن الروحي لثابت عزاوي

الدكتور قاسم عزاوي قصيدته «ملحمة الشبوط الرومي» إلى ثابت عزاوي ولنقرأ بعض أبيات هذه القصيدة ونقارنها مع مجريات هذه الأيام. جاء في القصيدة:

لا تسبح يا شُبّوطي عكس التيار
فما عاد فراتُك نهراً
صار غديراً أو ساقيةً يجري فيها الرمل
وبضع جرار من ماء آسنْ
فلتترهل يا صنْوي وليكثر شحمُك
وتستبدل صبْغيّاتك ياشُبّوطي الرومي
بأخرى أحدث منها حَسْبَ شروطِ البنك الدوليِّ
وحسب البند السابع من ميثاق الأمم المتحدة
لا تسبح يا شُبوطي عكس التيار
ولا تعجبْ إن رُحْتَ غداً في أنبوب
يحمل نهركَ كي يروي مستوطنةً
لعدُوِّيَ وعَدْوِّكَ في الأرض المسبية

لم يكتف الدكتور قاسم عزاوي بإهداء هذه القصيدة إلى أبيه الروحي ثابت عزاوي بل صدّر الديوان أيضاً بالإهداء التالي:

إلى من أوقد شعلة الوطنية في وادي الفرات ضد الطامعين والغزاة
إلى من نادى بالقومية العربية في زمن تسوده العشائرية والطائفية والاقليمية
إلى من آمن بالعدالة الاجتماعية والاشتراكية العلمية ووقف حياته نصيراً للمحرومين
إلى المناضل والمفكر السابح أبداً عكس التيار
إلى أبي الروحي المرحوم ثابت عزاوي

الدكتور نزار بني المرجة - نشر مجموعة من قصائده في دوريات سورية وفلسطينية في الفترة ما بين ١٩٧٦ - ١٩٧٩، ثم نشرها عام ١٩٨٢ في دمشق في مجموعة تحت عنوان: «أفراح الحزن القارس» مهدياً إياها

«إلى الأشجار:
ـ رمزاً للشعوب (تجذّراً وامتداداً!)
ـ ونشيداً للأرض بلون أخضر. . .»

وفي عام ١٩٩١ نشر الدكتور بني المرجة مجموعة شعرية جديدة بعنوان: «سيّد الماء والتراب» اهداها إلى الإنتفاضة. . شهداء. . . وثُواراً. . وحجارة. . وله أيضاً ترجمات عدة من العربية إلى البلغارية نُشرت في دوريات صوفيا عام ١٩٨١.

الدكتورة هيفاء بيطار ـ مختصة بأمراض العيون في اللاذقية. أصدرت الدكتورة هيفاء بيطار مجموعتها القصصية «ورود لن تموت» عام ١٩٩٢ عن دار المنارة في اللاذقية. في هذه القصص تتقصى طبيبة العيون بنظرات ثاقبة الزوايا المظلمة في مجتمعنا، وببراعة فائقة، تفتش في ثنايا الطفولة عن البنى الأساسية للانسان، وبجرأة وحزم تناقش مشكلة الأنثى الأساسية، ساعية لتجسيد القيم النبيلة وبتر الفساد.

المجموعة الأخرى الصادرة عام ١٩٩٣ للدكتورة هيفاء بيطار بعنوان: «قصص مهاجرة»، صدرتها بالاهداء التالي: «إلى معلمي الأول أبي. . . إن قلبي يطفح بالحب والشكر لشخصك الفاضل».

إن من يطالع نصوص الأديبة الدكتورة هيفاء بيطار يلمس انها أقدمت بشجاعة وبإخلاص على تناول مواضيع شاقة تصوغها بأقاصيص واعدة.

رواية الأديبة الدكتورة هيفاء بيطار: «يوميات مُطَلَّقة» (الصادرة في دمشق عام ١٩٩٤). . موضوعها المرأة وعلاقتها المنكسرة بالرجل، وماينتج عن هذه العلاقة السلبية من عذابات وجروح. . حيث لايستطيع النسيج الشفيف لروح المرأة المرهفة استيعاب ذكورية الرجل البارزة على نحو فج ووحشي أيضاً. . مما يؤدي إلى استبدال الحب بالكراهية، والإلفة بالصدود، والحساسية الانثوية المأمولة بالقسوة. . فتنكسر الحياة ككأس وتتشظى؛ والكأس حين تُكسر. . تجرح.

بعد مرور أقل من عام على صدور رواية «يوميات مطلقة» اتحفت الدكتورة هيفاء بيطار المكتبة العربية برواية «قبو العباسيين» نسبة إلى ساحة العباسيين في المدخل الشمالي لدمشق حيث تجري في احدى أقبية البنايات القريبة من الساحة بعض مشاهد الرواية.

وتـرصـد الدكتورة هيفاء في هذه الرواية جوانب مهمة مضمرة من حياة فتاة جامعية، بأسلوب جريء، وأدوات أدبيـة على قدر رفيـع من النضـج والسمـو. إنهـا صوت المـرأة التي تغيّرها الأفكار، والمشاهدات، والقناعات الجديدة. . . بعيداً عن أطر التربية الأسرية الماضية في سرب حياتي واحد ووحيد.

الـدكتـورة ميـة الـرحبي - من مواليد ١٩٥٤ في روما بحكم عمل والدها، الذي تعود جذوره إلى الميادين، في السلك الدبلوماسي. حصلت على الشهادة الثانوية عام ١٩٧١، وتخـرجت من كليـة الطب جامعـة دمشق عام ١٩٧٧. ثم عاشت في ألمـانيـا بين عامي ١٩٨٠ - ١٩٨٦ للتخصص في الطب الـداخلي. وهي الآن تعمـل في عيـادتهـا بدمشق وتتكلم ثلاث لغات أوروبية.

أصـدرت الـدكتـورة ميـة الـرحبي مجمـوعتهـا القصصية عام ١٩٩٥ بعنوان: «امرأة متحـررة للعـرض» ورسمت في قصصها شخصيات من صميم الواقع، وطرحت من خلالها معـانـاة المـرأة والـرجـل على حد سواء. يربـط بين مجمـوعة القصص خيط واحد هو القهر الاجتمـاعي. فكـل قصـة تطـرح نموذجاً إنسانياً يعاني قهراً ما، يترجم قهره هذا ردود أفعال سلبية محبطة تغرقه أكثر فأكثر في لجة اليأس والاستسلام.

الـدكتـور نزار بريـك هنيدي - ولد في ٢٤/ ١٢/ ١٩٥٨ في بلدة جرمانا الواقعة إلى الجنـوب الشـرقي من دمشق. هاجر والده من جبل حوران (محافظة السويداء حالياً) وعمل في الشركة الخماسية إحدى كبرى شركات النسيج، ثم تحول إلى نجار فمالك بقالية.

نال بريـك شهـادة الـدراسـة الثانوية الفرع العلمي بدرجة امتياز عام ١٩٧٦. وكانت مواهبـه الأدبيـة قد تفجـرت وهـو في المـرحلة الثانوية، وحتى ما قبلها. وقد أصدر في تلك الفتـرة، بالتعـاون مع عدد من أصـدقائه مجلة أدبية مطبوعة على (الحرير) باسم «الواحة». وكـان ينشـر فيهـا وفي غيرها من المجلات، قصائده التي سترى النور في كتاب مطبوع عام ١٩٧٧ بعنـوان: «البـوابـة والـريـح. . . ونافذة حبيبتي». ولعل الاجواء الثقافية الناشطة في جرمـانـا كانت أحـد العـوامـل، التي ساعدت بريك على السير قدماً في مضمار نظم الشعر

وتكوين مواهبه الأدبية . فهو ـ كما كتب عنه شوقي بغدادي مقدم ديوانه ـ لم يتسلح بالتجربة وحدها بل بالثقافة أيضاً. ومن هنا استمد تفاؤله الثوري الصادق.

كانت رغبة نزار بريك دخول كلية الآداب قسم اللغة العربية للتمكن من ناصية البيان والسير قدماً في طريق الإبداع الأدبي . وتحت ضغط مجتمعة ، وحبه لمهنة الطب وعلى أساس أن «الأدب مابطعمي خبز» ، قبل بريك نصائح من حوله وسجّل في كلية الطب بجامعة دمشق عام ١٩٧٧ ، وتخرج منها عام ١٩٨٢ ، وأتمّ الدراسات العليا (اختصاص جراحة) سنة ١٩٨٦ . وبعد انهاء خدمة العلم (٨٧ ـ ١٩٨٩) افتتح عيادة في جرمانا ، ويقوم بإجراء العمليات في عدد من المستشفيات .

لم تمنع دراسة الطب ومن ثمّ العمل الطبي الدكتور نزار بريك هنيدي من الاستمرار في ابداعه الفني ونظم الشعر والمشاركة في النشاطات الثقافية . ويتعجب الدكتور بريك «لماذا يعتقد الناس أن الطبيب شخص قاس يؤدي مهنته ببرود وآلية بعيداً عن الأحاسيس والمشاعر، وأن مهنته تغلق أمامه أبواب الكشف الجمالي للواقع وتعطل من امكانية تواصله الحسي والفني مع العالم . . . هذا الاعتقاد الخاطيء لا علاقة له أبداً بطبيعة مهنة الطب التي اعتقد حازماً أنها أقرب المهن إلى نفس الشاعر أو الفنان . . .» .

وفعلاً فإن طالب الطب نزار بريك أصدر في عام ١٩٨٠ مجموعته الشعرية الثانية بعنوان : «جدلية الموت والالتصاق» ، وصدر ديوانه الثالث : «أطفال المستحيل» عام ١٩٨٦ ، سنة حصوله على شهادة الدراسات العليا في الجراحة العامة . وبعد أن شرع الدكتور بريك في ممارسة عمله كطبيب جراح صدر له عام ١٩٩٤ عن وزارة الثقافة ديوانه الرابع بعنوان «حرائق الندى» .

أول مايلفت النظر في غرفة استقبال الدكتور بريك مكتبته العامرة بمختلف الكتب الأدبية والثقافية المتنوعة . فهو ـ كما يقول ـ قاريء جيد ومتابع للحركة الثقافية ويسعى جاهداً للتوفيق بين عمله الطبي الجراحي واهتماماته الأدبية ومتابعة تيارات الفكر السياسي والعلم المجرد . ويؤكد الدكتور بريك أنه أكثر التصاقاً بالوسط الأدبي منه بالوسط الطبي . ولاشك أن هذا التزاوج بين الطبيب الجراح والشاعر المرهف وجد ظروفه الملائمة في جملة عوامل مرتبطة بتكونه العلمي والاجتماعي والفكري . كما يرعى هذا التزاوج بين الطبيب والشاعر الأجواء البيتية الملائمة . . .

الـمـلاحـــق

الملحق الأول

التعريف بعدد من الأطباء
في الأربعينات والنصف الأول من الخمسينات

هذه العينة من الأطباء المدرجة أسماؤ هم أدناه مأخوذة من مصدرين: «عالمنا العربي» تأليف نعمة زيدان، دمشق ١٩٥٦. و«من هم في العالم العربي» الجزء الأول سورية يصدرها مكتب الدراسات السورية العربية، مديرها جورج فارس. دمشق ١٩٥٧.
وهؤلاء الأطباء كانوا على رأس عملهم في منتصف الخمسينات تاريخ صدور الكتابين في عامي ١٩٥٦ و١٩٥٧. ويلاحظ أن أكثرية الأطباء المذكورين عملوا في دمشق وحماة والبقية وهي قلة عملوا في بقية المدن. ويبدو أن عدم ذكر جامعي نشاطات الأطباء لمن يعملون في بقية المحافظات يعود لأسباب تقنية مالية، إذ أن السفر إلى مختلف المدن لجمع المعلومات تكلف وقتاً ومالاً. ولهذا اقتصر زيدان وفارس على أطباء دمشق وحماة، والملفت للنظر أن حلب كانت تعادل دمشق أو تفوقها في عدد الأطباء الذين نجهل أسماءهم ولم يقع بين أيدينا مصدر آخر يسجل نشاط أطباء حلب وحمص وغيرهما من المدن..

تتضمن قائمة الأطباء هذه، التي هي أشبه بعينة، معلومات عن كل طبيب مذكورة بالتسلسل، تحاشياً للتكرار وهي كما يلي: اسم الطبيب، مكان الولادة، زمن الولادة،

الجـامعـة التي تخـرج منها، سنة التخرج ان عُرفت، وضعه الحزبي، النوادي والجمعيات والهيئـات التي عمـل فيهـا الطبيب، هوايتـه، انتـاجـه الفكـري، غيـر الطبي، والمناصب الحكـوميـة التي احتلهـا، والأعمـال البـارزة التي قام بها أو أنجزها، إن وُجدت. **وفيما يلي أسماء هؤلاء الأطباء مع الوقائع المتعلقة بهم:**

١ ـ اسماعيل الاسطة: دمشق، ١٨٩١، لاينتمي لأي حزب.

٢ ـ محمد قاسم آغا: حماه، ١٨٩٧، معهد الطب بدمشق، لاينتمي لأي حزب.

٣ ـ مرشـد خاطـر: بنـائـر لبنان، ١٨٨٨، معهد الطب الفرنسي، طبيب ضابط مجند في الجيش العثمـاني أثنـاء الحـرب العـالمية الأولى أسر في محطة غدير ١٩١٨ فالتحق بالجيش العـربي بقيـادة الأميـر فيصـل ورُقيَ إلى رتبـة مقدم، عضو المجمع العلمي العـربي منـذ عام ١٩١٩، من مؤسسي معهد الطب العربي بدمشق واستاذ الأمراض الجـراحيـة فيه. وهو منشيء مجلة معهد الطب العربي كما مرّ معنا، وزير الصحة من ١٩ حزيران ١٩٥٢ إلى ١١ تموز ١٩٥٣.

٤ ـ زكريا حسن زكريا: جبلة، ١٨٨٦، معهد الطب الفرنسي لاينتمي لأي حزب، هوايته الزراعة.

٥ ـ حسني سبـح: دمشق، ١٩٠٠، بدأ دراسـة الطب في بيـروت ثم في معهـد الطب دمشق، تخرج ١٩١٩، لاينتمي لأي حزب، عضو المجمع العلمي العربي ١٩٤٥، هوايته الصيد، عُيِّن استاذاً في معهد الطب العربي عام ١٩٢٣ وعميداً للمعهد الطبي عام ١٩٣٨ ثم رئيساً للجـامعـة السـوريـة عام ١٩٤٣ وعـام ١٩٤٧، عضو المجمع العلمي العربي. له مؤلفات طبية متعددة.

٦ ـ رشدي الطرزي: دمشق، ١٨٩٩، معهد الطب العربي بدمشق، لاينتمي لأي حزب.

٧ ـ يوسف عرقتنجي: دمشق، ١٨٨٥، معهـد الطب الفـرنسي، ١٩٠٦، لاينتمي لأي حزب لأن السياسة لم تعرف منفذاً إلى قلبه. هوايته جمع الآثار، وفي منزله متحفان. شغل منصب مدير الصحة العام من ١٩٢١ إلى ١٩٤٤.

٨ ـ نظمي القبـاني: دمشق، ١٨٩٧، معهـد الطب العـربي، لاينتمي لأي حزب، وزير الصحة سنة ١٩٥٣.

٩ ـ حسن (فؤاد) ابـراهيم باشـا: حلب، ١٨٧٩، معهـد الطب في استنبـول، ١٩٠٥، انتمى إلى الكتلة الوطنية، نائب حلب في برلمان ١٩٣٦.

١٠ ـ أحمـد كمـال الحصني: دمشق، ١٨٩٨، معهـد الطب في استنبول ودمشق، طبيب في الجيش الكمالي (كمال أتاتورك) شارك في الثورة السورية.

١١ ـ أسعـد الحكيم: دمشق، ١٨٩٢، معهـد الطب الفـرنسي، عضـو الجمعيـة العـربية الفتـاة، عضـو المجمـع العلمي العربي عام ١٩٤٦، له روايات وطنية تمثيلية لإيقاظ الروح الاستقلالية العربية.

١٢ ـ توفيق الأنصـاري: حلب خريـج معهـد استنبول الطبي عام ١٣٢٦ هـ، طبيب ولاية حلب قبل الحرب العالمية الأولى. وأثناء الحرب طبيب الجيش العثماني في المدينة المنورة. ثم التحق مع رفيقه في المدرسة محمود بك حمدي حمودة بالثورة العربية، وعـاد إلى سوريـة عام ١٩١٨، تسنّم منصب مديـر صحـة حلب، ثم رئيسـاً لأطبـاء المستشفى الوطني.

١٣ ـ مصطفى فخـري: ولـد عام ١٨٨٦ ودرس الطب في استنبـول. انتسب إلى حزب الاستقلال، واشترك في الثورة السورية (١٩٢٥ ـ ١٩٢٦) وحكم عليه بالاعدام عام ١٩٢٦، وعاش خارج سورية حتى صدور العفو عن الوطنيين عام ١٩٣٧ فعاد إلى الوطن.

١٤ ـ ابراهيم نصري دمشق ١٨٨٩ وهو ابن شيخ البزورية. تخرج من معهد الطب بدمشق (طب أسنان عام ١٩٣٤). كان له ولع شديد في العلوم والفنون الجميلة وكانت لديه مجموعة فريدة من نوعها ومن صنع يديه تجمع صور أنواع الحيوانات البرية والبحرية ولـوحـات مختلفـة المنـاظر والخطوط منقوشة على خشب أبيض نقي لايعلم أحد سر حفـرهـا ولا يمكن تقليـد صنعهـا. وكـان موسيقيـاً هاويـاً غيـر محترف وملحناً له قطع موسيقية صامتة وتواشيح وأدوار وأغاني وقصائد: وله مؤلف في فن الموسيقى الشرقية.

١٥ ـ أحمـد راتب الصبـان: ولـد عام ١٨٨١، وتخـرج من المـدرسة الطبية العسكرية في استنبـول. تطـوع لمحـاربـة الطليان في طرابلس الغرب عام ١٩١١، عُرف عنه فيما بعد أنه من أنصار الحزب الملكي الموالي للملك فيصل بدمشق.

١٦ ـ الياس عبيد: مواليد ١٨٨٣، درس الطب في الجامعة الامريكية والمكتب الطبي الشاهاني في استنبول. نائب لواء طرابلس في المجلس العمومي لولاية بيروت (قبل ١٩١٨). نائب الطائفة الارثوذكسية في المجلس التمثيلي للدولة العلوية. نجح عام ١٩٤٧ نائباً عن تلكلخ في المجلس النيابي واعتزل السياسة بعد ١٩٤٩. أصدر أيام الحرب العالمية الأولى رواية واقعية بعنوان: «الظفر في الجهاد».

١٧ ـ منير الأسود: حماة ١٩١٢، خريج الجامعة السورية. انضم إلى الكتلة الوطنية ثم اعتزل السياسة هوايته المطالعة.

١٨ ـ أجود الامام: دمشق ١٩١٧، خريج الجامعة السورية، لاينتمي لأي حزب.

١٩ ـ وجيه البارودي: حماة ١٩٠٦، خريج الجامعة الامريكية ١٩٣٢. لاينتمي لأي حزب أو ناد. هوايته الشعر وله ديوان بعنوان: «بيني وبين الغواني». وقد تحدثنا عنه بالتفصيل.

٢٠ ـ فوزي تقي الدين: دمشق ١٩١٥. خريج جامعة برلين عاد إلى دمشق ١٩٤٧. لاينتمي لأي حزب، هوايته المطالعة وسماع الموسيقى الكلاسيكية.

٢١ ـ خالص الجابري: حلب ١٩٠٠، خريج جنيف. عضو الحزب الوطني، عمل في السياسة مع قريبه سعد الله الجابري وفكر دون تنفيذ في انشاء حزب جديد على أسس عقائدية. هوايته الرسم وسماع الموسيقى.

٢٢ ـ برنانت جدجيان: حلب ١٩٠٦، خريج الجامعة الامريكية. لاينتمي لأي حزب. هوايته الاعتناء بتربية الجنائن.

٢٣ ـ ميشيل جورجيادس: حماة ١٩٠٧، خريج معهد الطب الفرنسي، في بيروت، لاينتمي لأي حزب.

٢٤ ـ غسان الجلاد: دمشق ١٩١٥، خريج الجامعة السورية. لاينتمي لأي حزب. عضو نادي دمشق وجمعية حماية الاحداث وجمعية حماية الطفل.

٢٥ ـ ابراهيم حقي: دمشق ١٩٢٠، خريج الجامعة السورية، لاينتمي لأي حزب، وناد، هوايته المطالعة.

٢٦ ـ إميل خباز: دمشق ١٩١٦، خريج جامعة برلين، لاينتمي لأي حزب عضو النادي الغساني الرياضي، هوايته الرياضة والمطالعة.

٢٧ - احسان الرفاعي : حلب ١٩١٩، خريج معهد الطب الفرنسي ، عضو جمعية التضامن الخيرية ونادي حلب وجمعية خريجي المدارس العليا . هوايته الموسيقى والأدب والعلوم الفلسفية .

٢٨ - منير الريس : حماة ١٩٠٥ ، الجامعة السورية، لاينتمي لأي حزب كما يقول ولكنه دخل حركة التحرير العربي عام ١٩٥٣ ، التي لا تعتبر حزباً بل حركة ، هوايته مطالعة الكتب الطبية والأدبية وتربية أولاده تربية علمية عالية .

٢٩ - عدنان رضا سعيد : دمشق ١٩١٦ . لاينتمي لأي حزب، هوايته الرياضة .

٣٠ - سعيد سلطان: دمشق ١٩١٤ - الجامعة السورية . لاينتمي لأي حزب، هوايته الرياضة .

٣١ - شوكت الشطي : دمشق ١٩٠٥، تخرج من المعهد الطبي العربي ١٩٢١ . لاينتمي لأي حزب . أمين عام وزارة الصحة ١٩٤٩ - ١٩٥١ . اختص في مونبيلية وعُين استاذاً في الجامعة . من مؤسسي الجمعية الطبية في دمشق وتولى رئاستها ردحاً من الزمن له : «نظرات في الزواج» و«نظرات في الصيام» صدرا عن دار اليقظة .

٣٢ - أنور شورى : دمشق ١٩٠٩ ، لاينتمي لأي حزب . .

٣٣ - منير شورى : دمشق ١٩١٠ . الجامعة السورية . دخل حزب «حركة التحرير العربي» وهي حَركَة أقامها أديب الشيشكلي في أيام عزه . انتخب نائباً عن دمشق ١٩٥٣ في برلمان الشيشكلي . وانتخب نقيباً للأطباء عام ١٩٥٥ . هوايته الرياضة والمطالعة .

٣٤ - محفوظ الشيخ ابراهيم : محردة ١٩١١ . خريج الجامعة الامريكية كان عضواً في «جمعية البنائين الأحرار»، أي كان ماسونياً، شأن كثير من اقرانه .

٣٥ - فيصل الصباغ : دمشق ١٩١٩ . الجامعة السورية ، لاينتمي لأي حزب، هوايته الموسيقى الكلاسيكية .

٣٦ - عبد الحميد العاقل: دمشق ١٩٠٨، الجامعة السورية ، لاينتمي لأي حزب . هوايته المطالعة والرياضة .

٣٧ - حنين عرقتنجي : دمشق ١٩٠٤ ، خريج المعهد الطبي الفرنسي ، لاينتمي لأي حزب ، هوايته المطالعة .

٣٨ - اسماعيل العشي : دمشق ١٩٠٢ . الجامعة السورية ، طبيب الملك حسين ، انضم

إلى الثورة السورية (١٩٢٥) فلُوحِقَ فلجأ إلى العراق، ثم عاد إلى سورية بعد العفو. انتسب إلى «حركة التحرير العربي» حزب الشيشكلي عام ١٩٥٣، أمين السر العام للشرق الأعظم السوري الماسوني. مؤسس ورئيس لجمعية أنصار الفضيلة. رئيس نادي قاسيون الرياضي. هوايته اقتناء الكتب الطبية والأدبية.

٣٩ ـ سليم العطار: دمشق ١٩٠٨، خريج معهد الطب الفرنسي، لاينتمي لأي حزب، هوايته سماع الموسيقى، وجمع الطوابع البريدية..

٤٠ ـ عصام المؤيد العظم: دمشق ١٩١٤. الجامعة السورية. لاينتمي لأي حزب.

٤١ ـ لطفي اللبابيدي: دمشق ١٩١٧، الجامعة السورية، لاينتمي لأي حزب.

٤٢ ـ ادغار اللحام: دمشق ١٩١٤، خريج باريس، لاينتمي لأي حزب.

٤٣ ـ جان اللحام: دمشق ١٩١٨، خريج باريس، لاينتمي لأي حزب.

٤٤ ـ يوسف جبران لويس: دمشق ١٩٠٧، الجامعة الامريكية، حزب التحرير العربي (حركة الشيشكلي) عام ١٩٥٣، نائب دمشق في برلمان الشيشكلي عام ١٩٥٣، عضو في المجلس الملّي الأرثوذكسي، وفي عمدة المدارس الارثوذكسية، كان يعلن أنه ضد الاقطاع والرجعية..

٤٥ ـ عزة مريدن: دمشق ١٩٠٨، الجامعة السورية، من مؤسسي حلقة الزهراء الأدبية وأعضائها البارزين، أسهم في تحرير مجلة المعهد الطبي، والقى عدة محاضرات على منبر المجمع العلمي العربي بدمشق.

٤٦ ـ محمد علي المصري: حماة ١٩١٨. الجامعة السورية، لا ينتمي لأي حزب، هوايته مطالعة الكتب الطبية والاجتماعية والروحية.

٤٧ ـ زهدي المنجد: دمشق ١٩١٤. الجامعة السورية، لاينتمي لأي حزب، هوايته المطالعة.

٤٨ ـ جورج المنير: قطينة (قرب حمص) ١٩١٦. لاينتمي لأي حزب.

٤٩ ـ مظهر المهايني: دمشق ١٩١٨، الجامعة السورية، لاينتمي لأي حزب، هوايته المطالعة.

٥٠ ـ أحمد الميداني: دمشق ١٩١٧، الجامعة السورية، لاينتمي لأي حزب.

٥١ ـ أحمد الناعم: حماة، الجامعة السورية، لاينتمي لأي حزب.

٥٢ ـ بشيـر القضمـاني : دمشق ١٩١٤ ، الجامعة السورية سنة ١٩٤١ ، هرب إلى الحجاز لأمـور سيـاسيـة في عهـد الانتداب عاد إلى دمشق سنة ١٩٤٣ . أحرق المستعمرون عيـادته سنة ١٩٤٥ . من مؤسسي الحزب الوطني عام ١٩٤٧ . أسهم عام ١٩٤٨ في تشكيـل جمعيـة تحـريـر فلسطين، التي قامت بأعمـال الاغـاثـة ، أسهم في تأسيس مستشفى لجيش الانقاذ في فلسطين مع الدكتور أمين رويحة . أمين سر نقابة الأطباء أربع سنوات متوالية . هوايته مطالعة الكتب التي تبحث في الشؤون الطبية والسياسة العربية .

٥٣ ـ عارف قيـاسـة : حمـاة ١٩١٩ ، الجامعة السورية ، انتسب إلى حركة التحرير العربي سنة ١٩٥٣ ، عضو مجلس ادارة شركة كهرباء حمص وحماة . نائب حماة سنة ١٩٥٣ في برلمان الشيشكلي . له مقالات وقصائد منشورة ومجموعة شعرية بعنوان : «البرعم الأشقر» .

٥٤ ـ دانيال كاتبة : يبرود ١٩١٦ ، الجامعة الامريكية، لاينتمي لأي حزب .

٥٥ ـ أيمن الكـزبـري : دمشق ١٩١٧ ، المعهـد الطبي الفـرنسي ، لاينتمي لأي حزب، هوايته المطالعة والتصوير.

٥٦ ـ أحمـد الأسـود : درعا ١٩٠٨ ، الجامعة السورية ١٩٣٤ ، من مؤسسي عصبة العمل القومي . ثم انتسب ١٩٤٩ إلى حرب الشعب . التجأ إلى العراق من سنة ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩ . سجن في تدمر من قبـل حكـومـة فيشي ثم هرب في ٢٣ شباط ١٩٤٠ إلى العراق فالسعودية . وعاد إلى درعا ١٩٤٦ ، نائب درعا عام ١٩٥٣ في برلمان الشيشكلي .

٥٧ ـ صبـري القبـاني : دمشق . زاول الصحافة وأصدر عام ١٩٥٦ مجلة «طبيبك» الذائعة الصيت ، رشـح نفسـه للنيـابـة في تمـوز ١٩٤٧ ، وفي أواخر آب أعلن في الصحف اعتزاله السياسة .

٥٨ ـ فرحـان الجنـدلي : حمص ١٩١٠ ، خريـج جامعـة برلين ١٩٣٦ . كان موالياً لألمانيا الهتلريـة وأصبـح أيام الحرب العالمية الثانية السكرتير الخاص للحاج أمين الحسيني أثناء التجائه إلى المانيا . عام ١٩٤٦ سجنه البريطانيون في بروكسل بسبب ميوله مع المـانيـا الهتلريـة ، ثم عاد إلى حمص وزاول بنجـاح مهنـة طب العيون ، فاز نائباً عن

حمص في المجلس النيابي (١٩٤٧ ـ ١٩٤٩). كما نجح نائباً عن حمص في الجمعية التأسيسية (١٩٤٩ ـ ١٩٥١). أصبح وزيراً أربع مرات: وزارة المعارف ١٩٥٠، وزارة الاقتصاد ١٩٥٠ ـ ١٩٥١، وزارة الصحة ١٩٦١، وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣. وقد لعبت الخدمات الطبية التي قدمها الجندلي للأهالي ومكانة عائلته الدينية (نقابة الاشراف) وكثرة عددها دوراً في نجاحه السياسي، بالاضافة إلى كونه وجهاً وطنياً.

٥٩ ـ جميل الكواكبي: من مواليد ١٩٠٩ وخريج ١٩٢٩. وهومن هواة جمع الآثار وبخاصة النقود الأثرية. وله الفضل بتمويل المتحف الوطني بدمشق ببعض موجوداته الأثرية. اتقن فن التصوير، وأخرج لوحات فنية رائعة.

٦٠ ـ منيرة العظم الخياط: دمشق ١٩١٣، الجامعة السورية ١٩٤٠. وهي كريمة عبد القادر بك العظم رئيس الجامعة السورية آنذاك. شاعرة وأديبة ولها ديوان شعر بالافرنسي مطبوع في باريس سنة ١٩٣٧.

٦١ ـ احسان الرفاعي: حلب ١٩١٩، المعهد الطبي الفرنسي ثم جامعة باريس. انتسب إلى الحزب القومي العربي أواخر الثلاثينات. عضو نادي العروبة في حلب وجمعية أصدقاء فلسطين، ولجنة أنصار السلم ١٩٤٩.

٦٢ ـ بدري الحاج فاضل عبود: دير الزور ١٩١٤، الجامعة السورية، عضو المجلس البلدي بدير الزور (١٩٥١ ـ ١٩٥٣)، نائب دير الزور، (١٩٥٤ ـ ١٩٥٨)، وزير الصحة (١٩٥٥ ـ ١٩٥٦)، عضو الكتلة الوطنية النيابية الديموقراطية (كتلة خالد العظم).

٦٣ ـ عبد الرزاق الكيلاني: حماة ١٩٢٥، الجامعة السورية ١٩٥٠، كان يصرح بأنه ينتمي لحزب الوطن والعروبة، أي أنه لم ينتم ولا يفكر بالانتماء إلى أي حزب أو جمعية معينة.

٦٤ ـ أسعد الأسطواني: دمشق ١٩٢١، انتسب إلى حزب البعث والنادي العربي، هوايته سماع الموسيقى ومشاهدة الأفلام السينمائية ولعب البريدج، وقد تحدثنا عنه.

٦٥ ـ سهيل بدورة: دمشق ١٩٢١، الجامعة السورية، لاينتمي لأي حزب.

٦٦ ـ كنعان الجابي: دمشق ١٩٢١، الجامعة السورية، لاينتمي لأي حزب، عضو النادي العربي.

٦٧ ـ ملك الجعفري : دمشق ١٩٢٧ ، لاينتمي لأي حزب .

٦٨ ـ سليمان حلاق : محردة ١٩٢١ . لاينتمي لأي حزب .

٦٩ ـ عبد اللطيف الشقفة : حماة ١٩٢٢ ، الجامعة السورية ، لاينتمي لأي حزب ، عضو جمعية إحياء العلوم الإسلامية ، هوايته المطالعة .

٧٠ ـ يوسف صائغ : الكفرون (صافيتا) ١٩٢٦ ، الجامعة الامريكية ، لاينتمي لأي حزب ، هوايته سماع الموسيقى الكلاسيكية .

٧١ ـ محمود الصباغ : حماة ١٩٢٤ ، الجامعة السورية ، لاينتمي لأي حزب .

٧٢ ـ عبد الغني عرفة : دمشق ١٩٢٢ ، الجامعة السورية ، لاينتمي لأي حزب ، هوايته المطالعة .

٧٣ ـ عائشة فوزي : دمشق ١٩٢٨ ، الجامعة السورية ، لاتنتمي لأي حزب ، عضوة جمعية المبرّة ، ولها نشاط في الحقل النسائي لإعطاء المرأة حقها الانتخابي .

٧٤ ـ محمود روحي القصير : حمص ١٩٢١ ، الجامعة السورية ، لاينتمي لأي حزب .

٧٥ ـ محمد شريف كزكز : حماة ١٩٢٦ ، الجامعة السورية ، لاينتمي لأي حزب ، هوايته سماع الموسيقى وممارسة الرياضة والرسم والدراسات النفسية .

٧٦ ـ منير السادات : دمشق ، الجامعة السورية ، عضو حزب الأحرار ١٩٤٤ ، وحزب الشعب ١٩٤٨ ، عضو نادي الروتاري .

٧٧ ـ جورج شلهوب : دمشق ١٩٠٩ ، تلقى علومه الثانوية في الكلية البطريركية بدمشق . حاز على شهادة العلوم من الجامعة السورية ، والطب من جامعة تولوز ، وشهادة دروس اختصاص في الطب من جامعة باريس . شغل مدة طبابة مؤسسة الميرة أثناء الحرب العالمية الثانية . . . وطبيب بنك سورية ولبنان منذ ١٩٣٩ . انتخب نائباً في الجمعية التأسيسية عام ١٩٤٩ ، وفي المجلس النيابي (١٩٥٤ ـ ١٩٥٨) . انتمى إلى حزب الأحرار الاشتراكي الذي اندمج في حزب الشعب حين تأسيسه عام ١٩٤٩ . ثم عمل فيما بعد في الحقل الوطني مستقلاً ، ودخل الكتلة البرلمانية الديموقراطية (كتلة خالد العظم) في برلمان ١٩٥٤ ـ ١٩٥٨ . له كتاب داء المتحولات (الأليب) ، طبع باللغة الفرنسية وهو في الأصل أطروحة الدكتوراة .

الملحق الثاني

الأطباء المنتخبون في المجالس النيابية
(١٨٧٧ - ١٩٩٠)

١ - مجلس المبعوثان وهو البرلمان العثماني الذي أقره دستور ١٨٧٦ (دستور مدحت باشا). وبموجب هذا الدستور تم انتخاب أربع مجالس (نيابية) للمبعوثان[1]:

الأول: انتخب عام ١٨٧٧ وعطّله السلطان عبد الحميد بعد مدة وجيزة في ١٤ شباط ١٨٧٨.

الثاني: انتخب على أثر ثورة الاتراك الاتحاديين ضد السلطان عبد الحميد.

الثالث: جرت انتخاباته عام ١٩١٢.

والرابع: جرت انتخاباته عام ١٩١٤ وانتهى مع هزيمة الدولة العثمانية عام ١٩١٨.

لم تضم هذه المجالس - حسب علمنا - أي طبيب من الولايات العربية. علماً أن

---

١ - راجع أسماء أعضاء مجالس المبعوثان وتفاصيل عن جلسات هذه المجالس وقرراتها في:

Sabine praetor: Der arabische Faktor in der jungtuerkische politik. klaus sehwarz verlag, Berlin 1993

الطبيب الدكتور شبلي شميل رشح نفسه عن بيروت، عام ١٩١٢ ولم يحالفه النجاح. وقد مرت تفاصيل ذلك في فصل شميل.

٢ ـ المؤتمر السوري (١٩١٩ ـ ١٩٢٠). وهو البرلمان الذي قام في العهد الفيصلي بعد انسحاب العثمانيين من البلاد العربية. تألف هذا المؤتمر من أعضاء المجلس العمومي في كل من ولايتي دمشق وحلب المنتخبين على مقتضى القانون العثماني، ومن أنصار الوحدة السورية في فلسطين الخاضعة للاحتلال البريطاني، والساحل (اللبناني السوري مع اسكندرون) الخاضع للاحتلال الفرنسي.

لم يضم المؤتمر السوري إلا طبيبين هما: الدكتور محمد حيدر ممثلاً عن دمشق، والدكتور أحمد قدري ممثلاً عن فلسطين وقد أفردنا للأخير بحثاً خاصاً[٢].

٣ ـ الجمعية التأسيسية المنتخبة عام ١٩٢٨، التي وضعت بهمة المحامي فوزي الغزي دستوراً (بورجوازياً) وطنياً مؤلفاً من ١١٥ مادة، ولكن المفوض السامي الغاضب على بعض مواد الدستور سرعان ما حل الجمعية التأسيسية.

٤ ـ المجلس النيابي لعام ١٩٣٢، وضمّ هذ المجلس طبيباً واحداً هو الدكتور توفيق الشيشكلي نائب حماة[٣].

٥ ـ المجلس النيابي لعام ١٩٣٦، الذي ضمّ ثلاثة أطباء هم: الدكتور توفيق الشيشكلي نائب حماة، والدكتور عبد الرحمن الكيالي نائب حلب، والدكتور حسن فؤاد ابراهيم باشا نائب حلب. والثلاثة أعضاء في الكتلة الوطنية.

٦ ـ المجلس النيابي (١٩٤٣ ـ ١٩٤٧) ضم ثلاثة أطباء هم: الدكتور عبد الرحمن الكيالي نائب حلب، الدكتور حكمة الحكيم نائب أدلب، الدكتور الياس عبيد نائب تلكلخ.

٧ ـ المجلس النيابي (١٩٤٧ ـ ١٩٤٩)، وضمّ خمسة أطباء هم: فرحان الجندلي

---

٢ ـ راجع أسماء أعضاء المؤتمر السوري في: الحكيم يوسف «سورية والعهد الفيصلي». . ط ٢ دار النهار بيروت، ١٩٨٠، ص ٩١ ـ ١٩٩٤.

٣ ـ راجع أسماء النواب المنتخبين في المجالس النيابية ومجلس الشعب في: فضل عفاش «مجلس الشعب في سورية ١٩٢٨ ـ ١٩٨٨، دمشق ١٩٨٨.

نائب حمص، محمــد السـراج نائب حمـاة، نديم شومـان نائب الـلاذقيـة، عبـد السـلام العجيلي نائب الرقة.

٨ ـ المجلس النيـابي (الجمعيـة التأسيسيـة) ١٩٤٩ ـ ١٩٥١، وقد ضمّ أربعة أطباء هم: أنـور ابـراهيم باشـا نائب حلب، سامي طيـارة نائب حمص، فرحـان الجنـدلي نائب حمص، محمد الشواف نائب اللاذقية.

٩ ـ المجلس النيـابي (بـرلمـان الشيشكلي) ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤، وقـد ضمّ عشرة أطباء هم: منيــر شورى نائب دمشق، حسين كمــال حمــزة نائب دمشق، فهمي الحكيم نائب ادلب، زكي مهنا نائب جبلة، سامي طيارة نائب حمص، أحمد الأسود نائب درعا، ياسين محمد الحريري نائب أزرع، أنور الياس عبيد نائب تلكلخ، عارف قياسة نائب حماة.

١٠ ـ المجلس النيـابي (بـرلمـان الـديمـوقـراطية) ١٩٥٤ ـ ١٩٥٨، وقد ضمّ أربعة أطبـاء، (اثنـان من حزب البعث)، وهـم: فيصـل الـركبي نائب حمـاة، وهيب الغانم نائب قضاء اللاذقية، بدري عبود نائب دير الزور، جورج شلهوب نائب دمشق.

١١ ـ مجلس الأمة (في عهد الجمهورية العربية المتحدة) (١٩٦٠ ـ ١٩٦١)، وقد ضمّ خمسـة أطبـاء: أكـرم سري الحسيني، حسين كمـال حمـزة دمشق، جورج شلهـوب دمشق، بشير القضماني دمشق، خضر الشيشكلي حماة.

١٢ ـ المجلس النيـابي (١٩٦١ ـ ١٩٦٢)، وضمّ ستـة أطبـاء هم: محمـود الحكيم نائب دومـا، سامي طيـارة نائب حمص، عبـد العزيز عثمان نائب حماة، نبيل الطويل نائب اللاذقية، وهيب الغانم نائب قضاء اللاذقية، محمد الشواف نائب اللاذقية.

١٣ ـ المجلس الوطني للثورة، الذي تشكل بالقانون رقم ١ تاريخ ٢٣/ ٨/ ١٩٦٥، وعقـد أولى جلسـاتـه أعضـاء المجلس في ١ ايلول ١٩٦٥، وقـد حددت المادة الأولى من القـانـون أعضـاء المجلس الوطني للثورة بـ ٦٥ عضواً يمثلون الفئات الشعبية ومنها ممثلين عن نقابة الأطباء.

١٤ ـ مجلس الشعب المشكــل بالمــرســوم التشـريعي رقم ٤٦٦ تاريـخ ١٦/ ٢/ ١٩٧١، والمحـــدد عدد أعضـائـه بـ١٧٣ عضـواً منهم الأطبـاء: محمـد الشـامي، غازي المعصـراني، محمـد علي هاشم مدني الخيمي، ديمتري ورد، محسن الخير، عبد القادر عرجا. محمود سعده، صبحي طه، عبد العزيز عثمان.

١٥ ـ مجلس الشعب المنتخب عام ١٩٧٣، والذي افتتح أولى جلساته في ٩/ ٦/ ١٩٧٣ ضم عدداً من الأطباء عرفنا منهم صبحي طه، محمد زهير العوا، محمد زين العابدين خير الله.

١٦ ـ مجلس الشعب (١٩٧٧) ضم من الأطباء صبحي عيون، فوزي القنبر، محسن بلال.

١٧ ـ مجلس الشعب (١٩٨١) ضم من الأطباء من استطعنا معرفتهم علاء الدين عابدين، أحمد مسالمة، محسن بلال، محمد علي هاشم، مصطفى سلاخو.

١٨ ـ مجلس الشعب (١٩٨٦) ضم من الأطباء زهير العوا، مصطفى سلاخو، أحمد المسالمة.

١٩ ـ مجلس الشعب (١٩٩٠) تألف من ٢٥٠ عضواً منهم ١٧ محامياً و١٧ مهندساً و١٣ دكتوراً في العلوم غير الطبية و١١ طبيباً هم[٤]: أحمد الغريب (أدلب)، باصيل دحدوح (دمشق)، عبد الفتاح جمعة (الرقة)، علي خضور (حمص)، غسان أبازيد (درعا)، كمال عامر (السويداء)، لؤي الحلو (حماة)، محمد إحسان سنقر (دمشق) زهير العوا (دمشق) ياسر السقا (حمص)، يوسف طربوش (حلب).

---

٤ ـ أخذنا أسماءهم من دائرة الذاتية في مجلس الشعب. وقبل مجلس (١٩٩٠) لايوجد أي تصنيف لمهن أعضاء مجلس الشعب. ولهذا يتعذر معرفة الأطباء منهم بدقة.

الملحق الثالث

الأطباء، الذين تقلدوا مناصب وزارية

(١٩٢٠ - ١٩٩٠)

ظهرت الدولة السورية الحديثة في أعقاب رحيل العثمانيين في خريف ١٩١٨ ودخول قوات الثورة العربية في الحجاز بقيادة الأمير فيصل بن الحسين. فقد بدأت أسس الدولة الوطنية السورية الحديثة تتكون بين عامي ١٩١٨ و١٩٢٠ في عهد الملك (الأمير) فيصل، وترسخت شرعياً مع اعلان المؤتمر السوري في ٨ آذار ١٩٢٠ استقلال سورية وتتويج فيصل ملكاً عليها. وبعد قضاء قوات الاحتلال الفرنسي في تموز ١٩٢٠ على حكومة فيصل، استمر تكوّن الدولة في عهد الانتداب الفرنسي وترسّخ بعد الاستقلال ١٩٤٣(*).

١ - الدكتور عبد الرحمن شهبندر هو أول طبيب استلم منصباً وزارياً في الدولة السورية الحديثة. فقد تألفت أول حكومة سورية بعد انهيار الدولة العثمانية (١٩١٨) ورحيل

* حول أسماء الوزراء وتاريخ توليهم للوزارة راجع: «الوزارات السورية ١٩١٨ - ١٩٨٥» اصدار رئاسة مجلس الوزراء، مكتب التوثيق والأرشفة دمشق ١٩٨٧.

الاتراك ودخول الأمير فيصل إلى دمشق. هذه الحكومة قامت برئاسة الركابي في ٢٧ ايلول ١٩١٨. وبعد اجراء عدة تعديلات في الوزارة تشكلت وزارة هاشم الأتاسي في ٢٦ أيار ١٩٢٠، واستمرت حتى وقعة ميسلون ٢٤ تموز ١٩٢٠. تقلّد الشهبندر في وزارة الأتاسي منصب وزير الخارجية. وكان تعيين الشهبندر المعروف بتمسكه بالاستقلال التام الناجز بمثابة تطمين للقوى الوطنية المناهضة للاستعمار الفرنسي.

٢ - الدكتور رضا سعيد بك استلم مقاليد وزارة المعارف - وكانت الجامعة السورية تابعة لوزارة المعارف - في حكومة صبحي بركات (٢١ كانون الأول ١٩٢٤ - ٢١ كانون الأول ١٩٢٥). وفي عهد هذه الوزارة اندلعت نيران الثورة السورية فاستقالت الوزارة واستلم المسيو بيير آليب مندوب المفوض السامي في دمشق مهام رئاسة الحكومة.

٣ - الدكتور عبد الرحمن الكيالي استلم منصب وزارتي العدل والمعارف في وزارة جميل مردم بك (٢١ كانون الأول ١٩٣٦ - ٢٣ شباط ١٩٣٩). وتألفت وزارة جميل مردم من قادة الكتلة الوطنية الأربع، التي استلمت جزءاً من السلطة بعد المعاهدة الفرنسية - السورية عام ١٩٣٦. لم تكن ثمة حقيبة لوزارة الصحة(*).

● استلم الكيالي حقيبة وزارة العدلية في حكومة سعد الله الجابري (١٩ آب ١٩٤٣ - ١٤ تشرين الأول ١٩٤٤). وهذه أول حكومة بعد الاستقلال والغاء الانتداب.

● تقلد الكيالي حقيبة وزارتي العدلية والاشغال العامة، كما عهد إليه بشؤون الأوقاف والافتاء في وزارة فارس الخوري (١٤ تشرين الأول ١٩٤٤ - ٥ نيسان ١٩٤٥).

(*) - ظهرت حقيبة وزارة الصحة لأول مرة في عهد حكومة الزعيم حسني الزعيم (١٦ نيسان ١٩٤٩ - ٢٦ حزيران ١٩٤٩)، وتقلدها فيضي الأتاسي، وهو لا ينتمي إلى السلك الطبي. وظاهرة اعتلاء منصب وزير الصحة من أشخاص غير أطباء كانت دارجة أثناء تشكيل الوزارات السورية. فبعد الأتاسي استلم وزارة الصحة الأديب خليل مردم بك ثم سامي كبارة. وفي وزارة صبري العسلي (١ آذار ١٩٥٤ - ١٩ حزيران ١٩٥٤) استلم وزارة الصحة الشاعر بدوي الجبل (أحمد سليمان الأحمد).

٤ ـ الدكتور حكمت الحكيم استلم منصب وزير الاشغال العامة في وزارة فارس الخوري (٧ نيسان ١٩٤٥ ـ ٢٣ آب ١٩٤٥). واحتفظ بهذا المنصب في وزارة الخوري الثالثة (٢٦/ ٨/ ١٩٤٥ ـ ٣٠/ ٩/ ١٩٤٥). كما تقلد منصب وزير الاقتصاد الوطني في وزارة جميل مردم بك (٢٨ كانون الأول ١٩٤٦ ـ ٢ تشرين الأول ١٩٤٧).

٥ ـ الدكتور جورج شلهوب هو أول طبيب يتقلد منصب وزارة الصحة في وزارة ناظم القدسي (٢٤ كانون الثاني ١٩٤٩ ـ ٢٧ كانون الأول ١٩٤٩).

● تقلد حقيبة وزارة الاشغال العامة في وزارة ناظم القدسي (٤ حزيران ١٩٥٠ ـ ٨ أيلول ١٩٥٠).

● تقلد حقيبة وزارة الصحة في وزارة القدسي الثانية (٨ أيلول ١٩٥٠ ـ ١٧ آذار ١٩٥١).

٦ ـ الدكتور فرحان الجندلي تقلد حقيبتي وزارتي المعارف والصحة والاسعاف العام في وزارة ناظم القدسي الأولى (٤ حزيران ١٩٥٠ ـ ٨ أيلول ١٩٥٠). وهذه الوزارة كانت مؤلفة من ثمانية وزراء منهم طبيبان هما: شلهوب والجندلي.

● تقلد حقيبة وزارة الاقتصاد الوطني في وزارة القدسي الثانية (٨ أيلول ١٩٥٠ ـ ٢٧ آذار ١٩٥١).

● تقلد حقيبة وزارة الصحة في وزارة مأمون الكزبري (٢٩/ ٩/ ١٩٦١ ـ ٢٠/ ١١/ ١٩٦١).

● تقلد حقيبة وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل في وزارة خالد العظم (٧ أيلول ١٩٦٢ ـ ٨ آذار ١٩٦٣). وقد ضمت وزارة العظم أربعة أطباء.

٧ ـ الدكتور سامي طيارة استلم منصب وزارة الصحة ووكالة الاشغال العامة والمواصلات في وزارة خالد العظم (٢٧/ ٣/ ١٩٥١ ـ ١٩/ ٨/ ١٩٥١).

● استلم منصب وزارة المعارف في وزارة الزعيم فوزي سلو (٩/ ٦/ ١٩٥٢ ـ ١١/ ٧/ ١٩٥٣).

٨ ـ الدكتور محمد الشواف استلم منصب وزير الصحة في وزارة معروف الدواليبي (٢٨/ ١١/ ١٩٥١ ـ ١/ ١٢/ ١٩٥١).

● استلم وزارة الأشغال العامة في وزارة مأمون الكزبري (١٩/ ٩/ ١٩٦١ ـ ٢٠/ ١١/ ١٩٦٢).

٩ ـ الدكتور مرشد خاطر تقلد منصب وزارة الصحة في وزارة الزعيم فوزي سلو (٩/ ٦/ ١٩٥٢ ـ ١١/ ٧/ ١٩٥٣).

١٠ ـ الدكتور نظمي القباني تقلد وزارة الصحة في عهد أديب الشيشكلي (١٩ تموز ١٩٥٣ ـ ١ آذار ١٩٥٤).

١١ ـ الدكتور وهيب الغانم تقلد منصب وزير الصحة بالوكالة في حكومة صبري العسلي (١٣/ ٢/ ١٩٥٥ ـ ١٣/ ٩/ ١٩٥٥).

١٢ ـ الدكتور بدري عبود تقلد منصب وزير الصحة (١٩٥٥ ـ ١٩٥٦).

١٣ ـ الدكتور شوكت القنواتي أصبح وزيراً للصحة في الاقليم السوري في ٦ آذار ١٩٥٨ بعد قيام الجمهورية العربية المتحدة. ثم عُيّن بدلاً من بشير العظمة المستقيل.

١٤ ـ الدكتور بشير العظمة (دمشق) هو أول طبيب يصبح رئيساً لمجلس الوزراء من ١٦ نيسان ١٩٦٢ إلى ١٧ أيلول ١٩٦٢ . ثم نائباً لرئيس مجلس الوزراء في وزارة خالد العظم (٧/ ٩/ ١٩٦٢ ـ ٨/ ٣/ ١٩٦٣). وكان العظمة قد عُين وزيراً للصحة في الوزارة المركزية بالقاهرة من (٧/ ١٠/ ١٩٥٨ ـ ١٦/ ٨/ ١٩٦١) أيام الجمهورية العربية المتحدة وقد أفردنا له دراسة خاصة.

١٥ ـ الدكتور عبد السلام العجيلي (الرقة) استلم وزارة الثقافة والارشاد القومي في وزارة العظمة (١٦/ ٤/ ١٩٦٢ ـ ١٧/ ٩/ ١٩٦٢). وبعد تعديل الوزارة في ٢١/ ٦/ ١٩٦٢ أصبح وزيراً للاعلام. وقد أفردنا له دراسة خاصة.

١٦ ـ الدكتور نبيل الطويل (اللاذقية) استلم وزارة الصحة في وزارة خالد العظم (٧/ ٩/ ١٩٦٢ ـ ٨/ ٣/ ١٩٦٣)، وقد أفردنا له دراسة خاصة.

١٧ ـ الدكتور سامي الجندي تقلد وزارة الثقافة والارشاد القومي في وزارة البيطار (٩/ ٣/ ١٩٦٣ ـ ١١/ ٥/ ١٩٦٣). وسُمي رئيساً لمجلس الوزراء بالمرسوم (٢٨ بتاريخ ١١ أيار ١٩٦٣) وقبلت استقالته في ١٣ أيار ١٩٦٣ . وفي ١٣/ ٥/ ١٩٦٣ تقلد وزارتي الاعلام والثقافة من ١٣/ ٥/ ١٩٦٣ إلى ١٣/ ٥/ ١٩٦٤ . وقد أفردنا للدكتور الجندي دراسة خاصة بسبب انتاجه الفكري.

١٨ ـ الدكتور ابراهيم ماخوس تقلد وزارة الصحة من ٩ آذار١٩٦٣ إلى ١١ أيار١٩٦٣، وعاد إليها في (١٤ آب ١٩٦٣ إلى ١٤ أيار ١٩٦٤)، ثم تقلد منصب نائب رئيس مجلس الوزراء من ٢٣/ ٩/ ١٩٦٥ إلى ٢٧/ ١١/ ١٩٦٥. ومن ١/ ٣/ ١٩٦٦ إلى ٢٨/ ١٠/ ١٩٦٨ أصبح نائباً لرئيس مجلس الوزراء ووزيراً للخارجية.

١٩ ـ الدكتور جمال الأتاسي تقلد وزارة الاعلام من ٩ آذار١٩٦٣ إلى ١١ أيار١٩٦٣. وقد أفردنا له دراسة خاصة.

٢٠ ـ الدكتور عبد الخالق النقشبندي وهو من دير الزور، وتقلد منصب وزير الدولة لشؤون المجلس الوطني لقيادة الثورة من ١٣/ ٥/ ١٩٦٣ إلى ٢/ ١٠/ ١٩٦٤. والنقشبندية طريقة صوفية معروفة كان والده شيخها في دير الزور.

٢١ ـ الدكتور عبد الخالق الشقفي عُيّن وزير للصحة من ١٣ أيار ١٩٦٣ إلى ٤ آب ١٩٦٤.

٢٢ ـ الدكتور نور الدين الأتاسي تقلد منصب وزارة الداخلية من ١٤ آب ١٩٦٣ إلى ١٣ أيار ١٩٦٤. ثم أصبح نائباً لرئيس مجلس الوزراء من ٣/ ١٠/ ١٩٦٤ إلى ٢٣/ ٩/ ١٩٦٥. ووصل إلى رئاسة الدولة عام ١٩٦٦، وكُلّف برئاسة مجلس الوزراء من ٢٩/ ١٠/ ١٩٦٨ إلى ١٥/ ١١/ ١٩٧٠. وهو رابع طبيب يصبح رئيساً لمجلس الوزراء.

ولد نور الدين الأتاسي في حمص عام ١٩٣٠ وتلقى العلم في مدارسها. وبعد أن نال شهادة الدراسة الثانوية عام ١٩٤٧ التحق بكلية الطب في الجامعة السورية، وكان معروفاً بنشاطه الحزبي البعثي. اعتُقل أيام احكم الشيشكلي ونقل إلى سجن تدمر بسبب رفضه التوقيع على ترك السياسة وعدم القيام بنشاط سياسي. تخرج من كلية الطب عام ١٩٥٦، وعمل مدة من الزمن طبيباً مقيماً في مشفى المجتهد بدمشق بهدف التخصص في الجراحة العامة.. التحق بالثورة الجزائرية (١٩٥٧ ـ ١٩٥٨)، لمعالجة الجرحى في جيش التحرير الوطني الجزائري. وبعد عودته من الجزائر افتتح عيادة في حمص من عام ١٩٦١ إلى ١٩٦٣، وبعدها تقلد مناصب حزبية وحكومية رفيعة في الستينات... وافته المنية في ٣/ ١٢/ ١٩٩٢.

٢٣ ـ الدكتور يوسف زعين وهو ثالث طبيب يصبح رئيساً لمجلس الوزراء من ٢٣/ ٩/

١٩٦٥ إلى ٢٧/ ١٢/ ١٩٦٥. واحتل المنصب نفسه من ١/ ٣/ ١٩٦٦ إلى ٢٨/ ١٠/ ١٩٦٨، كما تقلد وزارة الاصلاح الزراعي من ١٢/ ١١/ ١٩٦٣ إلى ١٤/ ٥/ ١٩٦٤.

ولـد يوسف زعين في عانـة (غربي العراق) عام ١٩٣٠ في أسرة غنية بمقاييس ذلك الزمن، إذ امتهن والده تجارة الأغنام. درس حتى الثانوية في عانة، وانتسب إلى كلية الطب في الجامعة السورية، وتخرج منها عام ١٩٥٥. افتتح عيادة في دير الزور بين عامي ١٩٥٦ ـ ١٩٦٠. وفي أثناء هذه المدة التحق بالثورة الجزائرية متطوعاً في جيش التحرير الوطني الجزائري لمعالجة الجرحى وحمل هوية جيش التحرير. سافر عام ١٩٦٠ إلى بريطانيا للتخصص في الجراحة العظمية على حسابه الخاص، وقبل أن ينهي تخصصه استُدعي من قبل قيادة حزب البعث العربي الاشتراكي للمشاركة في أعباء الحكم. كما احتل مناصب رفيعة في قيادة حزب البعث لفترة من الزمن...

٢٤ ـ الدكتور مظهر العنبري وزيراً للعدل والصحة من ١٤/ ٥/ ١٩٦٤ إلى ٣/ ١٠/ ١٩٦٤.

٢٥ ـ الدكتور مصطفى عزت نصار وزيراً للصحة من ٣/ ١٠/ ١٩٦٤ إلى ٢٣/ ٩/ ١٩٦٥.

٢٦ ـ الدكتور صادق فرعون وزيراً للصحة من ٢٣/ ٩/ ١٩٦٥ إلى ٢٥/ ١٢/ ١٩٦٥.

٢٧ ـ الدكتور حنين سياج وزيراً للصحة من ١/ ١/ ١٩٦٦ إلى ٢٣/ ٢/ ١٩٦٦.

٢٨ ـ الدكتور عبد الرحمن الأكتع وزيراً للصحة من ١/ ٣/ ١٩٦٦ إلى ٢٨/ ١٠/ ١٩٦٨.

٢٩ ـ الدكتور زكريا خياطة وزيرا للصحة من ٢٩/ ١٠/ ١٩٦٨ إلى ١٥/ ١١/ ١٩٧٠.

٣٠ ـ الدكتور داوود الردادي وزيراً للصحة ثم للدولة من ٢١/ ١١/ ١٩٧٠ إلى ٢٣/ ١٢/ ١٩٧٢.

٣١ ـ الدكتور محمود سعده وزيراً للصحة من ٣/ ٤/ ١٩٧١ إلى ٢٣/ ١٢/ ١٩٧٢.

٣٢ ـ الدكتور مدني الخيمي وزيراً للصحة من ٢٣/ ١٢/ ١٩٧٢ إلى ١٤/ ١/ ١٩٨٠.

٣٢ ـ الدكتور محمد علي هاشم وزيراً للتعليم العاليم من ٢٣/ ١٢/ ١٩٧٢ إلى ٣٠/ ٣/ ١٩٧٨.

٣٣ ـ الدكتور غصوب الرفاعي وزيراً للصحة من ١٤/ ١/ ١٩٨٠ إلى أوائل عام ١٩٨٤.

٣٤ ـ الدكتور زياد شويكي وزيراً للتعليم العالي من ١١/ ٣/ ١٩٨٤ إلى ....

الملحق الرابع

كثير من الأطباء بذلوا جهداً لنشر كتب طبية مبسطة موجهة إلى الجمهور الواسع . وقد ورد ذكر بعضهم في معرض الحديث عن نتاجهم الفكري أو نشاطهم السياسي . ولكننا لم نسع للقيام بدراسة دقيقة للأطباء، الذين كتبوا في ميدان الطب المبسط، لأن غاية هذا الكتاب هو دراسة الأطباء، الذين كتبوا في الميادين غير الطبية . وأثناء الجمع عثرنا على مؤلفات طبيبين في ميدان الطب المبسط، ولكنهما كتبا أموراً تجاوزت الطب المبسط، فرأينا الاشارة إليهما وهما الطبيب قاسم سارة من دير الزور والطبيب عبد اللطيف ياسين من دمشق

الدكتور قاسم سارة طبيب من دير الزور يقوم بنشاط ملحوظ في تأليف الكتب الطبية المبسطة مثل : «حديث أمراض القلب والأوعية» . دمشق ١٩٩٠ . «علم التغذية المبسط» . دمشق ١٩٩٢ . حديث المجلات، «الأمراض الهضمية»، دمشق ١٩٧٩ . و«المعجم المصور في الهندسة الوراثية»، الذي أهداه: «إلى العلماء العاملين بصمت وهدوء وثقة بالمستقبل» .

إضافة إلى ذلك اصدر عام ١٩٨٩ الدكتور قاسم سارة عن دار الهجرة بدمشق كتاباً جاداً بعنوان: «التعريب، جهود وآفاق»، أولى فيه اهتماماً خاصاً لتعريب المصطلحات الطبية . فقد خصص فصلاً لبدايات تعريب الطب في سورية، ثم بحث في «أهمية التعريب» واتجاهات تعريب التعليم العالي» و«اعلام التعريب» و«دور البعثات الأولى في

تعريب الطب». ولم يقصر بحث التعريب على سورية بل تعداه إلى الأقطار العربية الأخرى فتابع تجارب التعريب فيها، والعوائق، التي تقف في طريق التعريب. كما استعرض في الوقت نفسه المعاجم والقواميس، التي اختصت بالتعريب، وماصدر من مقررات ومؤتمرات في ميدان التعريب.

الدكتور عبد اللطيف ياسين اختصاصي بالجراحة النسائية والتوليد والعقم من مستشفيات وجامعة لندن، وله عيادة معروفة في دمشق. أصدر منذ منتصف الثمانينات مجموعة من الكتب الطبية المبسطة الموجهة إلى جمهور الشباب ومن يطرق أوتطرق أبواب العيادات النسائية. والملفت للنظر أن الدكتور ياسين يدعو إلى ثقافة جنسية ويعالج كثيراً منها بصراحة تسترعي الانتباه.

تستوقفنا من كتب الدكتور عبد اللطيف ياسين مقدمة كتابه: «الضار والنافع وتأثيرات المخدرات والكحول والتدخين على القدرة الجنسية والخصب والصحة العامة عند الرجل»، المطبوع في دمشق عام ١٩٩٣.

يلقي الدكتور ياسين ـ شأنه شأن العديد من الباحثين العرب ـ أسباب تخلفنا على كواهل العالم الغربي فقط مهملاً كغيره دور العوامل الداخلية الذاتية في التخلف واستمراره. وهذا أمر خطير يؤدي إلى الاتكالية والاستسلام وعدم البحث عن الاسباب الداخلية، التي لاتقل شأناً عن العامل الخارجي في تكريس التخلف. هذا لايعني أن الدكتور ياسين ـ كغيره ـ يريد الوصول إلى هذه النتيجة، ولكن العزف على أوتار العوامل الخارجية منفردة وتحميل الغرب وحده مسؤولية التخلف واهمال عواملنا الداخلية والكشف عن مكامن ضعفنا الذاتي يؤدي إلى اغماض العين عن سلبيات العوامل الذاتية وترك مسببات التخلف تسرح وتمرح على هواها طالما أن الأنظار موجهة إلى العوامل الخارجية.

ولانريد هنا أيضاً مناقشة الدكتور ياسين في منطلقاته التي تعكس واقعاً وتردد أصداء آراء منتشرة بين ظهرانينا لاتفرّق بين المراحل المتلاحقة للحضارة البورجوازية (ويسمونها الحضارة الغربية أو الأوروبية) وما جرى في الداخل من تطورات تتضمن مرحلة ماقبل الاستعمار والنضال ضد الاقطاعية وايديولوجيتها، ومرحلة الاستعمار والامبريالية، ومن ثم مرحلة الهيمنة العالمية للشركات المتعددة الجنسية ومايرافقها وينتج عنها من ظواهر وأزمات متنوعة نعيشها في أواخر هذا القرن. فالحديث عن الغرب أو الحضارة الغربية بالمطلق دون

الغوص في تناقضاتها ومراميها يؤدي إلى توجيه سهام الوطنيين المخلصين إلى غير مراميها. فتفقد الهدف وتتفاقم الأمور ويزداد العويل وتتوسع دوائر التحجر والانغلاق.

بعد هذا لنقرأ مقاطع من مقدمة الدكتور عبد اللطيف ياسين في كتابه «الضار والنافع . . . . .».

«إن مشكلتنا الكبيرة. . . هي في كوننا لم نشارك في انتاج هذه الحضارة وإنما أُرِيدَ لنا أن نقوم بدور الزبون المستهلك لها، وأن ننسى من أجل هذا الدور، حضارتنا التي فتحت أمام الغرب أبواب التقدم. . . أفرزت حضارة الغرب أمراضاً اجتماعية فتاكة ووسائل وأدوات لاتحصى هدفها تشويه الإنسان من الداخل وسلبه قيمه الانسانية والروحية كيلا يقوى على مقاومة مستغليه الذين يتاجرون بجهده ويسرقون حقه في الحياة الكريمة. .

. . إن مهمتنا اليوم أن نفضح أخطار الزيف الذي يلبس لبوس الحضارة، وأن نحمي أجيالنا القادمة من التلوث بجراثيمه القاتلة وأن نعيد النظر في مضمون أساليب التربية. . . لقد دفع المجتمع الغربي ثمن حضارته، فلماذا لانستفيد نحن من التجربة. .

لقد غرق المجتمع الغربي في مستنقع الجريمة والانحلال والتفكك الاجتماعي بسبب طبيعة الأنظمة الاقتصادية التي تحكم الغرب والتي تنشر فيه أوبئة البطالة والإدمان وماتسببان من انحرافات نفسية وعقلية. . . والخطر الآن أن أوبئة البطالة والجنس والمخدرات تنتشر في البلدان النامية يساعد على انتشارها المنتفعون بهذا الانحلال الاخلاقي الضاري».

والحل في رأي الدكتور ياسين هو «ان نعيد كتابة التاريخ القديم لنصحو من كبوتنا واحتضارنا على الرغم من المظاهر اللماعة والقشرة البراقة للحضارة التي نعيش فيها، ولنتحرر من التبعية الفكرية التي دخلت إلى الوطن العربي في العصر الحديث».

للمؤلف

١ ـ الاتجاهات الفكرية في سورية ولبنان، (١٩٢٠ ـ ١٩٤٥)، دمشق ١٩٧٣.

٢ ـ الحركة العمالية في سورية ولبنان، (١٩٠٠ ـ ١٩٤٥)، دمشق ١٩٧٣.

٣ ـ الحركة المناهضة للفاشستية في سورية ولبنان، (١٩٣٣ ـ ١٩٤٥)، بيروت ١٩٧٥.

٤ ـ القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سورية ولبنان، (١٨٢٠ ـ ١٩٢٠)، الجزء الأول، بيروت ١٩٧٥.

٥ ـ القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سورية ولبنان، (١٩٢٠ ـ ١٩٤٥)، الجزء الثاني، بيروت ١٩٧٥.

٦ ـ حركات العامة الدمشقية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، نموذج لحياة المدن في ظل الاقطاعية الشرقية، بيروت ١٩٨٥.

٧ ـ (المسألة الزراعية والحركات الفلاحية من الاحتلال العثماني حتى الاستعمار الفرنسي).

تحت عنوان: «ملامح من تاريخ الفلاحين في الوطن العربي ونضالهم في القطر العربي السوري»، إصدار الاتحاد العام للفلاحين، دمشق بدون تاريخ..

٨ ـ (المسألة الزراعية والحركات الفلاحية في مرحلة الحكم البرجوازي الاقطاعي ودراسات ميدانية عن حياة الفلاحين ونضالهم خلال النصف الأول من القرن العشرين)..

تحت عنوان: «ملامح من تاريخ الفلاحين في الوطن العربي ونضالهم في القطر العربي السوري»، إصدار الاتحاد العام للفلاحين، دمشق بدون تاريخ.

٩ ـ من الاتجاهات الفكرية في سورية ولبنان، النصف الأول من القرن العشرين. دار الأهالي، دمشق ١٩٨٧.

١٠ ـ عبد الرحمن الشهبندر (١٨٧٩ ـ ١٩٤٠)، علم نهضوي ورجل الوطنية والتحرر الفكري، دار الأهالي، دمشق ١٩٨٩.

١١ ـ العامية والانتفاضات الفلاحية، في جبل حوران، (١٨٥٠ ـ ١٩١٨)، دار الأهالي، دمشق ١٩٩٠.

١٢ ـ النهضة والاستبداد، دار الأهالي، دمشق ١٩٩٤.

الفهـــرس

نائيل مشاقة
شبلي شبيل
أحمد قدري
صلاح الدين القاسمي
عزة الجندي

صالح قنباز
توفيق الشيشكلي
عبد الرحمن الشهبندر
عبد الرحمن الكيالي
أمين رويحة

ابو اليسر عابدين
نبيل الطويل
حسن هويدي
محمد فائز الط

سامي الجندي
جمال الأتاسي
وهيب الغانم

عبد السلام العجيلي
وجيه البارودي
علي الناصر

عبد الرحمن شقير
جورج حبش
بشير العظمة
نبيه رشيدات